الدكتور إسحق رمزى

مشكلات الأطفال اليومية

كتاب فى أصول الصحة العقلية

للدكتور دجلاس توم



دار المعارف بمصر

الدكتور إسحق رمزي

مشكلات الأطفال اليوميَّة

كتاب في أصول الصحة العقلية

للدكتور دجلاس توم



دار المعارف بمصر

ترجمة وتعليق على كتاب

للدكتور دجلاس توم

مدير العيادات السيكلوجية بمدينة بوسطن
وأستاذ الطب النفسانى بجامعة هارفرد

بإذن خاص من الناشر بنيويورك

الطبعة الأولى — سنة ١٩٤٥
الطبعة الثانية — سنة ١٩٤٨
الطبعة الثالثة — سنة ١٩٥٠
الطبعة الرابعة — سنة ١٩٥٢
الطبعة الخامسة — سنة ١٩٥٣
الطبعة السادسة — سنة ١٩٥٤
الطبعة السابعة — سنة ١٩٥٧

ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر

إلى أستاذنا

إسماعيل القباني

من بعض غرسه

تقديم

الطبعة الخامسة

لا يزال هذا الكتاب حيًّا يقرأه الناس وتتناوله منهم فئات مختلفة بالمطالعة والدرس . غير أنه إذا كان هذا دلالة على أنه حقق بعض ما كنا نهدف إليه من ترجمته منذ سنوات ، فقد عجز هو وغيره مما بذلناه من جهود عن تحقيق الجانب الآخر ، على ما له من خطر وما يتطلب من عمل أمين خالص وإعداد طويل رصين .

ذلك هو العناية بالصحة العقلية للأجيال الناشئة والقيام على تهيئة المعاهد والعيادات اللازمة لذلك . وهو أمر إن لم نتناوله فى حزم وحرص واستبصار ، بقـــدر ما تناولنا أمورنا العامة فى هذه النهضة المباركة ، فقد يكون من الخير أن نترك الأوضاع فى هذا الميدان على ما هى عليه من عوج وما بها من نقص وما تؤدى إليه من خسار .

لكن لعل الطبعة التالية من هذا الكتاب ترى ميدان الصحة العقلية ، • إعداد المشتغلين بها ، وقد تهيأ لنا من أمرنا فيه رشداً .

القاهرة ، أكتوبر ١٩٥٣ — إسحق رمزى

تقديم

الطبعة الثالثة

يبدو أن هــذا الكتاب يسد حاجة ملحة عند طائفة كبيرة من القراء . فقد ظهرت الطبعة الأولى منه فى أواخر عام ١٩٤٥ وسرعان ما نفدت . ولم تسمح ظروف الطباعة بإعادة طبعه إلا فى عام ١٩٤٨ ، فلم تكد تظهر الطبعة الثانية ، فى بضعة آلاف لم تألف دور النشر طبعها من مثل هــذا الكتاب ، حتى نفدت هى الأخرى .

ويعود هذا ، فيما يخيل إلينا ، إلى أمرين : أحــدهما . هذه الكثرة الغريبة لما يصاب به الناس من علل العقل الصغرى والكبرى ؛ بل من الأعراض البدنية ، التى تقتصر عليها مثل هذه العلل أحياناً ، حيث لا يجدى فيها دواء أو ينفع بإزائها تطبيب بدنى . وهذه الزيادة فى إدراك الجمهور لهذه العلل وتشوقهم إلى زيادة معارفهم عنها تشوقاً ليس أدل عليه من تواتر ما ينشر عنها فى الصحف السيارة ، دقيقاً أو غير دقيق ، ومن كثرة ما يدور حولها من القصص وما يعرض عنها فى دور السينما ، وشيوع ما يجرى بشأنها على الألسنة فى الأحاديث اليومية .

والثانى هو أن للكتاب الذى بين أيدينا قيمة فريدة لا بين الكتب العربية وحدها بل بين كافة ما كتب من نوعه فى اللغات الأخرى . فقد أتيح لنا خلال السنوات الأخيرة أن نستزيد من الإلمــام بطائفة كبيرة مما كتب عن أصول الصحة العقلية فما رأينا بعــد كتاباً يقربه فى عرض الأسس التى

تقوم عليها صحة النفس عرضاً يتميز بحسن النظـــر ودقة الرأى ووقار الأسلوب بمثل ما يتميز به هـــذا الكتاب ؛ رغم ما التزمه صاحبه من توطئة ما يقول به وتيسير ما كان لا بد منه من النظريات العلمية والتطبيقات العملية .

ونحن إذ نقدم هذه الطبعة الثالثة ، نرجو أن يواتيها من التوفيق مثل ما واتى سابقتيها فى الانتشار ، وأكثر مما واتاهما فى تنبيه أذهان المسئولين إلى مقدار تخلفنا فى ميدان الصحة العقلية وإلى ضرورة إنشاء ما يكفى من العيـــادات النفسية وتهيئة ما ينبغى من الخدمات السيكولوجية للجمهور عامة ، وإلى ضرورة إعداد من يستطيعون علاج الصغار والكبار من المشكلات النفسية التى يندر ألا تصاب بها الكثرة من الناس مرة خلال الحياة ، بعـــد أن ازداد الكفاح فيها حدة وزاد ما يدفع فيها إلى القلق والجزع ، وتغيرت النظم والأوضاع والمثل تغيراً لم تعهده الإنسانية من قبل .

إسحق رمزى
دكتور فى علم النفس من جامعة لندن
عضو الجمعية البريطانية للتحليل النفسى

القاهرة ، مارس ١٩٥٠

تقديم
الطبعة الأولى

أول ما يحفل به الناس في الحياة هو صحة أبدانهم ، ويكفى أن تسمع إلى التحيات التى يتبادلونها ، أو أن ترنو ببصرك إلى أسماء الأطباء وعدد الصيدليات وإعلانات الأدوية ، وأن تفكر في عدد المصحات والمستشفيات . وفى قدر عناية الدولة بصحة الأمة وما تبذله فى هذا السبيل من جهد وما تسخو به من مال — يكفى أن تفكر فى هذا وفيما إليه قليلا حتى تدرك مدى احتفال الناس بأبدانهم وقدر اهتمامهم بصحة أجسامهم . بل لقد تقول إن هذا ليبلغ من البداهة حداً لايدعو إلى التفكير فيه .

لكنك تلقى العابس وتألم من المشاكس ، وتسمع عن الفاشل وعن الناجح . وتشكو من الهم والأرق ، وتعرض لك من ألوان المشاعر ما قد تضيق به فيكاد يزهق أنفاسك ؛ وتعرف ما يقع بين الناس من أشكال الخلاف ، وما ينجم بين الأب وابنه ، والزوج وزوجه من ضروب الخلاف التى تصل إلى القطيعة ، وما هو أسوأ من القطيعة ، وتعرف أن من الناس من يكذب ، أو يتبطل ، أو يجرم ، أو يلتاث ، أو يحاول الانتحار — تعرف هذا كله فلا يخطر لك أن هذه جميعها علل كعلل البدن ، يمكن أن تتقى قبل وقوعها أو أن تعالج إذا نزلت بالمرء أو لازمته .

وأنت فى هذا وذاك غير ملوم . ذلك لأن الناس قد دأبوا على الاحتفال منذ مطالع الحضارة بأبدانهم ، فانصرفوا إلى دراستها دراسة أخذوا يحاولون منذ زمن ليس بالقريب أن يلتزموا فيها أصول العلم والتجريب ؛ لهذا تقدم الطب تقدماً

كبيراً حتى وصل إلى ما وصل إليه اليوم من توفيق فى الوقاية من المرض ومن نجاح فى شفاء كثير من علل البدن .

لكن أحوال النفس ودراستها — على استعصائها وخفائها — لم ينهض البحث فيها بحثاً علمياً صحيحاً إلا منذ ما يقرب من منتصف القرن الماضى ، فانصرف كثير من العلماء إلى استخدام الملاحظة والتجريب فى دراسة الظاهرات النفسية ، بل صاروا يستخدمون الإحصاء وعلوم الرياضة فى دراسة بعض جوانب الحياة العقلية ، وكثرت المؤلفات والمجلات فى هذا كثرة لا حصر لها ، وخصصت المعاهد والمعامل لدراسة علم النفس ، وذاعت الأحاديث النفسانية فى الصحف ، وشاعت فى كتب الأدب ، وأخذوا يطبقون كثيراً مما يقول به علم النفس فى كثير من ميادين الحياة كالطب والتربية والصناعة والدعاية والقضاء والتشريع .

ورغم أن هذه الفترة التى انقضت منذ نهضة علوم النفس فترة قصيرة إذا قورنت بتاريخ العلوم الأخرى ، ورغم أن ذلك العلم لم يوفق بعد إلى حل كافة المعضلات التى تتطلب الحل منه . إلا أن ما وصل إليه من الحقائق ، وما وفق إليه من نجاح من جراء تطبيقها يبشر بأنه سوف يتخذ فى حياة الناس فى العصور المقبلة دوراً لعله يكمل ما يتناقص فى حياتهم من فلسفة ، وما يعوزهم من إيمان وعقيدة .

وإذا أشفق المرء على هذا العلم من تعدد المذاهب التى تظهر فيه وتفرق المدارس التى تزعم الصحة لما تقول به وحده ، فليس عليه إلا أن يسير بينها جميعاً فى منتصف الطريق حتى يطمئن إلى أن أكثر ما تردده إن هو إلا حقائق واحدة فى عبارات متعددة ، أو هو نغمات تتجاوب لا نشوز فيها إلا للأذن التى لم تألف سماعها . والعلة فى هـــذا كله تعود إلى أنه علم فتىٌّ شابٌّ له كل ما للشباب من نزعات الفورة والحركة ، ولأصحابه من الزهو والعجب ما يأخذهم به ميدانهم الجديد . على أن النظرة الثاقبة الوئيدة كفيلة بأن تبعث الرضا والتفاؤل

بمستقبل علم النفس ، ويكفى أن نذكر أن النزعة الغالبة فيه اليوم هى اتخاذ الطريقة التكاملية منهجاً لدراسة الإنسان من حيث هو وحدة من بدن ونفس تعيش فى مجتمع من الناس ، وأن أحداً من العالمين بالنفس إذا هو لم ينصرف إلى العمل وفق هذا المنهج فهو لا يحاول العمل ألبتة على إنكاره. والفروق التى تظهر بين مذاهبهم ليست بعد إلا انصرافاً إلى دراسة جانب من جوانب الحياة النفسية ، وترجيحاً لأهميته وقدره على غيره من الجوانب الأخرى ترجيحاً قد يدفع إليه حداثة هذا العلم كما أسلفنا .

ومن أهم النواحى التى طبقت عليها حقائق علم النفس ومعارفه ميدان الصحة العقلية أو النفسية ، على أنه لا ينبغى أن يظن أنّا بالحديث عن الصحة العقلية نتحدث فحسب عن مشكلات البله أو الجنون ، أو أن أغلب حديثنا ينصرف إليها . ذلك لأن صحة النفس أمر يمس حياة الناس كافة ويتدخل فى العلاقات اليومية بين كل فرد وفرد ، ويتغلغل فى كل وجه من أوجه السلوك الإنسانى .

ويكفى لكى ندلل على وجوب العناية بالناحية النفسانية « بأنه قد قدر أن ما يزيد على نصف كافة المرضى الذين يترددون على الأطباء للعلاج أو يدخلون المستشفيات ليسوا مصابين فى الواقع بأية علة عضوية . ويعتقد " ستّرخر" أن نصف المعضلات فى حالات المرض الحادة وثلاثة أرباع المصاعب فى حالات النقاهة تعود أصلا إلى نفسية المريض لا إلى جسمه . . . وقد ثبت من استفتاء أجاب عنه أساتذة كليات الطب أن ٣٥ فى المائة من كافة المرضى الذين يلتمسون العلاج الطبى ترجع شكواهم بعضها أو كلها إلى شكل من أشكال الاضطراب النفسى »[١].

وقد عرفت عبارة « الصحة العقلية » منذ القرن الماضى ، غير أنها شاعت من

---

(١) Wallin : *Personality Maladjustments and Mental Hygien* p. 18 (New York, 1935)

أوائل القرن العشرين حين اقترح الدكتور « أدلف ماير » أستاذ الطب النفسانى المشهور تلك العبارة على كليفورد بيرز فى سنة ١٩٠٧ . وكان هذا رجلا أصيب فى عقله ثم شفى ، وكتب كتابه المعروف « عقل وجد نفسه » ، فوقف حياته وثروته بعد ذلك لنشر حركة « الصحة العقلية » للعمل على تحسين حال المرضى بعقولهم ، وتهذيب وسائل علاجهم ، ثم اتسعت الحركة بعد ذلك حتى أصبحت جانباً هامًّا من خدمة الصحة الشعبية ، ومن الطب الوقائى ، قطع أشواطاً بعيدة فى سبيل النجاح والانتشار ، نظراً لاعتماده على علوم النفس وبحوثها الحديثة ، واستغلاله إلى جانب ذلك كثيراً من الحقائق التى تتصل به من ميادين العلوم الأخرى مثل الطب ووظائف الأعضاء والاجتماع والتربية والطب النفسانى والخدمة الاجتماعية .

ومن ثم أصبح علم الصحة العقلية مجموعة من المعارف التى يبتغى منها إرشاد الحياة ، وتدبير النشاط فيها تدبيراً يؤدى إلى انتظام الشخصية واتزانها ، ووقاية الناس منذ صغرهم وفى كبرهم من الشقاء والتعاسة . ونشر الرضا والهناءة فى حياة الناس مهمة ينبغى أن يقوم بها الآباء والمربون والقادة وكل إنسان له من مركزه أو مكانته ما يهيئ له التأثير على حياة غيره . لهذا لم يكن العلم بحقائق الصحة العقلية والعمل بمبادئها مقصوراً على فئة بعينها تقوم به ، بل هو واجب اجتماعى عام . ولذلك تشمل كتب الصحة العقلية المفصلة من الأبواب ما ينبغى الأخذ به من تعاليمها فى الأسر والمدارس والعلاقات الاجتماعية وحياة الناس اليومية فى مختلف نواحيها .

على أنه إذا كان يرجى من ذلك الفن العملى التماس السعادة ، والفوز بالرضا والدعة والتوفيق فى الحياة ، واتقاء أشكال الشذوذ النفسى فيها ، فإن الوقاية والعلاج فى الصحة العقلية وجهان متداخلان تداخلا كبيراً . وكما أن علاج بعض العلل الصغيرة التى تعرض للبدن يؤدى إلى الوقاية من كثير من العلل الخطيرة ،

فإن علاج علل السلوك الصغيرة فى مطالعها يعتبر وسيلة لمنع الإصابة بعد ذلك بعلل النفس الخطيرة ، وكما أن علم الصحة البدنية يعنى بصحة الأصحاء عنايته بصحة المرضى سواء بسواء، فإن فى علم الصحة العقلية ما يهم الأصحاء والمرضى والأسوياء والشواذ جميعاً ، لأنه يهدف فى معناه الواسع إلى إرشاد كل فرد إلى الحياة حياة سعيدة رحبة متناسقة ناجحة ، يفيد من المجتمع ويفيد بها منه المجتمع .

والأغلب أن يقوم بالجانب العلاجى من الصحة العقلية هيئات تسمى « بالعيادات النفسية » . ويعود تاريخ إنشائها إلى أواخر القرن الماضى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ثم ما لبثت أن انتشرت حتى بلغت العيادات مائة فى عام ١٩١٤ تعمل ملحقة بكليات الطب والمدارس وبالمحاكم . ثم قامت الحكومة الأمريكية عام ١٩٢١ بمشروع لنشر العيادات وإعداد القائمين بها حتى بلغ عددها سنة ١٩٣٧ خمسمائة عيادة . وبلغ ما عالجته فى ذلك العام ٤٠,٠٠٠ من الأطفال المشكلين . كذلك انتشرت تلك الحركة فى أوربا وخاصة فى إنجلترا وروسيا ، بل وصلت إلى البرازيل والأرجنتين .

والمألوف أن يتفرغ للعمل فى العيادة النفسانية الواحدة طبيب نفسانى ، وعالم بالنفس ، وطبيب إخصائى فى أمراض الأطفال (جانباً من الوقت) ومرشدتان اجتماعيتان أو ثلاث ، واثنان أو ثلاثة من الكتبة . ويستطيع مثل هذا القدر من العاملين بالعيادة الواحدة أن يدرسوا ويعالجوا حوالى ثلاثمائة « حالة » فى السنة .

وتقوم الباحثة الاجتماعية بالحصول على المعلومات الخاصة بأسرة الطفل والبيئة التى يعيش فيها ، وظروف أهله وتاريخ حياتهم ، كما تقوم بالإشراف على تنفيذ العلاج الذى تشير به العيادة بعد ذلك ، وتواصل تتبع الحالة . ويقوم عالم النفس بقياس ذكاء الطفل وقدرته ونواحى عجزه ، وينبغى أن يكون له إلى

جانب ذلك معرفة بالتربية ، وخبرة سابقة بالعمل مع الأطفال حتى يجيد الإشارة بما يوجهون إليه . ويقوم إخصائى الأطفال بفحص بدن الطفل وقياسه ودراسة حالته الصحية ، وكفاية تغذيته ، وما إلى ذلك . أما الطبيب النفسانى فإنه يختص بالكشف عن العقد النفسية عند الطفل . والوقوف على الميول الانفعالية التى تغلب عليه ، فتؤدى إلى الشذوذ فى سلوكه ، كما أنه يقابل أهله ويتحدث إليهم ، لأنهم كثيراً ما يكونون السبب فى شذوذ الطفل . والطبيب النفسانى — إلى ذلك — مسئول عن إدارة العيادة وتوجيه العمل فيها ، ورئاسة الاجتماعات التى تعقد لتنسيق المعلومات التى جمعها مختلف الأعضاء عن الطفل . والوصول إلى قرار فيما يتخذ بشأنه من توجيه وخطة للعلاج .

ولو أن الدولة عملت على إنشاء عيادة نفسانية فى كل مدينة ، بل فى كل حى من أحياء المدن الكبيرة — كما شرعت تفعل فى نشر الوحدات الصحية البدنية — لأصبح المال الذى سوف تبذله فى هذا السبيل كسباً للأمة ، يوفر عليها ما سوف تنفقه فيما بعد خساراً على الإصلاحيات والمحاكم والسجون ، وما هو أخفى من ذلك فى حياة أفراد الشعب اليومية من عوج أو خمول أو يأس أو عجز عن مواجهة الحياة وتبعات الحياة .

ويرجع الاهتمام بهذه العيادات التى تقوم بالناحية العلاجية ، ثم كثرة المؤلفات التى تبسط مبادئ الصحة العقلية وتوطئ أسباب الوقاية وتعمل على نشرها ، إلى أن الرأى الراجح فى علم النفس الحديث يقرر أن السنوات الأولى من العمر ، وما ينشأ عليه المرء فى مطالع الحياة هو الأساس المقيم لحياته كلها فيما بعد . حتى إنهم يقولون « إن الإنسان الصغير ليتحدد سبيل حياته منذ السنة الرابعة أو الخامسة من عمره[1] » . ومع ما قد يبدو فى هذا القول من مبالغة فليس من شك فى أن أشكال السلوك فى الكبر تتصل اتصالا وثيقاً فى صميمها بحياة الإنسان

(١) Freud : *Introductory Lectures on Psycho-analysis*, p. 208 (London 1929).

وهو غلام ، وأن استعداده والمنوال الذى يتكيف وفقه فى هذه المرحلة هو الذى يحدد له مهنته وخلقه وحياته كلها فيا بعد، وأن أصول الصحة العقلية تعود كلها إلى ذلك العهد . فليس من الغريب إذن أن نشاهد هذا الحشد من المؤلفات الكبيرة والصغيرة ومن النشرات التى تصدرها الحكومات والجمعيات ومختلف الهيئات فى البلاد الغربية لإرشاد الناس إلى العناية بتربية أبنائهم ، والاهتمام بتنشئتهم فى تلك المرحلة تنشئة صحيحة من الناحيتين البدنية والنفسية . بل الغريب أن نرى إلى هذا التقصير الشديد فى هذه الناحية فى المكتبة العربية رغم ظهور بعض الكتب التى تنصرف كلها أو جلها إلى صحة البدن والعناية به .

ولقد أتيح لنا منذ سنوات طوال أن نعمل فى تربية النشء . وأن نرى عن كثب تعدد المشكلات التى تصدر عنهم فى المدرسة وفى البيت . فشعرنا بشدة الحاجة إلى كتاب مبسط فى اللغة العربية يعرض ما ينبغى أن يتبع فى توجيه الأطفال يقرؤه الآباء . ويعملون بما فيه ، حتى يكون المنزل عوناً للمدرسة على ما تقوم به ، وخاصة ونحن نعيش فى عصر تتحول فيه أوضاع المجتمع وتتغير فيه روح التربية تحولا وتغيراً تبلبلت فيه طرائقنا فى التهذيب ، فلا نحن واصلنا التمسك بالأساليب التقليدية ، ولا نحن نعمل بما يلائم روح العصر الذى نعيش فيه والحقائق العلمية التى وصل إليها .

ولم نر خلال هذه السنوات كتاباً يجمع بين نتائج التجربة وحقائق العلم ، فيبسطها ويوطئها توطئة لا تفسدها ، إلى جانب التزامه الجد والدقة فى العرض ، قدر ما يجمع هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم إلى الآباء والأمهات والمعلمين والمعلمات وكل من فى عنقه إعداد الأجيال القادمة . ولقد اعتزمنا ترجمته منذ سنوات ، غير أنا أشفقنا أن يكون اختلاف الظروف والبيئة بين الشرق والغرب مدعاة لأن يتعسر تطبيق ما يقول به فى بلادنا. لكن تبين لنا بعد أن عاودنا قراءته ، وبعد أن رأينا مختلف المشكلات وظروفها — على قدر ما خبرناها — أن الطفل

طفل فى كل زمان وكل مكان ، وأن القواعد التى يشير بها مؤلف الكتاب لا تخرج عما يسلم به الفهم السليم فوق التزامه نتائج البحوث الحديثة فى علوم النفس والتربية والطب . هذا إلى أن ليس للعلم الصحيح وطن ، والحقائق التى يقول بها عامة تصدق على مختلف البيئات والجماعات ، كما يبدو لنا أن الظروف المحلية لا تمس صميم المبادئ العامة التى يدعو إليها .

ومؤلف هذا الكتاب أحد الثقات فى تنشئة الأطفال وعلاج مشكلاتهم ، هو الدكتور دجلاس توم Douglas A. Thom الذى ولد بمدينة بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٨٧ . وبعد أن أتم دراسة الطب عام ١٩١٢ شرع يتخصص فى الأمراض العصبية والطب النفسانى ، واشتغل بالمستشفيات العقلية حتى عام ١٩١٧ ، ثم التحق طبيباً للأمراض النفسية والعقلية بالجيش . وبعد الحرب وكلت إليه رياسة لجنة الصحة العقلية بإدارة التعمير فى بلاده .

وفى ١٩٢٠ صار مديراً للعيادة الخارجية لمستشفى الأمراض العقلية بمدينة بوسطن . وشرع خلال ذلك فى إنشاء العيادات التى توجه اهتمامها إلى الصحة العقلية للأطفال فى سنواتهم الأولى ، ونجحت تلك العيادات حتى أصبحت لها شهرة عالمية ، كما عنى بعد ذلك بالصحة العقلية لطلبة الجامعات ، وعين أستاذاً للطب النفسانى بجامعة هارفرد .

وله عدة مؤلفات منها « مشكلات الشباب اليومية » و « تدبير الطفل » ، و « توجيه المراهق » ، و « العيادات النفسانية وتنظيمها » . . . فله بعد من علمه ومن طول خبرته ما يجعله خير من يستطيع التحدث عن توجيه النشء وتقويم حياته حديثاً عملياً رصيناً .

على أنا لاقينا فى نقله إلى العربية عناء شديداً . ذلك لأن صاحبه يدق فى أسلوبه إلى حد الخفاء والامتناع حتى لقد يلتوى المعنى حيناً ، وخاصة لأنه يلح فى التوطئة . بل لقد يصطنع العامية فى لغته إن أعوزته . هذا إلى أنا حاولنا أن

نحفظ على الكتاب روحه وحيويته إلى جانب ما شق علينا فى ترجمة المصطلحات، لأنا كنا نحاول ألا نضع لفظاً جديداً إلا إذا بحثنا عنه ولم نجده فى كتب اللغة معروفاً من قبل — ونحن نرجو أن تتيسر قراءته للقارئ العام ، ولو استلزم منه فى بعض الأحايين جانباً من الأناة والإمعان . وقد شرحنا لذلك من المذاهب والمصطلحات ما يخيل إلينا لزوم الوقوف عليه منعاً للبس، وتركنا منها ما يمكن أن يفهم من سياق الحديث .

وينبغي علينا بعدُ أن نقدم الشكر للأستاذ الدكتور يوسف مراد على كريم عونه وتشجيعه، وعلى ما أفدناه من فيض معارفه . ونرجو له التوفيق فيما هو بصدده من النهوض بدراسة علوم النفس وتطبيقها والنشر عنها .

إسحق رمزى
ليسانس فى الفلسفة . دبلوم فى التربية
ماجستير فى علم النفس

القاهرة ، مارس ١٩٤٥

الفصل الأول

أهمية الوراثة والبيئة

ليس هناك من عقبة تواجه الآباء والأمهات ، إذ يبذلون الجهود لغرس العادات الطيبة فى نفوس أبنائهم . أكبر من الاعتقاد بأن أثر الوراثة يعين الخلق والسلوك والشخصية تعييناً لا يمكن تبديله . لهذا كان من اللازم ، قبل أن نشرع فى التعرض لتكوين العادات وإقامة الشخصية ، أن نقدم بعض الحقائق التى تتعلق بأهمية الوراثة والبيئة إحداهما بالنسبة للأخرى . ذلك لأنه لا جدوى من أن نتبع أولئك الذين يميلون إلى الخفض من شأن الوراثة فى تكوين الفرد العقلى والبدنى والخلقى ، ولا أولئك الذين كثيراً ما يغفلونها تماماً . هذا إلى أنه لا يمكن أن نحقق فى هذا السبيل شيئاً إذا وافقنا أصحاب المذهب الذى يؤكد تأكيداً يقينياً أن كل مظاهر التنوع فى الشخصية، سواء لحقت بالفكر أو الخلق أو السلوك ، قد تحتم قيامها فى الأطفال من قبل ، تبعاً لما قسم لهم من اختلافات أساسية فى طبائع كل منهم .

وقد يدفع وجــود مذهبين ، تختلف آراء كل منهما عن الآخر اختلافاً أساسياً بعيد المدى ، إلى الاعتقاد بأن الوراثة والبيئة قوتان تعمل كل منهما مستقلة تمام الاستقلال عن الأخرى ، وتنافس الواحدة منهما غيرها فى السيطرة على الثانية . وليس هناك من فكرة أكثر من هــذه بعثاً إلى الخطأ فى تقدير الدور الذى تقوم به كل من هاتين القوتين فى نمو الفرد . ذلك لأن الفرد ، منذ أن يكون مضغة فى بطن أمه ، يكون للبيئة على الدوام أثرها فى عوامل الوراثة الكامنة فيه . على أنه لا يكون لهذه البيئة أثر ما ، إذا لم توجد فى الفــرد تلك

الخصائص التى تلازمه عن طريق الوراثة . وإنا لن نجد فلاحاً واحداً يتساءل عن الفرق بين أهمية البذرة وأهمية التربة ، إذ أن التجربة علمته أن البذرة والتربة لا تعمل إحداهما مستقلة عن الأخرى بل هما تعملان معاً تعتمد الواحدة على الثانية ، لأن البذور الجيدة لا يطيب محصولها إلا إذا غرست فى تربة طيبة توافق نموها ، بل إن التربة السيئة تخرج حتماً محصولا أجود مما ألفناه منها لو غرسنا فيها بذراً من صنف ممتاز . وقد تكون الظروف البيولوجية التى تؤثر فى نمو الإنسان شبيهة بهذا ؛ غير أنه لعجزنا عن ضبط قياد البيئة التى ينشأ فيها الناس ، ولأنه ليس لدينا فى الوقت الحاضر طريقة نستطيع أن نقيس بها أوجه الإختلاف بين الأفراد، اللهم إلا بعض الاختبارات التقريبية ، كان من الحتم أن نقنع بهذا التعميم الذى أثبت صوابه الباحثون الأكفاء ، نتيجة لما قاموا به من ملاحظات استغرقت أعواماً طوالا .

وقد يتفق الآباء[1] والعلماء الذين يتوافرون على دراسة العادات والشخصية وعلاقاتها بحسن السلوك وبالكفاية المدرسية والصناعية وغيرهما من وجوه النجاح فى الحياة ، قد يتفقون هم « وكيركباتريك » اتفاقاً عامًّا على الأقل ، إذ هو يلخص المسألة فى تحفظ حين يقول : « إنه لا ينبغى ، من ناحية الفرد تجاهل أهمية الوراثة ، ولا التسليم بأنها تعين مصير المرء تعييناً لا مفر منه ، ذلك لأن الميول الغريزية الوراثية هى الجذور التى تقوم عليها الحياة البدنية والعقلية والخلقية . وقد ينمو بعض الناس نمواً يتفاوت فى سرعته ومداه عن نمو غيرهم . ورغم أن جميع الناس يشتركون فى الخصائص البشرية العامة ، إلا أن كل فرد يستطيع أن يقبس من بيئته ما يميزه عن غيره . وقد لا يستطيع بعض الناس أن يحقق فى بعض النواحى ما حققه غيرهم ، أو لا يسهل عليهم ذلك ، غير أن

(١) سوف يتردد كثيراً فيما يلى من الكتاب لفظ الآباء ونحن نعنى به فى كل مرة الإشارة إلى الآباء والأمهات معاً إلا إذا أردنا التخصيص وذكرنا ذلك .

أحداً لا يمكن أن يستنفد كل ما يتاح له من فرص النمو . ومن ثم كانت المشكلة العملية هى أن نقيم جهودنا على استخدام الخصائص النافعة التى نملك أكبر قدر منها[١] » .

والخصائص الوراثية هى تلك التى يعتمد نموها اعتماداً كبيراً على العوامل الجرثومية أى على خصائص الخلية التى تحدد نموها . وقد نتوقع أن تكون العوامل الجرثومية التى تسبب عيباً من عيوب الشخصية وتؤدى إلى الأمراض العقلية ، أيسر فى الملاحظة والدراسة من أشكال الخلق التى تقل عن هـــذا وضوحاً ، وتؤدى إلى نشوء الاختلافات العادية التى نشاهدها بين شخصيات الأفراد بصفة عامة . ومع هذا فإن وراثة الأمراض العقلية مشكلة لم نهتد إلى حلها بعد، ولما كانت الآراء لم تتفق حتى الآن فى هذه المسألة ، فإنا لا نستطيع أن نحسم القول عن بعض مميزات الشخصية مثل : الأثرة والغيرة والأمانة والجد وما إلى ذلك . ومع هذا فإن واحداً من أعلام الباحثين فى علم الوراثة الإنسانية يزعم « أنا نرث عن والدينا ما لهما من مزاج وشعور وحياء وكفاية ، كما نرث عنهما القامة والهيئة والثروة »[٢]. ويتفق هـــذا القول ورأى مؤلف هذا الكتاب وعقيدته . فإذا نظرنا إلى قول غيره من الباحثين الذين يهتمون اهتماماً بالغاً بإصلاح الحالة الاجتماعية للناس مثل هنرى جورج الاشتراكى رأيناه يعبر عن رأى يناقض هذا بقوله : « إن أثر الوراثة الذى شاع اليوم تقديره تقديراً عالياً لن يكون شيئاً إذا قورن بالآثار التى تشكل الإنسان بعد مجيئه إلى هذا العالم »[٣].

وتميل الأبحاث التى قام بها « جولتُن » إلى الدلالة على أنواع القـــدرة

---

(١) Henry George, quoted in *Ibid*. p. 99. (New York, 1921).

(٢) Karl Pearson, quoted in *The Trend of the Race*, by S.J. Holmes, p. 98 (New York, 1942)

(٣) E.A. Kirkpatrik : *Fundamentals of Child Study* p. 29

الممتازة تجرى وتتوارث فى بعض الأسر إلى حد كبير ، هذا إلى ما أثبته كثير من الباحثين من أن النقص العقلى قد يكون نتيجة لنقص فى الجرثومة نفسها . وهناك من الأمثلة الواضحة عن أثر الوراثة فى كفاية الفرد الذهنية ما يبلغ قدراً كبيراً من الدلالة حقاً ، غير أنه ينبغى أن نذكر إلى هذا أن التراث الاجتماعى للأفراد الذين ولدوا من أسلاف ممتازى العقل ، كان عادة يزيد كثيراً على المتوسط .

وقد عرضنا فيما سلف آراء بعض العلماء النابهين لا لإقناع القارئ ، بل كى نبين أن مسألة الوراثة ما زالت محلا للنقاش ، وأن مما لا طائل تحته أن نحاول حل هذه المشكلة حلا حاسماً فى وقتنا الحاضر . والواقع أن كل كائن حيّ يتأثر بالوراثة وبالبيئة معاً . وعوامل الوراثة ثابتة لا يمكن تغييرها ، أما البيئة فيمكن أن نعمل على تغيير عواملها وتحسين أحوالها تحسيناً لا شك فيه .

ومن الطبيعى أن يكون للوالدين فى كثير من الأحيان آراء تتسم بالجبرية والتشاؤم فيما يتعلق بالوراثة ، إذ يميل كثير منهم إلى إرجاع ما صادفوه وما يصادفونه فى الحياة من ضروب الفشل إلى ما فطروا عليه من عجز فى النواحى الاجتماعية أو الذهنية أو الخلقية ، كما أنهم ينحون إلى تفسير نقائص أبنائهم أيضاً على ضوء الوراثة . فإذا كان الطفل مغلق الذهن مثلا ، أو متأخراً فى علوم الرياضة ، لم يبعد أن تفسر أمه ذلك بقولها : « لم يفلح أحد من أسرتى فى المدرسة من قبل » كما أن الناس يكتفون فى تفسير كثير من خصائص أبنائهم وأشكال الشذوذ فيهم بالقول إن أحد أسلافه كان مصاباً بعين الأمر . وقد تلتمس الأم المكدودة المرهقة الأعصاب التى يعسر عليها قياد ابنها « الشقى » المسرف فى الحركة عزاء كبيراً فى تفسير عاداته الذميمة بقولها : « إنه طالع لأبيه لا يمكن أن يسمع لأحد كلاماً » ، كما أن الأم التى أخفقت فى تكوين عادات الإخراج المناسبة عند طفلها قد تلتمس له عذراً فى تبوله على نفسه بأنها كانت

مصابة بنفس العلة أيام طفولتها ، هذا إلى أن التأفف من بعض صنوف الطعام ، ونوبات الطبع الحادة ، وكثيراً من خصائص الشخصية الكريهة غالباً ما يلتمس تفسيرها جميعاً فى أنها قد تنقلت من الآباء إلى الأبناء .

وهذا الموقف الذى يتخذه الآباء بشأن الوراثة قد يرجع إلى أنهم بهذا يتخففون من التبعة الملقاة عليهم فيما يتعلق بنقائص الشخصية وعوج الخلق فيهم هم ، وفى أبنائهم كذلك ؛ وهو وسيلة يتخذونها لحماية أنفسهم من النقد وذريعة يردون إليها خيبتهم . وقد وفق « جلويك » فى تبيان الخطر الذى يتعرض له الأطفال إذا اصطنع الوالدون هذه الطريقة الخادعة يواسون بها أنفسهم قائلا فى ذلك : « قد يلحق الأطفال أذى خطير بسبب المبالغة التى لا مبرر لها فيما يمكن أن تؤدى إليه الوراثة ، إذا أغفلنا ما ينبغى من حيطة لا بد منها فى هذا الشأن، نظراً لمعرفتنا المحدودة عن هذا الموضوع . ذلك لأن الوالد أو المعلم إذا لم يلمس فى سلوك الطفل سوى صورة لإحدى الخصائص التى كان يتميز بها واحد أو أكثر من أسلافه تعرض بذلك لإغفال العوامل المباشرة التى أدت إلى نشوء هذه الخاصة ، لهذا ينبغى أن يعتبر الإيمان التام بالوراثة والقسمة أمراً يدفع إلى اليأس والخيبة بدلا من دفعه إلى محاولة إصلاح الأخطاء وتقويمها . هذا إلى أن موقف الوالد القلق أو المعلم الحانق كفيل بأن يزيد الآثار التى تؤذى شخصية الطفل بالإضافة إلى أى العوامل التى قد تكون فيها من قبل[١] » .

وتبين الحالة الآتية الحيف الذى قد يقع على الطفل من إسراف والديه فى الخوف من آثار الوراثة عليه :

م . . . صبى وفدت علينا به أم أخذ منها التعب والعناء كل مأخذ ، وبدت عليها دلائل الانفعال الكظيم ، تقص علينا سلوك ولدها هذا الذى يبلغ من العمر ثمانية أعوام ، وقد بلغ بها اليأس أقصاه ، لأنها كانت ترجع كل

(١) Bernard Glueck, *Mental Hygiene*, Vol. 8, No. 3.

ما يصدر عنه من مشكلات إلى الوراثة : فهو يسرق ، ويكذب ، ويدمن العادة السرية ، كما أنه صار عاصياً جريئاً وقحاً ، هذا إلى ما يبدو منه من ميل شاذ إلى استطلاع الأمور الجنسية . والحق أن فى هذا كله ما يبعث على القلق فى أى والد أو والدة ، غير أنه لا يكفى لإثارة ما شاهدناه من هلع وخشية فى هذه الوالدة بالذات .

كان والد هذا الصبى قد لقى حتفه قبل ذلك بشهرين عقب سقوطه من نافذة أحد المستشفيات العقلية ، وكان الجنون الحاد الذى أصيب به قد ظهر عليه قبل هذا بعامين ، كما كان هناك بعض الشك فى أن يكون سقوطه من النافذة انتحاراً — ومن ثم لم يكن مما يبعث على الدهشة أن تضطرب الأم من سلوك ابنها على ضوء تاريخ أبيه .

وكان أخص ما بعث فى نفسها القلق الشديد إدمان ابنها العادة السرية ، ذلك لأن زوجها كان قد أخبرها أن هذه العادة هى العلة فيما أصابه وحذرها إلى وجوب حماية ولدهما منها . ومع أن الصبى لم يكن يمارسها إلا من حين إلى حين فقد هالها الأمر هولا كبيراً .

وكانت صحة الصبى جيدة حقًّا ، كما أن الفحص السيكلوجى أثبت أن ذكاءه خارق للعادة إلى حد ما ، ولم يبد منه أية دلالة على بلبلة الانفعال[1] أو الأمراض العقلية .

---

(١) لا يقتصر الانفعال Emotion — عند أصحاب علم النفس — على الغضب . ورغم كثرة الآراء فى تحديد المراد به ، فالأغلب أن يقصد بمصطلح الانفعال أية حالة تشعر بها النفس من الحالات المعقدة التى تغلب عليها الصبغة الوجدانية ، وتكون مصحوبة على الدوام بتغيرات جسيمة بعضها ظاهر كتغيرات السحنة ولون الوجه ، وبعضها باطن كاختلاف دقات القلب أو إفراز بعض الغدد . ومن الانفعالات المعروفة الخوف والغضب والزهو والخنوع والتعجب والحنان وهذه انفعالات بسيطة منها جانب هام من جوانب إحدى الغرائز . وهناك غير ذلك انفعالات مركبة مثل الإعجاب والغيرة والحسد والحزن وغيرها . (المترجم)

ولم يبد شذوذه إلا بعد وفاة أبيه حين ذهب مع أمه ليعيش مع عمته وجدته لأبيه ، وهكذا صار الصبى مثاراً لقلق سيدات ثلاث . ولم يكن يسرق إلا من أهله ، أخذ جنيهاً مرة ووضعه فى صندوق التوفير بالمدرسة ، وفى مرات أخرى كان يسرق الحلوى والطعام وبعض المبالغ الصغيرة . أما كذبه فكان من النوع الدفاعى حتى يقى نفسه من سوء تصرف أمه بإزائه .

هكذا كانت الأم تبالغ فى نقائص ابنها وتغفل كفاياته تمام الإغفال ، فأسقطت[1] ما أفعم نفسها من قلق وأسى لمرض زوجها ووفاته على ولدها . ومن ثم كانت تفسر كل ما يصدر عنه من أخطاء على ضوء المرض الذى أصيب به زوجها من قبل . مع أن سوءات هذا الصبى لم تكن فى الواقع أكثر من العادات الرذيلة المألوفة التى يمارسها كثير من الصبيان بين وقت وآخر .

والمشكلة العملية التى تواجه الوالدين هى كيف ينهضون على خير وجه بالخصائص العقلية التى وهبها أبناؤهم . ولا يمكن القيام بهذا إلا إذا استغلوا إلى أكبر حد كافة الظروف التى تهيئها لهم البيئة ، إذ لا ينكر أحد أن البذور الطيبة لازمة للزراعة المنتجة . كما لا ينكر أحد أن التربة الخصبة والجو الحسن ، فضلا عما ينبغى من عناية ووقاية ، هى أمور لا بد منها من الناحية الأخرى إذا ما أردنا الحصول على خير الثمار . فإذا ألفينا أن واحداً من هذه العوامل ضعيف أو غير مناسب كان من اللازم أن نواصل بذل الجهود لاستخلاص خير ما يمكن مما هيأته لنا الظروف . ونمو الأطفال ونضوجهم مسألة شبيهة بتلك ، فإن ما ورثوه قد قدر لهم منذ عدة أجيال تبعد عنا إمكان التأثير عليه . ومن العبث الواضح أن نولول على ما ورثه الفرد من أسلافه . غير أنا قد شرعنا منذ قليل نقدر التعليمات

(١) الإسقاط Projection شكل من أشكال الدفاع ينسب فيه المرء دون – شعور منه – بعض رغباته المكبوتة أو صفاته ورذائله إلى غيره من الناس أو الأشياء ويلصق بهم غير ذلك من الأمور التى يحاول إخفاءها حتى عن نفسه . وتلك ظاهرة كثيراً ما نشاهدها فى الحياة اليومية ، إذ يرى اللئيم الناس لئاماً ، ويبدأ أحد الأشخاص بالإعتداء فيتهم غيره بالشروع فيه . (المترجم)

التى تتيح لنا العمل على تحسين هذا التراث الاجتماعى .

والحالة الآتية تبين العلاقة بين الوراثة والبيئة .

س . . و ب . . توأمان يبلغان من العمر عامين ونصف عام، بدا عليهما اختلاف واضح بين شخصية الواحد وأخيه اختلافاً ظهر منذ اليوم الأول لمولدهما نفسه كما اتضح أيضاً ما لكل منهما من خصائص أخذها بالوراثة الاجتماعية ، وفى سن الثانية والنصف كان س . . طفلا كثير الحركة جم النشاط « شقياً » يهتم بما حوله من الأشخاص والأشياء واعياً لكل شىء يجرى فى بيئته . وكان فى العادة لطيفاً مهذباً ، مع أن أمه شكت من « أن نوبات حادة من الغضب تعصف به إذا لم يحصل على ما يود أو لم ينفذ ما يريد » .

أما ب . . فكان على النقيض من أخيه خجولا هادئاً ينفر على الدوام ممن يقترب منه ولا تبدو عليه أية دلالة من دلالات الاهتمام بما يحيط به . وصفته أمه بأنه منقبض محب للعزلة لا يبدو عليه هناء أو ميل إلى الناس وقالت « إن نوبات الغضب لا تنتابه إلا لماماً غير أنها إذا وفدت عليه انفجر انفجاراً عنيفاً فيخربش ويرفس حتى ليبدو كأنه قد فقد صوابه عن آخره » .

هكذا كان هذان الطفلان متباينين كل التباين منذ الميلاد ، وزعت الخصائص التى تقيم الشخصية بين كل منهما توزيعاً واسع المدى من حيث الكم والكيف معاً . فسرعان ما صار س . . . يدب ويسعى ويبسم ويجذب إليه الانتباه . ذكرت أمه « أن فى طبعه ألفة وظرفاً » بينما كان ب . . يكره انتباه القوم إليه ويقطب وجهه ويهدد بالصراخ إذا اقترب أحد منه .

ومما يدعو إلى الاهتمام ، لا إلى شدة الدهشة ، أن موقف الوالدين بإزاء هذين الطفلين المختلفين قد اصطبغ إلى حد ما بالصبغة التى كانت لموقف الطفلين ، فقد كانا على الدوام يغمران س . . . بالانتباه إليه ولعل ذلك كان دون أى شعور أو عمد منهما ؛ فسرعان ما أصبح محظياً لا عند والديه فحسب بل

عند الأصدقاء والأقارب الذين كانوا يتجاهلون ب . . تجاهلا يكاد يكون تامّاً حتى لقد لاح أن الجيران كانوا يعتبرون هذا الطفل أبله « عبيطاً » ومن ثم بدأ ينمو فى س . . . كثير من الخصائص مثل الانتباه وحب الاستطلاع والثقة بالنفس وكذلك جانب من حب الكفاح والسيطرة والتماس التجارب الجديدة فى البيئة التى تحيط به ، بينما صار ب . . . نتيجة لتركه وشأنه ، أكثر حياء وتحفظاً يشعر بالمرارة وبالضغن لأنهم أهملوه ولنا أن نتوقع أن يصبح هذا الطفل غيوراً منقبضاً يحقد على الدنيا . وهكذا نرى أن كل خصائص الانطواء فى ب . . قد زادها شدة تراثه الاجتماعى ، فى حين أن ميول س . . المنبسطة(١) مثل رغبته

(١) الانطواء Introversion ويقابله الانبساط Extraversion اصطلاحان وضعهما كارل يونج C. Jung (١٨٧٥-٠٠) الذى انفصل عن العلامة فرويد بعد عدة سنين قضاها فى زيورخ متوفراً على دراسة التحليل النفسانى وتطبيقه ، وتوثقت الصلة بين الاثنين حتّى جعله فرويد رئيساً لجمعية التحليل النفسى الدولية . لكن الخلف اشتد بينهما حتّى أدى إلى انفصال يونج وتأسيسه مذهبه الذى دعاه « علم النفس التحليلى » وعبر فرويد عن هذه الفرقة فى لباقة الساسة بقوله : « لقد استأذن كل منا فى ترك صاحبه دون شعور بالحاجة إلى لقائه مرة أخرى » .

وكان مصدر الخلاف الأساسى بالطبع هو السيطرة الكاملة – التى قال بها فرويد – للميول الجنسية فى الحياة النفسية . على حين رأى يونج أن الجنس ، على ما له من سطوة فى حياة المرء ، لا يتفق ورغبة الإنسان فى الحياة الموفورة التى لا يمكن أن تقتصر على الميل الجنسى ولا أن تشتق منه وحده .

ولعل أهم ما شاع من آراء يونج هو رأيه عن طرز الناس ، وتفرقته بين الطراز « المنطوى » والطراز « المنبسط » . فهو يقول إن الطاقة النفسية عند المنطوى تجعله إلى الداخل فيتميز الفرد عندئذ بميله إلى التفكير والخيال أما عند المنبسطة فتتجه الطاقة نحو غيره من الأشياء فيسيطر عليه الميل إلى الحركة والصلات الاجتماعية . على أنه قال إن كثرة الناس لا تقتصر على أحد الطرازين بل تجمع بين خصائص كل منهما ، وإن التفرقة تقوم على الدرجة فقط ، فيمكن أن ننسب الفرد إلى أحد الطرازين تبعاً لمقدار ثقته بغيره ، وميله إلى المجتمعات ، ورغبته فى العزلة وإغراقه فى الخيال ، وميله إلى المخاطرات إلخ .

ثم زاد يونج بعد ذلك تفصيل رأيه فقال : إن الانطواء والانبساط يظهران فى أشكال السلوك المختلفة ، وهى الحس والحدس والوجدان والتفكير كما يقول ؛ وينتج من هذا أن يكون للشخصية ثمانية طرز مختلفة فهناك تفكير منطو وتفكير منبسط وحدس منطو وحدس منبسط . . . إلخ .

فى السيطرة وكراهيته لكل ما يقف فى وجهه وفكرته الكبيرة عن عظم شأنه ، وجدت تربة خصبة تترعرع بينها هى البيئة التى نشأ فيها . وعلى الرغم من أن بيئة كل منهما كانت تتكون من نفس الأشياء ويسيطر عليها عين الأشخاص فإن أثر كل منهما على الطفلين كان مناقضاً للآخر تمام التناقض .

وكثيراً ما تؤدى البيئة التى يرثها كثير من الأطفال ، لسوء حظهم ، إلى رد فعل سليم من ناحية الطفل يصدر عنه أثناء جهاده لتحسينها . وليس هناك من علة منطقية تمنعنا من أن ننتظر من الطفل السوى أن يطابق بين نفسه وبين بيئة شاذة دون أن تبدو منه بعض ردود الأفعال التى يمكن اعتبارها فعالا لا تتوافق والحياة فى المجتمع ، لأن هذا العصيان يدل فى الواقع على الاستقرار والاعتماد على النفس .

فإذا كان فى سلوك الطفل السوى أثناء محاولته أن يوافق بين نفسه وبين بيئته الشاذة ما ينم على الكفاح والثورة ، فلنذكر أن هناك خطراً فى الخلط بين الثقة بالنفس والاستقلال والعزم وبين العناد والعصيان والتوقح الجرىء .

ولو كان حقًّا أن البيئة لا تستطيع على أى وجه من الوجوه أن تغير من المستويات العقلية والخلقية التى قسم لنا أن نعيش عليها من قبل أن نولد ، لما كان هناك من جدوى فى التدريب والتربية ، ولما كان هناك من أثر للدين أو المنزل أو المدرسة . ومع أنى لا أحاول أن أخفض من شأن الوراثة أو أن أقلل من أهمية الدور الذى تلعبه فى حياة كل منا ، فإنى أود أن أؤكد أهمية البيئة فى تنمية الخصائص العقلية التى تنشأ عليها منذ مطلع الحياة .

ذلك لأن الكثرة العظمى من الأطفال الذين يبدو منهم مرذول العادات أو شذوذ الشخصية أو الميل إلى الإثم ليسوا نتاجاً لماض لا يمكن إصلاحه أو العمل على إحسان توجيهه ، بل هم فى الغالب نتيجة للبيئة التى نشأوا فيها ؛ وأهم العوامل فى هذه البيئة هم الأهل على الدوام .

الفصل الثانى

العادات

إن العادات هى الأدوات التى تحقق لنا الصحة والهناءة والكفاية . وهى التى نعتمد عليها فى المحافظة على الوقت والقوة والموارد المادية . فلا تقتصر العادات على قدرة المرء على اكتساب الأصدقاء والإبقاء على صداقتهم والعيش مع الناس عيشة راضية . بل إن منها أيضاً سعة الحيلة فى تدبير أمر نفوسنا تدبيراً يعود علينا بالأمن والدعة .

أما من يعوزه الأصدقاء وينقصه الهناء أو يفتقر إلى التوافق مع غيره فى المنزل أو المدرسة أو العمل أو المجتمع ، ومن تضيق ذات يده فيصير عالة على غيره لسد حاجاته المادية فى الحياة ، ومن يلقى الضيق والعناء للتوفيق فى الدراسة ، أو لا يكون موضعاً للثقة لا يصلح للقيام بعمله ، فإنه إن لم يكن مريض الجسم أو العقل كان فى العادة فريسة لعادات لا تصلح لأن تسد حاجاته اليومية .

فإذا عجزت العادات التى اكتسبناها عن أن تسد مطالب البيئة التى فرض علينا أن نكيف أنفسنا وفقاً لها ، أصابتنا الخيبة وانتهينا إلى الإخفاق . ولسوف يتضح فيما بعد أن أكثر الميول العصابية[1] التى تشاهد فى حياة البالغين إن هى إلا جهود يبذلها الفرد للقيام بأمرين : أولهما أن يتخلص من مطالب أحد المواقف

---

(١) Neurosis ويقصد بالعصاب اختلال وظائف الجهاز العصبى دون أن تكون الأعصاب نفسها مصابة بمرض عضوى . ومن أنواع العصاب الهستريا والحصر والهجاس والوسواس . والأمراض العصابية غير الأمراض العقلية أو الجنون Psychosis أى الاضطرابات الكبرى التى تلحق التفكير والسلوك . (المترجم)

التى تبدو له ، هو على الأقل ، عسيرة لا تطاق . والثانى أن يبقى على احترامه لنفسه بالتماس علة مقبولة للهرب من هذا الموقف . وهذه العملية التى تعرف « بالتبرير »[1] أو خداع النفس ترتبط عادة بكافة أنواع العصاب تقريباً .

واعتماد مثل هذا القدر الكبير من سلوكنا على العادات يضع هذا الوجه من وجوه الحياة فى المرتبة الأولى من الأهمية . لهذا ينبغى قبل أن نعرض له أن نبين ما نقصده بياناً واضحاً محدوداً . فلفظ العادة يتضمن كل الطرق المكتسبة للتفكير والعمل . وكلما ازداد تكرار فعل أو تفكير معين ، غلب أن يتكرر ذلك الفعل أو التفكير إذا توفرت له نفس الظروف السابقة . ذلك أن من المعروف أن تكرار أى فعل مرة بعد مرة يزيد السهولة والثقة فى القيام به بعد ذلك . ويقوم النظام الذى تسير عليه أكثر ألوان الحياة سذاجة على العادات التى اكتسبها المرء خلال نموه ونضجه . فمواعيد الاستيقاظ والاغتسال والرياضة ، ومقدار ما نتناوله من طعام على مائدة الإفطار ، وموقفنا بإزاء غيرنا من أعضاء الأسرة أو من شركائنا فى المتجر وزملائنا فى الديوان ، وما لنا من صنوف التفكير أو التصرف التى تهيئنا أو تعوقنا عن التوافق الذى ينبغى أن نحققه فى علاقاتنا بغيرنا من الناس ، كل هذا وغيره أمور تصدر عن العادة إلى حد كبير . بل إنا لا نكاد ندرك أن ما نصل إليه من قرارات إنما هى أمور سددتها ووجهتها توجيهاً آلياً تلك القوة التى يطلق عليها اسم العادة .

هذا إلى أنه لولا العادة لتعرض كثير من المهام التى ينبغى علينا القيام بها وكثير من المواقف التى لا بد من مواجهتها تعرضاً شديداً لأكبر الأخطار . ذلك لأنه إذا لم نستجب فى التوّ استجابة آلية للظروف التى تتطلبها قيادة السيارة مثلا أصبح ذلك الأمر من أكثر الأمور مخاطرة ، فلو لجأ المرء إلى

---

(١) التبرير Rationalisation عملية عقلية تدفع المرء — دون شعور منه طبعاً — إلى تكوين أسباب لا حقيقة لها يدافع بها عن عمل أو فكرة دفعه إليها اللاشعور فى الواقع . (المترجم)

التفكير فى (قفل) البنزين وجذب الفرامل واستعمال النفير والاتجاه بسرعة إلى اليمين أو إلى الشمال تبعاً للحالة ، لأدى به الخلط فى التفكير غالباً إلى وقوع كارثة ؛ ذلك لأن كل هذه الحركات المتآزرة تآزراً دقيقاً تصبح بالتدريب أمراً من أمور العادة وتعمل كل منها وفقاً لما يتطلبه كل موقف من المواقف وقت حدوثه . ويعنى هذا أن العضلات قد مرنت ودربت على الاستجابة استجابة دقيقة موفقة دون توجيه من وظائف العقل العليا . فإذا كانت قوة الإبصار أو القدرة على الحكم معيبة فلا يمكن بالطبع أن نلقى بتبعة النتائج على ذلك التآزر العضلى . ومن ثم كان من العسير أن ندرك ما للعادات من الأهمية فى القيام بهذه الأعمال وما إليها مما يتطلب مهارة عضلية .

أما العادات التى تتصل بالخلق اتصالا أوثق من هذا . فهى أكثر من تلك أهمية وخطراً ، ولنذكر صفة الأمانة على سبيل المثال ، فالشخص الأمين كل الأمانة لا حاجة به أبداً إلى أن يقف متردداً فى أحكامه : أمن الأنفع أن يسلك سلوكاً أميناً أم غير أمين ؟ وهو لا يوطن نفسه على الأمانة ، بعد أن يزن كل نواحى الأمر وزناً دقيقاً ، يدخل فيه احتمال افتضاحه ومقدار ما قد يساوره من خشية وقلق ، أو ينظر إلى الأمر أيستأهل الأمانة حقًّا أم لا يستأهلها ، بل هو أمين إلى حد كبير لأنه قد اتخذ عادة معينة من عادات التفكير ولا يدور بخلده البتة ألا يكون أميناً . أما غيره ممن غرست فى نفوسهم خلاف هذه العادت فكثيراً ما تغريهم الخيانة ، فهم أبداً يوازنون بين منافع السلوك الطيب ومضاره وقد يكون السلوك الذى يترتب عن هذا عين السلوك الذى يصدر عن الشخص الأمين حقًّا . لكن العملية النفسية التى تدفع هؤلاء وأولئك إلى فعالهم جد متباينة . إذ أن الأمناء لا ينفقون جهداً أو يلقون عناء فى اصطناع سلوكهم . أما غيرهم فقد يستلزم الأمر عندهم جهداً كبيراً من قوة الإرادة لالتزام الأمانة . وقد أحسن « ديوى » التعبير عن أهمية العادة بقوله « إن لها علينا لسطوة ، لأننا

سدى العادة ولحمتها » وبعبارته الأخرى « كل العادات تدفع إلى القيام بأنواع معينة من النشاط وهى تكوّن النفس ، وهى تحكم قيادة أفكارنا فتحدد ما يظهر منها وما يقوى وما ينبغى له أن يذهب من النور إلى الظلام »[١] .

ويميل بعض أنواع العادات إلى الارتباط بعضه ببعض . فالإنسان الطموح كفيل بمواصلة العمل نحو الهدف الذى يتطلع إليه وهو لا يدخر فى تحقيق غايته وقتاً أو مالا أو جهداً ، هذا إلى أن الكسل كثيراً ما يرتبط بالإهمال والأثرة وعدم الاهتمام بالآخرين وفقدان المثابرة وقلة الطموح ، ذلك لأن الفرد هنا لا يعمل نحو غاية معروفة واضحة . وقد يكون لدى الواحد كثير من مجاميع العادات . على أنه إذا سيطرت على الفرد عادة أو خاصة بعينها وطغت على غيرها من الخصائص طغياناً كبيراً شاهت شخصيته وانحرفت ، فكثيراً ما يؤدى حب الادخار مثلا — إذا امتلك الطفل — إلى الأثرة والأنانية ؛ كذلك إذا جرف أحد البالغين نوع من الطموح شاذ غريب ، دفع به فى العادة إلى الشرود والنشوز وغالباً ما يصبح أنانياً ، كارهاً للناس ، لا يفكر إلا فى نفسه . ذلك لأن هناك توازناً طيباً ينبغى على المرء أن يسعى وراء الحصول عليه عند تكوين شخصيته

---

(١) John Dewey : *Human Nahture* & *Conduct*, pp. 24-25 (New York, 1922)

جون ديوى (١٨٥٩-١٩٥٢) فيلسوف وعالم بالنفس كان أكبر علماء التربية فى أمريكا وكان لايزال ينتج حتى بلغ التسعين . له كتب كثيرة لعل أهمها هو « الديمقراطية والتربية » ، « المدرسة والمجتمع » ، « كيف تفكر » . وهو من أتباع مذهب الفلسفة العملية « البراغماتزم » الذى يدعو إلى اصطناع المنهج العملى فى كل نواحى الحياة . ويرى أن الناس لا يفكرون إلا إذا واجهتهم صعوبات تتطلب الحل ، وأن كل سعى وراء الحقيقة إنما يراد به الوصول إلى ما يمكن استخدامه فى الحياة العملية — وهو يدعو فى التربية إلى إعداد الناشئ إعداداً حراً يتناسب وكفايته ، ويهيئه فى هذا المجتمع المتحول المتغير للتفكير والعمل تفكيراً وعملا لا تحده التقاليد أو العرف . ويدعو إلى أن تكون الحياة فى المدرسة صورة من الحياة فى خارجها . (المترجم)

ونموها ، حتى تعمل كل الخصائص العقلية المختلفة عملا متناسقاً منسجماً وحتى يكون ذلك العمل نافعاً للفرد مجدياً عليه .

فالخصائص العقلية والصفات الخلقية التى تدفع إلى النجاح أو إلى الخيبة ، هى إلى حد كبير ألوان من العادات . والطموح والحرص والمثابرة والعدالة والنظافة والكسل والأثرة والإهمال ، وغير هذا وذاك من الصفات الأخرى التى لا تقع تحت حصر وتقيم الشخصية ليست من الأمور الموروثة على أى وجه من الوجوه . فقد نوهب ميولا إلى هذه الاتجاهات المختلفة غير أنه إذا لم تقم البيئة بتكوينها وإنمائها ، بقيت عاجزة عن التأثير فى شخصية أى فرد منا أو توجيهها .

فمنذ مطلع الحياة يبدو من الطفل ميول معينة فيما يتعلق بأبسط المسائل التى هو ملزم بمواجهتها فى حياته اليومية مثل النوم والأكل والإخراج وما إلى ذلك . وعملية تكييف الميول الطبيعية وفق الحاجات اليومية ، تشبه فى أساسها ما يحدث فى الحياة فيما بعد ، حين يشرع الصغير شيئاً فشيئاً فى تكوين الأفكار التى تتصل بالأمانة أو الصدق أو الذهاب إلى المعبد أو أداء ما عليه من دين . فهذه الميول ، التى تصبح تدريجاً بالتكرار المتواصل عادات ، هى أمور تدخل فى تكوين ما نسميه بالشخصية . فكلما كثر تكرار العادات ازداد إمكان بقائها ثابتة دائمة .

ومع ذلك فإن ديمومة العادات لا تعتمد على التكرار فحسب ، لأن مجرد دفعنا الشخص إلى القيام بالأمر مرة بعد أخرى ، لا يضمن لنا إلا فى القليل أن يقوم به إذا ما غابت الرقابة عنه . ذلك لأنه إذا لم يكن يؤدى الأمر فى كفاية ، وبقدر مناسب من السهولة ، ويستشعر لذلك جانباً من الرضا والارتياح ، ما حق لنا كثيراً أن نتوقع منه دوام القيام بذلك الأمر . لهذا ينبغى حين نود غرس العادات الطيبة أن نحاول مكافأة الطفل على إحسانه القيام بالعمل بما

يبعث فى نفسه جانباً من الارتياح الوجدانى [1] .

وقد يرتبط هذا الارتياح الوجدانى ارتباطاً مباشراً بالعادة التى نحاول غرسها . فالشعور بالتوفيق والقوة الذى يرتبط بتعلم الكلام والمشى مثلا يهيىء المثير اللازم لاكتساب التآزر العضلى الذى يتطلبه القيام بهذه الأفعال . ومع هذا فإن الطفل بطول الممارسة سرعان ما يغيب عنه الجهد الذى يبذله ، لأن أفعاله قد أصبحت لديه عادات تعودها . كما أن الشعور بالكفاية الذى يرتبط بتعلم الألعاب يبقى دائماً على اهتمام الطفل ونشاطه . هذا إلى أن درجة الإتقان التى قد يصل إليها تتصل اتصالا وثيقاً بالرضا الذى يستشعره من المران والممارسة .

ومن ثم كان قدر الارتياح الوجدانى ، الذى يحصل عليه الطفل من تعلمه عادات الأكل والإخراج والطاعة مشتقًّا إلى حد كبير — عن طريق غير مباشر — من أولئك الذين نود الحصول على رضاهم . إذ لا بد بالضرورة أن يتعلم الصغير أداء كثير من الواجبات التى لا تبعث فى نفسه سوى قدر قليل من السرور سواء فى طريقة القيام بها أو فى الغاية منها . فكثيراً ما يكون الواجب متعباً باعثاً على الضيق . هذا إلى أن رضا الغير عن القيام به لا يكون عند فئة معينة من الأطفال باعثاً كافياً فى نفسه لبذل الجهد الذى يتطلبه القيام به . لأن الأطفال يتفاوتون فى الميل إلى حب الثناء كما أنهم لم يرزقوا جميعاً تلك الخاصة من خصائص الشخصية التى تدفعهم إلى أن يعملوا بما يرضى غيرهم .

لهذا كان لا بد من أن نلتمس لإقامة العادات حوافز أخرى غير الارتياح

---

(١) تقسم مظاهر الحياة النفسية الشعورية من الناحية النظرية إلى المعرفة والوجدان والنزوع. ومما يشمله الوجدان حالات اللذة والألم غير البدنية ومختلف الانفعالات مثل الخوف والغضب والسرور والحزن والعواطف مثل الحب والكراهية . . .

على أنه ينبغى أن يلاحظ أن أية عملية عقلية تشمل تلك المظاهرات المختلفة معاً لأن الشعور وحدة واحدة ، وليست هذه النواحى الثلاث سوى مصطلحات توصف بها العملية العقلية عند غلبة واحدة من هذه النواحى على الناحيتين الأخريين . (المترجم)

الذاتى ورضا الناس . إذ لا بد من اصطناع الثواب والمدح والتأنيب والعقاب بدقة وعناية حتى يمكن إقامة العادات الحميدة وتكوين شخصية الطفل تكويناً يمكن أن يصير له عوناً على القيام بتبعاته ، بعد ذلك ، فى حياته المقبلة . وكذلك ينبغى ألا يغيب عنا نفس المبدأ إذا حاولنا اقتلاع العادات المرذولة أو نقائص الشخصية التى اتخذها الصغير من قبل ، إذ لا بد أن يحل محل هذه الخصائص ميول أخرى جديدة . ولا يكفى لذلك أن نقيم الحواجز التى تقف فى وجه رغباته أو التى تصد الانفعالات التى هى القوى الدافعة للسلوك . فلا بد أن تجد هذه القوى من المسالك الجديدة ما يتلاءم مع البيئة وما يبعث الرضا عند الطفل . كما ينبغى إرشاد الطفل وهديه لا قمعه ودفعه ، والانفعالات على الأكثر الغالب ، لا الفكر ، هى التى تقف حجر عثرة فى سبيل تكوين العادات الطيبة .

وفى سبيل التخلص من العادات المرذولة ، وتكوين عادات غيرها تنفع الطفل لا بد من دافع يبعث الصغير على الإقلاع من العادات القديمة ، وقبول العادات الجديدة ، أى أن يصنع شيئاً آخر بدلا من العادة السالفة . ولا بد أن تتضح فكرة العادة الجديدة فى ذهن الصغير وأن تظهر له أمراً يمكن تحقيقه ، وأن تبدو له المزايا التى تعود عليه من تكوينها على منوال يبعث الرضا فى نفسه أثناء جهاده فى إقامتها ، وكذلك عند إكماله إياها .

فإذا أصيب الطفل بما يسىء إليه من عادات مرذولة وميول غير اجتماعية انسربت قليلا قليلا فى خبث إلى نسيج شخصيته ، فسرعان ما يعجز عن مواجهة مشاكل الحياة اليومية المألوفة . وغالباً ما يصبح الطفل من هذا الطراز فـــرداً غشوماً غيوراً مشاكساً . بل عاراً على الأسرة يضيع عليها وقتها ويعكر عليها صفو هنائها ، ويسلب غيره من الأطفال فيها ما لهم من حقوق . وكثيراً ما يكون سبباً للبؤس والشقاء فى المنزل ، لأن حياته الوجدانية السقيمة تتسرب إلى عمد الحياة

العائلية فى صميمها فتلوثها وتسيء إلى كيانها . والحالة الآتية تصور هذا الموقف تصويراً جيداً .

ش . . . الذى يبلغ الثالثة والنصف من عمره ، كان الطفل الوحيد فى أسرة تتكون من أبيه وأمه وصديقة للأسرة متقدمة فى السن كانت ترعى شئون المنزل أثناء عمل الأم فى الخارج ، أصيب بنوبة من التشنج أثناء نومه حين كان فى العام الأول من عمره . فأخذته أمه إلى فراشها حتى تستطيع مراقبته وواصلت ذلك الأمر منذ ذلك الحين . فكان يبقى مستيقظاً كل ليلة حتى تستعد أمه للنوم ، إذ كان يرفض أن ينام إذا لم ترقد إلى جانبه ، وكانت تفد عليه نوبات من التفزز بين الحين والحين زادت من مخاوف أهله حتى اشتد قلقهم عليه . فكان الوالد على الأخص يطيع كل نزوة من نزوات الطفل ، وكانت مدبرة المنزل تتبع خطواته هنا وهناك ، وتخشى أن تدعه يقوم بأى شأن من شئونه .

وفى سن الثالثة والنصف كانت سيطرته كاملة على الأسرة ، فإذا لم تتحقق رغباته طغت عليه نوبات من الغضب كان يتشاجر خلالها ويضرب برجليه . وكان « يزن » ويشاغب للحصول على ما يود . فإذا ما بكى حُمل على الأكتاف واسترضاه أهله . وكان فى أكله كثير التأفف . ولما أرسل إلى مدرسة الحضانة كان يقيء إذا أرغم على الأكل . فإذا اشتدت سورته نهاراً انتابته المخاوف ليلا وأفسدت عليه نومه لثلاث ليال متتاليات فى بعض الأحيان . وكان يحب اللعب مع غيره من الأطفال ، إذا استطاع أن يكون هو موضع الرعاية ومدار اللعبة . وكان يميل إلى جذب الانتباه ، شديد الغيرة من محبة والديه أحدهما للآخر . كان طفلا مسرفاً فى الحركة ، دائم الجرى هنا وهناك ، قريب السورة ، ولوعاً بأن يجذب انتباه القوم دواماً إليه . ولما كان صبياً ذكياً فقد أدرك مقدار سطوته فى المنزل ، فكان يستخدمها فى كل فرصة تسنح له .

كان الوالد منذ زواجه ، من ذوى العاهات تقريباً ، تعوله زوجته التى

كانت تعمل على الدوام . وكان رجلا ضعيف الإرادة ، مولعاً بالصبي ، يخشى خشية الملتاث أن يحيق به مكروه . ومع أن الأم أدركت ما فى تربية ابنها من نقص فإنها كانت إذا حاولت أن تحزم فى تنشئته ، تدخل فى الأمر أبوه وتخاذلت الأم .

لكنه بعد عام ونصف عام من تربية أحسن من تلك ، وفقاً لإرشادات العيادة التى تردد عليها ، تحسن الصبى تحسناً كبيراً ، فصار يأكل كثيراً ، وينام نوماً عميقاً لا يتفزز فيه ، وأصبح أسهل قياداً . ومع أنه بقى نشيطاً شروداً خشناً فى مدرسة الحضانة إلا أنه لم يكن يعتبر مشكلة صارخة .

أما الذى يدفع إلى تكوين العادات فهو مختلف العوامل فى البيئة التى يعيش فيها الطفل . ذلك لأن عقل الصغير كبير المرونة ، وهو معرض لتقبل ما يوحى به إليه وتقليد ما يراه وما يسمعه ، وخاصة خلال السنوات الثلاث الأولى من الحياة . مما يخلع على تلك الفترة أهمية بالغة ، سواء فى غرس العادات المحمودة أو فى التخلص من تلك التى سوف تسىء إليه فى حياته المقبلة ، وتتضح لنا تلك الأهمية البالغة أيضاً ، إذا ذكرنا أن مرونة العقل الإنسانى تتناقص سريعاً كلما تقدم الإنسان فى العمر . هذا إلى أن الطفولة هى الفترة التى تظهر فيها خصائص الشخصية والخلق المختلفة ظهوراً واضحاً يسهل معه تمييزها ويتيسر إدراكها . ومن الخير أن يؤمن الآباء أن خصائص الخلق — من قبل ومن بعد — ليست أكثر من ردود الأفعال التى تصدر عن الطفل إزاء البيئة التى يعيش فيها .

وليس من النادر بتاتاً ، أن نجد الطفل قبل بلوغه السنة الثانية بوقت طويل قد اتصف بالبلادة والتهيب ، أو بالعناد وحب الانتقام وإيقاع الأذى من شدة الضغينة ، أو أن يكون شديد الأثرة ، أو ولوعاً باللهو ، أو سريع الغضب كثير الخطر إذا أسىء إليه . فإن أية خاصة من خصائص الشخصية عند الكبار يمكن أن توجد واضحة كل الوضوح منذ سن مبكرة ، بل يمكن الوقوف عليها ، فى

هذه السن ، فى سهولة ويسر ، لأن تعبير الطفل عن سخطه على بيئته تعبير ساذج لم يخفه التدريب ولم تهذبه الخبرة أو التربية بعد .

ولما كان التقليد والمحاكاة من العوامل المهمة فى تكوين العادات ، كان من الخير لمن هم مسئولون عن تنشئة الطفل ، أن يعملوا على أن لا تصدر عن البيئة والأفراد الذين يحيطونه من الأمور إلا ما يودون أن يقلده الطفل . ذلك لأن أمزجة أهله على دوام تغيرها ، وما لا يعنون به من أمور ، وما يقوم بينهم من شجار ، أو يبدو عليهم من ضيق ، أو يظهر عليهم من سخط ، كفيلة كلها أن تخلق جواً عقلياً له من الخطورة على الطفل قدر ما لإصابته بأحد الأمراض المعدية من خطورة .

وقد تخلق نزوات الأخوة وأهواؤهم بيئة غير صحيحة ، هذا إلى ما ينشأ من تعقيدات إذا قسم تدريب الطفل بين والديه وبين غيرهم . فإن مثل هذا الجو العقلى له خطورته ، لأن سلوك الناشزين من الناس وميولهم لا بد أن تبدو للصغير حتما أمثلة يحاكيها أثناء نموه . أما البشاشة والمحبة والعطف ، وأساوب المعاملة ؛ والحديث الذى يبعد عن القمع ويبدو منه الاهتمام بتطلع الطفل المتفتح فهى بعض الأمور التى تؤدى إلى إقامة الشخصية المتكاملة تكاملا حسناً . تلك الشخصية التى لم يعوجها الصراع [1] النفسى أو ينحرف بها . هذا إلى أن الصراحة والأمانة فى إجابة أسئلة الصغار ، حتى ينشأوا على حرية القول والفعل ، حرية لا تكفها خشية العقاب ، هى من العوامل الأخرى ذات الأهمية فى بيئة الطفل .

والعادات التى لم يكن من العسير اقتلاعها دون صعوبة فى سن الثانية ، غالباً ما تكون جذورها قد رسخت فى نفس الطفل عند بلوغه السن التى يرسل

---

(١) حالة توجد بالنفس إذا تعاركت فى أعماقها مختلف الدوافع والميول وثار بها اضطراب يدور حول أحد الميول التى تود الظهور . (المترجم)

فيها إلى المدرسة ، ودائماً ما تشتد هذه العادات تبعاً للموقف الذى يتخذه الآباء إزاءها .

أحيات أ . . . التى تبلغ السادسة من عمرها إلى العيادة السيكولوجية لإصابتها « بنوبات الغضب » ، وخلال زيارة إحدى مرشدات العيادة لدارها ، أقبلت البنت من المدرسة فكانت صبية صغيرة مستديرة الوجه ممتلئة الجسم ، جذابة تفيض مرحاً ، كثيرة الضحك والعبث مع أختها . وحالما شرعت أمها فى التحدث عن سلوكها ، احمر وجه الطفلة خجلا ، وانحنى رأسها وامتدت شفتاها واغرورقت عيناها بالدموع . ومع ما بدا عليها من مرارة الخجل والأسف ، فقد كانت عنيفة فى الدفاع عن نفسها . أما أختها التى كانت تكبرها بعام ، فقد كانت طفلة هادئة وادعة ، بينما كان أخوها الصغير الذى يبلغ الثالثة من عمرها على نقيضها طفلا حاد الطبع عسير القياد .

وذكرت الأم أن أ . . . كانت عسيرة سخيفة منذ بدأت تدرك الأشياء ، كانت تصيح فى غيظ عند موعد النوم ، وما زالت تفد عليها نوبات الصراخ هذه لأتفه الأسباب . بل إنها لتستيقظ أحياناً خلال الليل ويتعالى صياحها ساعة من الزمان أو أكثر ، وكان صياحها يبلغ من الصخب حداً تشعر الأم إزاءه بالخيبة والذلة ، وكثيراً ما كانت تلك النوبات تصيب البنت عقب نزواتها فى الأكل .

لكن السيدة كانت ترجو أن تكون لها دار يشيع فيها الهناء ، وأبناء قد حسن تهذيبهم ، وترى أنها قد عنيت بأطفالها عناية أكبر من عناية كثير من الأمهات ، وأنها قد اتبعت فى تربيتهم ما ذكرته « الكتب » ، فلم تكن لهذا ترى سبباً لنشوء هذه الشخصية التى لا تطاق فى ابنتها . حتى لقد بلغ بها الأمر ، عقب إحدى النوبات العنيفة التى بدت من الطفلة ، أن خرت على ركبتيها جاثية فى حجرة الاستقبال ، ضارعة إلى الله أن يلطف بها وأن تحل من معجزاته

ما يصلح شأن ابنتها . لكن السماء فى ذلك لم تستجب دعاءها . ومن ثم كانت موقنة من أنه قدر للطفلة ، أن تنشأ على هذا اللون المعوج من ألوان الشخصية طول حياتها . ومع أنها التمست العون من العيادة النفسانية إلا أنها كانت واهية الأمل فى إصلاح ابنتها . كذلك لاح على الوالد ، عند مقابلته بعد ذلك ، عين اليأس الذى لاح على الأم « إن الطفلة قد ولدت بهذا الاستعداد السيء ».

ولما رأى الطبيب تلك السيدة ، نشجت باكية منتحبة ، وقالت إنها قد فعلت لابنتها خير ما استطاعت ، وأنها قد حاولت كل ما يمكن محاولته ، حتى قر قرارها على أن العلة فى طبيعة الصغيرة التى ورثتها عن أبيها ، وأن لا جدوى هناك من إصلاح أمرها . وبدا منها التصميم على الاستمساك بهذا الموقف القدرى ، والإلحاح على إثبات صواب رأيها أكثر من محاولة النظر إلى المشكلة نظرة شاملة سليمة . وتساءلت عما إذا لم تكن على حق فى رأيها هذا « حتى يهدأ بالها » .

كيف كانت بيئة الطفلة ؟ كان المنزل أنيقاً نظيفاً على قلة أثاثه . وغالباً ما كان الوالد، وهو صانع ، متعطلا من العمل . فإذا كان بالمنزل كان عسير القياد سريع الغضب . ذكرت زوجته أنها لو لم تكن شديدة الحزم إزاءه ، لما استطاعت البتة أن تسلس قياده . وأنه كثيراً ما كان ينفجر غاضباً على محضر من أبنائهما . فكانت نوباته تحز فى نفس الأم وتجرح شعورها ، ومن ثم كانت تستثير أحاسيس الطفلة حتى تستطيع ضبط قيادها قائلة : « أترين كيف يسيء إلى أبوك، أتودين أن تزيدى فى شقوتى بالسلوك الذى تسلكين.؟! » وكان الأطفال يدركون ما هناك من خلاف بين والديهم . وكانوا يخافون أباهم . وكانت الأم رغم عزة نفسها قد أثقلت همًّا وشقاء، وقد خاب رجاؤها فى زوجها خيبة مرة وضاق ذرعها به تماماً ، لعجزه عن النهوض بشأن نفسه . واشتد انفعالها عند ما ذكرت شكواها من قراءته كل ليلة القصص والمجلات بدلا من القيام بدراسة

تحسن بها حاله . ولاح أيضاً أن الوالد كان رجلا شقياً مستبداً غشوماً سريع الغضب عسير القياد .

فوضعنا لأكل الطفلة نظاماً عنينا بتفصيله . وبذلنا كل جهد لدفع الأم إلى تخفيف يأسها من إصلاح الطفلة ؛ وأعطيت للصغيرة لوحة كانت تفخر بحصولها على نجوم جميلة تضعها بها كلما نجحت فى ضبط نفسها ، فلم يصبها بعد ذلك سوى نوبة واحدة من نوبات الغضب ولم يفد عليها ، باستثناء قليل من الصياح والسخط ، أية نوبة من تلك النوبات .

لكن الأطفال مع ذلك بقوا يقاسون الشجار الدائم بين الأب والأم التى كانت تسرف فى حزمها معهم لمبالغتها فى رعايتهم وشدة قلقها على العناية بهم عناية تبلغ مستوى رفيعاً عالياً . فلوحظ أن البنت الكبرى بدأت تصير سريعة الغضب تميل إلى السخط والانقباض .

وكثيراً جداً ما يستهين الآباء بخطورة العادات المرذولة ، ونقائص الشخصية ، أو الميل إلى الجنوح ومن البين أنهم يعتمدون فى هذا ، على القول بأنهم إذا تجاهلوا تلك الميول وأغفلوا أمرها . ذهبت وانعدم فعلها ، وهم بذلك يتجنبون ضرورة مواجهة مشكلة سوف تتطلب منهم أعمالا فى الفكر ، وتدبيراً للأمر ، وأسلوباً معيناً من النشاط والعمل حتى يتمكنوا من حلها . وهم كى يتخلصوا من العار والهوان ، الذى يلحق بهم إذا هم اعترفوا أن لهم طفلا مشكلا معضلا ، ينكرون وجود المشكلة ، أو هم إذا اعترفوا بوجودها إطلاقاً ، خدعوا أنفسهم بمثل قولهم : « إنه ما يزال صغيراً ولسوف يكبر ويقلع عن ذلك » . ويحاولون أن يذكروا من ماضى حياتهم هم ، أو ماضى أصدقائهم وأقاربهم ما يمكن أن يؤيد وجهة نظرهم . وما أبعد البون بين هذا الهروب وبين الطريقة الصحيحة لمواجهة المعضلة على منوال هادئ متزن ، فى جلاء وصراحة ، وجهد للوصول إلى الحل ، وتقديم المعونة حيثما استلزم الأمر ذلك . والواقع أن الأطفال عادة

لا يقلعون عن عاداتهم إذا ما تقدمت بهم السن . بل الغالب أن تلك العادات تنمو فيهم ، كما ذكرنا من قبل ، حتى تصبح جزءاً من كيان الطفل .

وأهم ما ينبغي ألا ننساه هو أن الأطفال عند مولدهم يكونون خلواً من العادات وأن عملية الحياة نفسها تستلزم من المرء أن يتخذ طرائق مختلفة للنشاط ، ويعتمد حسن هذه الطرائق العادية للنشاط أو سوؤها ، إلى حد كبير ، على التدريب وعلى التربية التي ينشأ عليهما الطفل .

الفصل الثالث

العلاقة بين الآباء والآبناء

الحق أنه لا يمكن أن نفى العلاقة بين الطفل وأبويه نصيبها من الأهمية ، فهى صلة تبدأ منذ الميلاد ، وتبقى قائمة إلى أن يكون الناشىء قد استكمل استقلاله ، خلال ما عرض له من بحث وتجريب ، ومحاولة وخطأ . وهذه كلها أمور عسيرة على الطفل مؤلمة لوالديه .

ويكون التوافق بين الطفل وأهله ، خلال فترة التحرر هذه ، وهى جانب من مشكلة النمو عامة ، أمراً دقيقاً . إذ هو توافق يمكن الوالد والوالدة أن يحققاه ويصلا بالطفل إليه إذا أوتيا ما يجب لذلك من حكمة ومن حصافة . ومع هذا فإن تلك العلاقة الطيبة ، لا يمكن أن تخضع لقواعد وأصول معينة ، ولا أن تسير وفقاً لخطة موضوعة من قبل . ذلك لأن العوامل التى تقيم تلك العلاقة تبلغ من الكثرة والاختلاف حداً كبيراً ، كما أنها متواصلة التغير تبعاً لنمو الطفل العقلى والوجدانى ، تواصلا يستلزم من الأهل فى كل آن ، أن يكونوا على تمام الأهبة لمواجهة الظروف المختلفة كما تحصل فى الواقع ، لا كما كانوا يرجون أو ينتظرون وقوعها .

ومن الغريب أن هذه العلاقة ، على بالغ أهميتها فى نمو شخصية الصغير ، لا تلقى من العناية إلا قدراً بالغ التفاهة ، ولا يعالجها الناس إلا بما نرى منهم من استخفاف وإهمال . ولنعرض لبعض العوامل الأساسية اللازمة لتحقيق التوافق الطيب بين الصغير وأهله . لدينا الطفل وما فطر عليه ، مما نسميه

بالغرائز [١] أى تلك الميول أو الدوافع المعينة التى تبعث إلى العمل على منوال معين . وهذه الميول تتجه خلال مراحل الحياة الأولى نحو المحافظة على حياة الفرد بصرف النظر بتاتاً عمن يتصل بهم ، إلا إذا كان هؤلاء وسيلة تعين الطفل على تحقيق الغايات التى يتطلع إليها . ذلك لأنه من الضروريات البيولوجية لبقاء الجنس . أن تكون الذات فى مطلع الحياة مقدمة ومفضلة على غيرها . لهذا بندفع الطفل ، قبل أن تهذبه الدربة والتربية والخبرة ، تبعاً لرغبته فى الأمور التى يستمد منها رضاً ولذة ، ويتجنب غيرها مما يؤدى به إلى الألم والعناء .

وأول ما يسعى الطفل إليه هو إشباع حاجاته البدنية ووسائل راحته ، وتتضح حاجاته من عمله على تحقيق تلك الغاية. فالصراخ فى شهوره الأولى وسيلته الوحيدة للاتصال بغيره ، ثم يجد هذه الطريقة مجدية كل الجدوى ، فيغير من نبرات هذا الصراخ ، حتى تستطيع الأم أن تميز منه نوعاً يدل على الخوف ، وآخر على الألم وثالثاً على الجوع .

ولا يقتصر الأمر على تحقيق رغباته فحسب ، بل إن أهله يعدون العدة لها قبل أن تثور ، فهم يهيئون له الغذاء بانتظام ، وينظمون له خير الظروف التى يتطلبها النوم الهنىء ، ويبذلون خير جهودهم لحمايته من الشعور بالألم أو الضيق .

ويزداد اعتماد الطفل على أهله وخاصة على أمه ازدياداً تدريجياً دون أن يشعر أى منهما بذلك على الغالب . ومع أن أقدم ما يعلق بذاكرة الصغير هو عمل أمه على راحته وجهادها لتحقيق رغائبه ، فإنه يتقبل هذا الحدب كله كأمر واقعى

(١) أكثر التعاريف شيوعاً عن الغريزة هو أنها « ميل فطرى ، بدنى نفسى ، يهيىء صاحبه لأن يدرك أو ينتبه إلى أمور من نوع معين ، وأن يشعر بانفعال من نوع خاص عند إدراكه ذلك الأمر وأن يسلك إزاءه على منوال خاص ، أو أن يشعر على الأقل بدافع يدفعه إلى هذا المسلك » ومن أمثلة الغرائز : غريزة الهرب وغريزة الكفاح وغريزة الاستطلاع وغريزة السيطرة وغيرها . ولقد كان موضوع « العزيزة » مثاراً لجدال طويل بين المشتغلين بعلم النفس مهمايكن من أمره فلاشك أن هناك استعدادات فطرية هى الأساس الذى يقوم عليه السلوك . (المترجم)

مألوف لا يبدو منه إزاءه من دلائل الشكر والعرفان إلا قدر تافه ضئيل . ومع هذا فإذا عطل أى شيء ، ولو لحظة واحدة ، جهود والديه فى العمل على رضائه لم يتوان الطفل عن تسجيل احتجاجه وإعلان سخطه .

بل إن الأم بدورها ، لتجد فى هذه الخبرة الجديدة من الرضا والسرور ما لا عهد لها به من قبل ؛ ولا يخلو هذا من خطورة خاصة ، إذ هى كثيراً ما تندفع استجابة لذلك إلى أن تحمل عن طفلها من الأعباء ما كان ينبغى أن يتكفل هو بحماه .

ومن المهم أن تنتهى هذه المرحلة فى اعتماد الطفل المطلق على والديه ، إلى فطمه شيئاً فشيئاً ، لا عن الثدى فحسب ، بل عن العلاقة الوجدانية الطاغية القائمة بينه وبين والديه . ولا يمكن تحقيق هذا ، إلا بتدريب الطفل على حماية نفسه والترويح عنها ، وأن نبكر فى إلقاء هذه التبعة عليه ما أمكن التبكير فى ذلك وأن نهيىء له كل فرصة ممكنة كى تتكون عنده ميول جديدة أهمها الميل إلى الصحبة خارج المنزل .

ولا بد أن يشغل الأب جانباً من حياة الطفل الوجدانية فلهذا أهميته فى حياة الطفل وهو مصدر لرضا الوالد وهنائه ، كما أن الأطفال فى المنزل وأترابه فى اللعب خارج المنزل ينبغى أن يشغلوا من انتباه الصغير جانباً . ثم ينضم المعلمون والمدرسة بعد ذلك إلى أولئك وهؤلاء . وينتهى الأمر بأن تتخذ الميول الكثيرة التى يصطنعها الأطفال أثناء نموهم ، قيماً جديداً تهيىء للطفل ميداناً رحباً ، يلتمس فيه الرضا ويجد فيه المتعة . لهذا كان لاختلاف الميول خلال مطالع الحياة منافع كثيرة ، أهم ما فيها اتساع الأفق الذى يصل بالطفل إلى أن يكون أكثر تسامحاً إزاء من يتصل بهم فى حياته اليومية .

ويمكن أن نعتبر كلا الوالدين شخصاً بالغاً ، وصل بخبرته إلى الاتساق مع الجماعة اتساقاً كبيراً أو صغيراً ، فعرف بهذه الخبرة أنه لا بد أن تخضع ميوله

ودوافعه الغريزية ، رغم شدة سطوتها فى الطفولة ، لألوان معينة من التعديل : عرف أنه لا بد له من قمعها أو التخلص منها تماماً ، أو ضبطها على الأقل ، حتى يمكن استخدامها حين يجدى عليه ذلك أكبر جدوى ، كما عرف أيضاً أن تلك الدوافع التى تتصل باللذة ، وتجدى فى حماية الذات ، دون أية رعاية لغيره من الناس ، تؤدى حتماً — إذا أطلق لها العنان — إلى وقوع الضرر والأذى به ، لا إلى ما كان يلتمسه فيها من لذة ومنفعة .

ومن المظاهر البالغة الأهمية لهذه العلاقة بين الطفل وأهله أن هؤلاء الأهل ، بفضل صلاتهم بالحياة ، يكونون قد اتخذوا إزاء بعض جوانبها موقفاً وجدانياً معيناً ، حتى انتظمت آرؤهم عن الأخلاق والتربية والصداقة والنظام والأمانة والصدق والمسئولية والواجب ، أى أن هذه الآراء قد اتخذت لوناً انفعالياً معيناً ومع أن أحكامهم النهائية تعتمد عادة على حياتهم الوجدانية وردودهم الانفعالية ، فإنهم يعتقدون مخلصين أنهم يصلون إلى تلك النتائج بتحكيم العقل والتفكير .

فلو أن والداً كان مولعاً بالتعليم العالى ، ولم تسمح له ظروف حياته من قبل بالحصول عليه ، لأفعم عقل ابنه بالمواد والعلوم ، حتى يستطيع ولده أن يحقق فى حياته ما كان الوالد يتوق كثيراً إلى تحقيقه . ومع أن ميول الصبى الطبيعية، استعداده العقلى وشخصيته قد تكون أدعى إلى توجيهه نحو الصناعة بدلا من طلب العلوم النظرية ، فإن أباه يغفل ذلك كله ويندفع إلى تجاهله .

ولو أن والداً كان قد قاسى فى مطلع حياته تربية لاحت له قائمة على الاستبداد والظلم بل البطش بالفعل ثم دفعه وجدانه إلى التشكك فى قيمة النظام والسلطة ، لأدى ذلك إلى تنشئته أطفالا بحيث لا يحفلون البتة بما لإطاعة الأصول والقواعد من أهمية ، سواء فى المنزل أو خارج المنزل .

ولو أن أباً آخر قد فقد زوجته بعد إصابتها بأحد الأمراض المعدية ، التى ظن أنه كان من الممكن اجتنابها ، وكان ذلك حين بلغ ابنه الصغير حوالى الخامسة

من عمره . لأقام حياة الصبى منذ ذلك الحين حول هذه الخبرة الوجدانية الخاصة وحرّم على الصبى أن يخرج من الدار أو يختلط بغيره من الصبيان ، ولأبعده عن كل شخص أو موقف قد يؤدى إلى تعرضه للإصابة بالأمراض . فإذا أصيب الطفل بأية وعكة خفيفة . بدا ذلك للوالد مقدمة لمرض خطير ، بل إن المربية التى ترعاه تقيم حياة الطفل ، تبعاً لأوامر أبيه ، حول احتمالات المرض . حتى إذا ما بلغ الطفل العاشرة من عمره . لم يكن لديه أية فكرة عن كيفية اللعب مع غيره من الأطفال . ولعاش فى هلع بالغ ، خشية أن يصاب بمرض فتاك يؤدى به إلى الموت . ومن ثم يتركز الطفل تركزاً عميقاً حول ذاته ويشيع الشقاء فى حياته . لعجزه تماماً عن منافسة أقرانه أو التعاون معهم .

تلك أمثلة شائعة تبين كيف يصطبغ موقف الأم أو الأب إزاء الطفل بالانفعالات التى طغت على أيهما من قبل . وكثيراً ما تكون هذه المواقف محاولة من أحد الوالدين لدفع الطفل إلى أن يحقق فى حياته ما عجز والده أو والدته عن تحقيقه فى حياته قبل ذلك من رغبات أو مطامح . وليس من الغريب أن يؤدى إغفال ما يجب من رعاية لاستعداد الطفل البدنى والعقلى ، بالوقوف على هذا المنوال فى وجه استعداداته الغريزية وميوله الطبيعية إلى إثارة العصيان والثورة فى نفسه لا نحو الأسرة فحسب . بل نحو العالم بأجمعه أيضاً .

وليس من شىء أبعث إلى الأسى من طفل شاء له سوء طالعه أن يرث أهلا لا يسمحون له بالنمو ، ويحرمونه فرصة تكوين شخصيته تبعاً للخصائص العقلية التى وهب إياها أصلا . ويؤمنون بآراء سابقة معينة عما يجب أن يفعل ، وكيف ينبغى أن يفكر . ويستنكرون أى زيغ عن الصراط قد تدفعه إليه الطبيعة أثناء نموه . كم من والدين يطغون على أفكار أطفالهم وفعالهم لأنهم يفخرون بأن « ابنى لا يستطيع أن يؤدى شيئاً بدونى » وهم لسنوات طويلة يحاولون أن يبقوا صغارهم فى حالة الطفولة يطعمونهم بأنفسهم ، ويرقدون إلى جانبهم وقت القيلولة ،

ويستجيبون لندائهم خلال الليل ، ويؤدون لهم كل أمر ، حتى ليصير الصغير عالة مكسالا لا هدف له ولا غاية . وإذا تقدم أبناؤهم فى العمر ، ساروا معهم إلى المدرسة فى غدوهم ورواحهم ، وعطفوا عليهم واشتدت حمايتهم لهم إذا ثار الخلاف بينهم وبين المعلمين ، واشتركوا معهم فيما يشجر بينهم وبين أترابهم من عراك ، وإذا روعهم أمر أو لحقت بهم خيبة فتحوا لهم الصدور ، يستقبلونهم فيها وهم مغرقون فى الحدب والرعاية مسرفون فى الخشية والإشفاق .

فإذا أذن لهؤلاء الصغار أن يتخذوا لأنفسهم صحاباً على أى وجه من الوجوه ، انتقاهم لهم الوالدون ودققوا فى الانتقاء . إذ لا بد أن يكون أولئك الصحاب موفورى التهذيب ، تبدو عليهم النظافة ، لا تصدر عنهم خشونة أو يظهر عليهم نشاط ؛ هذا إلى ما لا ينبغى إغفاله مما يتفق ومستوى الأسرة العقلى ومما لها من تراث ثقافى . كما ينبغى أن يتسق أولئك الصغار البائسون وآراء آبائهم وأمهاتهم عن الجنس واللون والدين . ولابد فوق هذا وذاك ألا يبدو منهم « عنف » وألا تكون لهم صلة « بأولاد الشوارع » الذين يغلب أن تتألف جماعاتهم من صبيان أشقياء قد اتسخت وجوههم ، وصحت أبدانهم ، وبلغ انشغالهم بمشاكل الحياة الواقعة حداً صرفهم عن تنظيف أنفسهم ـ قدر صرفه إياهم عن الوقوع فى أى وجه من وجوه المتاعب الحقيقية .

ولو أنا وقفنا عند هذه الصورة قليلا ، لبدت لنا أيضاً فى الوالدة التى لا تنتقى لابنتها المعهد الذى ينبغى أن تلتحق به فحسب ، بل تختار لها صواحبها ودروسها كذلك ، حتى يبلغ الأمر بالفتاة حينذاك أن لا تفكر فيما تود وفيما لا تود ، بل فيما « قد توافق عليه ماما » . فإذا تركت يوماً تدبر أمورها بنفسها ، طغت عليها ألوان الشك والتردد . وإذا لم تكن شخصيتها قد غرقت واختفت تماماً بين ثنايا هذه الأعوام الطويلة من الفاقة والاعتماد الوجدانى ، ألفت نفسها فريسة للعراك يملأ نفسها أغلب الأحيان .

وقد قسم على الأطفال بحكم الواقع فى مجموعهم أن يقضوا سنى حياتهم الأولى على أوثق صلة بالكبار . وكثيرون من هؤلاء يجهلون ، جهلا مؤسفاً ، المبادئ الأولية التى تحكم السلوك . ولا يعتمد الأطفال على الكبار فى العناية البدنية ، والتوجيه العقلى ، والتعاليم الخلقية فحسب . بل يعتمدون عليهم أيضاً فى تهيئة البيئة السليمة التى يستطيعون العيش فيها ، دون أن تلوثها رغبات الأهل الوجدانية النهمة الجائعة .

فإذا أوتى للآباء أن يدركوا القوى الخفية التى تحرك سلوك صغارهم ، وكيف يمكن أن تنشط تلك القوى الكامنة تبعاً لمواقف البيئة والصلات الإنسانية ، وجب عليهم أن يواجهوا مشكلاتهم الخاصة بما ينبغى لمواجهتها من جلاء وصراحة. إذ أننا ، كما وفقت الدكتورة كينورثى فى قولها « غالباً ما نجد فى ماضى الوالدين ما يدل دلالة واضحة على طفولة بائسة تنعكس انعكاساً طبيعياً على طريقة معاملتهم لأبنائهم . حتى إذا لم يدرك الوالد أو الوالدة ذلك أو شعر أى منهما بالرغبة فيه » [١] .

وقد يؤدى الإسراف فى الحنان والرعاية بالوالدين إلى تشكيل الطفل تشكيلا جديداً ، يؤدى غالباً إلى أن يخلق من الأطفال ذلك الطراز الأنانى المتشبث الذى يتركز حول نفسه . وإذا تركز الأطفال حول أنفسهم ، استشعروا شكاوى وهمية لا حصر لها ، لأن آباءهم يخشون عليهم المرض ويبالغون فى أية علة قد تلحق بهم . فلو أن الصبى شنى من مرض اعتراه ، أو بدأ ينقه فى المنزل ، لدار كل شىء حول الصغير ، ولسارع كل واحد إلى استجابة رغباته . ولأصبح الطفل فى مثل هذه الظروف كفيلا بأن يمتلئ أثرة وسطوة . ولقد تتغير على هذا النحو شخصيته بأكملها . حتى ليكون مبعثاً لقلق أهله واضطرابهم . إذ هم يردون ، وهم لسوء

---

(١) Marion Kenworthy, M.D.: "From Childhood to Youth" in *Concerning Parents* p. 128 (New York, 1926)

الحظ مخطئون ، ذلك التغير إلى ما أصيب به من مرض ، بدلا من رده إلى تغير المعاملة التى كان يلقاها فى المنزل . ويتكرر الموقف عينه إلى حد ما ، لكن على وقت أطول ، تبعاً للمخاوف الوهمية وأشكال القلق التى تثور بنفس الوالد أو الوالدة المبالغة فى الحدب والرعاية . ومن ثم لا يندر أن نجد من الأطفال من يستغلون مرضهم ، كى يتجنبوا القيام بواجب كريه أو يكتسبوا جانباً أكبر من الاهتمام والرعاية .

وتبين قصة هذه البنت الصغيرة تلك النقطة بوضوح :

كانت م . . . وهى فى السابعة من عمرها تسيطر على كل من فى المنزل ، فكانت الأم تحقق لها أتفه رغباتها كاملة ، وشقيقاتها يحملن عنها صابرات عبء ما يجب عليها أداؤه من أعمال المنزل ، ويخضعن لها من كل ناحية ، حتى يتجنبن — ما استطعن — نوبات الغضب التى كانت تقلب البيت . ولم يكن لديها من عذر عن هذه النوبات ، إلا أن تقول فى كل ظرف « لا بد أن تحذرن ما أفعل فقد كنت مصابة بالشلل » .

والحق أنها كانت قد أصيبت بأكثر من نصيبها من الأمراض ، وأنها ألفت الإعجاب بأمرها واهتمام الأطباء بشأنها ، إذ كثيراً ما كانت تعرض عليهم باعتبارها حالة غير مألوفة .

واتخذت من ضعف صحتها ذريعة تيسر لها كثيراً من المصاعب فى المدرسة ، وتهيء لها فى المنزل كثيراً من الحقوق والامتيازات الخاصة ، وعذراً لها عن كل ما تفعل . حتى بدت حياتها بأجمعها قائمة على هذه الرغبة فى أن تكون محط الأنظار .

غير أنه عند ما غيرت الأم موقفها تغييراً أساسيًّا، صارت هذه البنت الصغيرة ، التى كانت تسرع فى نموها نحو إدمان التشكى ، فتاة صحيحة سوية تنافس شقيقاتها فى « مساعدة ماما » ، وتحاول — أسبوعاً بعد أسبوع — أن

تجيد عملا جديداً تقوم وحدها به ، وتتطلع نحو الصحة والقوة ، ولا ترغب فى ادعاء المرض حتى تستثير العناية والشفقة .

وسرعان ما اختفت الأعراض الجسمية المقلقة ، التى كانت تجزع منها الأم أيما جزع ، بعد معالجتها فى حذق بقليل من التغاضى والتجاهل . أما رعشة يديها ، التى كانت تلزم الأم بإعطائها كل لقمة تأكلها ، فقد اختفت كما اختفت الرعشة من صوتها . ذلك أنه بعد الوقوف على حالة الطفلة البدائية بالفحص الطبى ، لجأ أهلها إلى طموحها وكبريائها ، وتحول ولعها بجذب الاهتمام ، وحبها للتفوق بعيداً عن الرغبة فى سوء الصحة ، واستطاعت بتشجيع طبيبها وأمها وإيمانها بقدرتها على النجاح ، أن تقوم بما عليها فى المنزل وفى المدرسة ، وأن تعتمد على نفسها وأن تواجه أوضاع الحياة الواقعية .

وإذا عُدَّت الأم المسرفة فى الحدب والرعاية مسئولة عن نشوء فئة من الأفراد على التواكل والطراوة والنشوز ، فإن الولد المتسلط ، المتجهم ، المسرف فى الشدة ، الذى يتخذ موقف الطاغية فى منزله ، ليعد هو أيضاً مسئولا عن كثير من ألوان العوج فى أبنائه . فهو يبالغ فيما للطاعة من أهمية ومن قدر ، كما عرف بما له من خبرة أن الخوف وسيلة من وسائل الحصول على فرض أوامره ونواهيه . وكثيراً ما نجد أن هذا الطراز من الآباء ، لا يتخذ ذلك الموقف إلا لأنه يستعيض فى الدار عما يشعر به ، شعوراً حادًّا ، من قصور[1] يتصل بمهنته وبكفاحه فى الحياة الاجتماعية . وما أسرع ما يتغير جو المنزل ، إذا أقبل عليه ذلك الحاكم الشديد عقب عمله اليومى ، فإذا الأم مشفقة أن يصدر عن الأطفال

(١) القصور Inferiority هو ما شاع التعبير عنه فى اللغة العربية حيناً ما « بالنقص » على خطأ ذلك ، ويخيل إلينا أن لفظ القصور هو خير ما يؤدى المعنى الذى قام عليه مذهب « أدلر » كما أن النعت المشتق منه لا يؤدى إلى اللبس الذى يؤدى إلى ما يشق من لفظ النقص . والقصور قد يكون عضوياً أو اجتماعياً فيؤدى إلى توجيه السلوك جميعه على رأى أدلر الذى سيعرض له فيما بعد . ويمكن الرجوع فى دراسة سيكولوجية أدلر وما يقوم عليها من أساليب العلاج والتوجيه إلى كتابنا « علم النفس الفردى » نشر دار المعارف . (المترجم) .

صوت أو جلبة . تخشى أن يغفلوا آداب المائدة ، أو أن يضيق بهم أبوهم » بعد أن كدَّ فى العمل طوال يومه ؛ بينما الأطفال رغم ما كرر عليهم من تنبيهات وتحذيرات ورغم رغبتهم الملحة فى تجنب ما يثير غضب أبيهم ، لا بد أن يقعوا فى خطأ يكفى لأن يدفع أباهم إلى إلقاء محاضرة عن الطاعة أو عن سوء الأدب . فإذا نشأ الطفل فى مثل هذه الظروف اشتد سخطه — كلما شب — على النظام ، لأنه يعرف أن لا نفع من الجهود التى يبذلها لإرضاء والديه . وقد استيأس من أمره ولم يعد يأمل إلا فى تجنب اللوم والتأنيب ، بل هو قلما يفلح فى ذلك . هذا إلى أن خطة الوالد فى تنشئة أطفاله ، تخلو تماماً من أى ثناء أو مكافأة إذا أحسن الصغار عملا ، فهم لذلك يقبلون على الحياة وقد امتلأت نفوسهم حقداً وعصياناً على أى لون من ألوان الرئاسة أو السلطة .

وليس من غير المألوف أن يجتمع والد غاشم وأم حانية رفيقة . فتسارع هذه إلى التخفيف من طغيان الوالد إذا انفجر . وليس هناك من طفل أسوأ حظًّا من الطفل الذى قسم له أن يعامل والداً مندفعاً سريع الغضب أو والدة تفخر بقدرتها على إخضاعه بنظرة واحدة ، أو أى طراز آخر من الآباء الذين يخطئون فى كيفية حكم أبنائهم .

وكثيراً ما يكون الوالد الشديد المتعسف ، سبباً فى نشوء القصور والشذوذ فى نفس الطفل . كما أنه إذا كان أحد الوالدين سريع الغضب ، لا يحسن تهذيب صغاره ، أدى ذلك إلى اعوجاج شخصياتهم ، اعوجاجاً لا يقل فى خطورته وضرره عما قد ينزل بهم من عاهات لو أنه بطش بأبدانهم واعتدى عليهم بالضرب والإيذاء . والحق أن تلك الأنواع من تصرف الآباء توجد فى كل طبقات الناس على اختلاف مستوياتهم الثقافية أو العقلية . ولا يكفى العطف والحنان الذى يضمره الوالدان لضمان التوفيق فى حل المشكلات الكثيرة التى تصدر عن الطفل فى سنواته الأولى ، بل اقع الو أن عين الحب الذى يحمله

الوالدان للصغير قد يكون هو العقبة الكؤود ، التي تعطل إحسان قيام أي منهما بواجباته إزاء الطفل . ذلك لأن الإسراف في القلق والحنان والخشية تقف عثرة في وجه التصرف الحكيم في كثير من مشاكل الطفولة .

ومن اللازم أن يذكر الأمهات والآباء والمعلمون والمعلمات أن للطفل حياته الوجدانية . إذ أنهم كثيراً جداً ما يغفلون ذلك . ذلك لأننا كثيراً ما ننسى أن للطفل غرائزه وانفعالاته وأن لها من الأهمية قدر ما لأذنيه ولعينيه ، وفي أعماق هذا المخلوق الغض شغف كامن بالظهور ، ورغبة ملحة في فرض سطوته تدفعه على الدوام إلى مناهضة مألوف القوانين والعادات التي لا يفهم منها قليلا أو كثيراً . ومن اللازم أن لا يغرب عن بالنا أن للطفل آماله ومطامحه ، وأن له شكوكه ومخاوفه وريبه ، وأن له أفراحه وأتراحه ؛ ومن هذه الأمور ما هو يسير عابراً ومنها ما هو قوى عميق الأصول . ذلك لأن حياته الوجدانية تلقى أبداً ما يشبعها أو ما يقف في وجهها في سنيه الأولى ، كما تلقى ذلك في حياته المقبلة .

ومهما تبلغ مسئولية الوالدين في إرشاد الطفل وتدريبه وتوجيهه من أهمية ، فإنها لا ينبغي أن تطغى على موقف أساسي آخر ينبغي أن يتخذوه . ذلك هو أن يخلقوا في البيت جواً من المحبة تسوده الرعاية ويشيع فيه العطف والعدالة .

فإذا عجز الآباء عن خلق هذا الجو للطفل ، يقضى فيه سني التكوين التي تقيم حياته . حرموه بذلك من عنصر لا يمكن تعويضه على أي وجه من الوجوه فيما بعد . فمع أن للدين والمجتمع وللمدرسة أثرها في تدريب الطفل وتهذيبه إلا أن أحداً منها لا يعني بتلك العواطف[1] الرفيعة الرائعة التي لا يمكن أن

(١) يقصد بالعاطفة في علم النفس انتظام عدة ميول انفعالية حول موضوع ما ، شخصاً كان أو فكرة أو شيئاً . والعاطفة تتميز بطول البقاء والاستمرار . أما الانفعال فحالة عابرة تغلب عليها الصبغة الوجدانية ، ومن أمثلة العواطف الحب والكراهية والصداقة واعتبار الذات . (المترجم)

تقوم إلا فى الدار ولا ينتشر عبيرها إلا بين أحضان الأسرة .

وإذا سار المرء وفق القواعد والنظم ، وخضع للعادات والتقاليد ، وإذا رقت حاشيته وحسن تهذيبه ، ساهم ذلك جميعه فيما ندعوه التوافق مع الحياة . على أن الشقاء قد يتملكه والعجز قد يطغى عايه إذا هو عجز — أثناء اكتسابه تلك العادات التى تعينه على التوافق — عن أن يصطنع لنفسه إزاء الحياة نظرة رحبة وأفقاً واسعاً يضم بين أنحائه ما ينبغى من هناءة وسلام ، ودعة ورضاً ومحبة ، وما إلى هذا وذاك من مختلف العواطف السامية الرفيعة . وهذه كلها أمور يكتسبها الطفل وتتسرب إلى شغاف نفسه من الجو الذى يعيش فيه ولا يمكن أن يجديه التدريب فى اصطناعها شيئاً .

فسلوك الطفل هو بكل بساطة أنواع من ردّ الفعل على البيئة التى يقيم فيها . وهو نتيجة الصراع الذى يقوم بين دوافعه الغريزية ، وبين الأوضاع والقيود التى تفرضها تلك البيئة . وتتضح لنا نتائج ذلك الكفاح من الحالة الآتية :

إ . . . بنت صغيرة تبلغ السادسة من عمرها ، أحضرها إلى الطبيب والداها وقد أخذ منهما الهلع كل مأخذ ، لأنها رفضت — فجأة وعلى غير توقع — أن تأكل شيئاً أو تبلع لقمة واحدة . وأخذ الوالد لشدة قلقه ، يذرع عيادة الطبيب جيئة وذهوباً . أما الأم فجلست باكية منتحبة تضرب بكفيها ، بينما جلست البنت على مقربة من الطبيب لا يبدو عليها شىء ، كأن على وجهها قناعاً ، واللعاب يسيل من فمها مدراراً حتى ابتل فستانها به ، وكاد يعصر . ولم يكن يظهر عليها من الاهتمام بالمسألة كلها ، إلا أقل قدر وأيسره . ذلك لأن الصغيرة قد امتنعت ، منذ أيام ثلاثة ، عن تناول الطعام لسبب مجهول ، وأخذت تطلب من أمها دواماً أن تؤكد لها أن لا بأس من أن تبتلع الطعام . ورغم ما أكدته لها أمها وكررته فقد رفضت أن تبتلع شيئاً ، واستمر لعابها يسيل طول اليوم ، وقد كشف حديث الطبيب معها قليلا عما يأتى :

يظهر أن الأم كثيراً ما أخبرت الطفلة أنها لا ينبغى أن تأذن لأحد بأن يقبلها ولكى تزيد فى تأثير حديثها ذكرت لها أن التقبيل يسبب العدوى ، لأنه ينقل الجراثيم ، وأن أى بنت صغيرة إذا ابتلعت تلك الجراثيم ماتت . فحدث أنه فى عصر اليوم السابق لامتناعها عن الطعام ، أن ذهبت البنت لتلقى أول دروسها فى الموسيقى وأن إحدى السيدات انحنت عليها وقبلتها . ومع أنه من العسير أن نقدر مدى تأثير تلك الحادثة فى نفس الطفلة إلا أنها تكشف لنا أهم جانب من جوانب المشكلة .

ورغم ما كان لوالدى الطفلة من رجاحة العقل فى حل أغلب مشاكلهم ، إلا أنهما كانا مؤمنين بآراء غير مألوفة عن تربية الأطفال ، تقوم على أساس نظرى بحت . فكان المبدأ الذى يعتنقانه أن الطفل لا ينبغى أن يتافه انتباه أو مدح أو عطف . فإذا سارت الأمور على ما ينبغى انتهى الأمر ، فذلك هو المفروض ؛ وإذا اعوجت فهناك اللوم والعتاب . ولم تكن الطفلة تثير جلبة أو تصدر عنها ضوضاء بتاتاً . إذا جلست إلى المائدة التزمت آدابها التزاماً كاملا ، وإذا تحدثت خرج حديثها مهذباً صحيحاً ، لم تعص نواهى والديها مرة ، ولم تكن تلعب إلا والعيون ترقبها مع من انتقاهم لها أبواها من أتراب ، وكانت نظافتها ومواظبتها والتزامها كل قواعد أهلها أمراً مفروغاً منه . وقد كان من الميسور بقليل من الشرح أن نقضى على الأزمة الانفعالية التى نزلت بالطفلة عقب تقبيلها لو لم يكن أهلها – دون توقع أيضاً – قد شرعوا يهتمون بأمر الصغيرة . ولم يقتصر الأمر على الانتباه إليها ، بل وصل بهم ذلك إلى شدة القلق والهلع عليها . وهكذا شعرت الطفلة لأول مرة فى حياتها أنها مركز اهتمامهم ، وكان هذا عندها خبرة جديدة تملأ حياتها الوجدانية الجائعة سروراً بالغاً ، حتى إنه لم يكن من الغريب أن تستمسك بها استمساكاً شديداً وأن لا تقلع عنها إلا فى بطء شديد .

ومن المألوف أن يرضى المجسع عن طراز السلوك الذى لا يضيق به كثرة أعضائه أويشكون منه . أما السلوك الذىيقضى السخط ، فهو الذى يؤدى بالفرد إلى العراك ضد أهله أو ضد المجتمع . لكن الطفل فى سنيه الأولى ، قد فطر على كثرة الحركة وعدم الاستقرار وحب الاستطلاع ونقص التركيز ، وهى كلها أعراض يغلب أن تبعث القلق والحيرة فى نفوس أهله . بينما الطفل ، من الناحية الأخرى ، إذا كان هادئاً متحفظاً مطيعاً مهذباً يبتعد عن رفاقة كى يلعب وحيداً أو يشتد تعلقه بأمه ، أو إذا نحا إلى الانطواء والتركز حول ذاته ، مرّ أمره لا يبعث ضيقاً ولا يثير قلقاً . بل إنه إذا ضاق بعبث أترابه وخفة لداته ، لاعتبرنا ذلك أمراً جديراً بالرضا خليقاً بالثناء ، وخانا ذلك فيه دلالة من دلائل الاعتماد على النفس ، وحمدنا فيه قدرته على تسلية نفسه ، مع أن خصائص الشخصية التى تدفع هذا الصغير الهادئ إلى البعد عن الكفاح ضد بيئته ، قد تكون هى أكثر الخصائص التى تتطلب منا العناية وتستلزم الاهتمام ، إذا أردنا أن نرعى صحته الوجدانية والعقلية .

ولا يمكن أن نحدد مقدار نجاحنا فى تدريب الطفل وتنشئته تحديداً صحيحاً ، إلا بعد أن تتاح له فرصة استخدام العادات التى اتخذها ، من قبل ، للتوافق مع غيره خارج البيت . ذلك لأن الآباء يميلون إلى أن يغيروا البيئة المنزلية على الدوام ، حتى تلائم الطفل . لأنه من الأيسر كثيراً أن يبقى الطفل هانئاً راضياً بدلا من أن « يزن » ويصيح ويصرخ ويعاكس ، وهى كلها أسلحة ماضية يستخدمها الأطفال للحصول على ما يرغبون من أهليهم . والحق أن تغيير الأشياء المادية ، هو أقل صعوبة من تغيير نزوات الأطفال وأفكارهم عما يرغبون وما لا يرغبون . لهذا إذا اقتصر الأهل فى نظرهم إلى المسألة على توافق الطفل مع المنزل ، فقد يجدون فى هذا حجة تبرر تبديلهم المستمر لظروف البيت ، بدلا من عملهم على تغيير وجهة نظر الطفل نفسه . ومع هذا فليست المشكلة على

هذا القدر من البساطة ، إذ ينبغى أن نذكر على الدوام أنا نجاهد لعون الطفل على تكوين شخصيته وعلى اتخاذ عادات تهيئه للنجاح فى العالم الخارجى وتعده لمنافسة من سوف يلقاهم فى حياته المقبلة . وفى هذا يقع عبء التوافق على عاتق الفرد نفسه ، إذ سوف يكون عليه أن يتلاءم مع البيئة التى لا تتغير أوضاعها ولا تتوافق وإياه .

لهذا ينبغى أن يتعلم الطفل منذ وقت مبكر جداً . أن الأمور لا يمكن أن تسير وفق هواه . ومن ثم وجب ألا نعطيه كل ما يطلب أو يريد ، إذ لا بد له أن يتعود إغفال بعض رغباته . وأن يتعود العطاء وهو يود لو يأخذ ، وأن يقسم لعبه ويشاطر زملاءه إياها ، وقد يستغلق عليه السبب فى لزوم قيامه بهذه الأمور ، لكن الطفل — مهما يكن صغيراً — يستطيع أن يدرك أن هذه الأفعال تستجلب الرضا والثناء ، وتبعث فى غيره من الناس السرور والهناء . وعلى هذا المنوال يشب الطفل . فإذا بلغ الرجولة كان بنفسه من الشجاعة ما يدفعه إلى مواجهة ما فى الحياة اليومية من ألوان الإخفاق وضروب الخيبة .

ومن الخير أن نتجنب على الدوام أن نرشو الطفل ، وأن نبذل له من الوعود ما نعرف أنا لن نستطيع الوفاء به أو لا ننتويه . فكثيراً جداً ما نسمع « اسمع يا حمادة خليك ولد كويس وماما تشترى لك حلويات كثيرة » أو « اعمل هذا وماما تعطى لك قرش » فسرعان ما لا يرضى « حمادة » بقرش واحد ، وإذا أمه ملزمة بإعطائه قرشين ثم ثلاثة ، لأن الطفل بقليل من الإصرار كفيل بأن يعمل على استغلال هذه الطريقة لمنفعته . أما إذا كان فى الأمر جائزة موعودة ، وحاول الصغير أو جاهدت الصغيرة فى أداء ما طلب إليه أو إليها فلا ينبغى أن يغفل حقه العادل فى طلب المكافأة .

والطفل سريع التحقق مما يقع عليه من غش أو خديعة ، وكثيراً ما يلجأ الآباء إلى مخادعة الصغير أو الكذب عليه ، حتى يهدأ أو يؤدى ما يرغبون ،

وغالباً ما يفعلون ذلك دون شعور أو عمد . وإذا بهم يفاجأون مرة واحدة — دون أن يدركوا كيف وقع ذلك — فإذا بالطفل لا يقيم للصدق وزناً ، وقد فقد الثقة بكل ما يقوله الآخرون .

أما التهديد فهو طريقة شائعة لضبط قياد الطفل ، لكنها مع هذا أمر عديم النفع لا يغتفر . ولا يمكن أن نعتبر من التهديد تقرير ما سوف يلقاه الطفل إذا أصر على عصيانه تقريراً بسيطاً وأن يتحقق بالفعل ما أنذرناه به ، ولكن كثيراً من الوالدين يغرقون فى تهديدات خاوية ، لا تؤدى إلا إلى إحدى نتيجتين : إما أن يسيطر الهلع على الطفل ، مع ما قد يكون لذلك فى نفسه من عميق الأثر وشدة الخطورة التى لا تظهر واضحة ، وإما أنه قد يتحقق من أن شيئاً من تلك العواقب لم يحل به ، فلا يحفل بها البتة بعد ذلك . وتتأتى من ذلك فى كلا الحالين نتيجة غير مرضية لا ينبغى وقوعها على الإطلاق .

وقد تكون العادات التى كانت تنفع الطفل نفعاً لا بأس به فى البيت عديمة النفع له ، على أى وجه من الوجوه ، إذا ما نزل إلى الكفاح خارج المنزل فى العالم الفسيح ، فإذا لم يكن قد تعود أن يتعاون وأن يتسق مع غيره إلى درجة معقولة وأن يواجه الإخفاق كما يواجه النجاح ، وأن يعطى كما يأخذ ، وأن يدبر أموره دون تطلع دائم إلى الرضا والموافقة ، كان محتوماً عليه أن يستيئس كثيراً إذا شرع فى حياته خارج الدار . وكلما بكرنا فى تهيئة الفرصة للصغير كى يعمل وكى يلعب وكى ينافس غيره من الأطفال فى مثل سنه ، كان له فى ذلك ما يدفعه على اتخاذ العادات التى تساعده على التوافق مع المجتمع .

والأمر الطبيعى السوى هو أن يستكمل الطفل استقلاله ويتحمل المسئولية كاملة فى سن مبكرة ما أمكن التبكير بذلك . ولندعه يحاول ويخفق إذا استلزم الحال ذلك ، فإنه سوف يتعلم من أخطائه . ومع أن الأسهل علينا غالباً أن نؤدى له من الأمور ما يبطىء هو فى أدائه أو ما يكون عسيراً عليه ، فمن الخير أن نتريث

وأن نعطيه ما يكفيه لذلك من وقت . فإن عادات التواكل التى يغرسها الآباء ، غالباً ما تجعل من المحال تماماً على الولد أو البنت ، فيما يقبل من الأيام ، أن يدبر لنفسه أمراً أو يعتمد على نفسه فى شىء .

قد وجدنا من صلاتنا بالأطفال الشواذ ، أنا نعرض ، على الغالب الأغلب لمشكلات البيئة ومشكلات الآباء أكثر ما نعرض لمشكلات أطفال . فهناك كثير من الأدلة تثبت أنه إذا اعوجت شخصيات الآباء لنقص عقلى ، أو إذا التوت نظرتهم إلى الحياة وشاهت تبعاً لما قد يكون فى وجداناتهم من اضطراب ، لم يكن لنا أن نرجو من مثل هؤلاء الآباء أن يخلقوا فى البيئةما نود أن يقلده الطفل. هذا إلى أن نظام التهذيب فى مثل هذه الأحوال لن يسير على منوال معقول سليم مأمون ، بل سوف يعتمد اعتماداً مطلقاً على مزاج الساعة الذى يشعر به الأهلون تبعاً للظروف .

وينبغى أن يكون كلا الوالدين رفيقاً بالطفل صديقاً له ، موطناً لثقته . والوالد الذى يفضى إليه صغيره بكل متاعبه وشكوكه يلتمس لها حلا لديه ، يكون قد أقام بذلك بينه وبين صغيره صلة تجل عن التقدير . ولا يمكن الوصول إلى ذلك إذا كان مسلك الوالد بارداً منفراً ، أو يبدو فيه عدم الاكتراث . بل إن الأم التى تغفل عن الاهتمام بتفاهات طفلها الصغير لن تجد فى مشاكله الحقيقية ما يشغلها على الإطلاق .

ومن المحقق أن كل حادثة من الحوادث اليومية ، تلقى من الطفل جانباً من اهتمامه . وقد لا ندرك تفسيره لأبسط الأمور ، كما قد يكون هذا التفسير بعيداً عن الصواب . فلا ينبغى ، والأمر كذلك ، أن نحدثه حديثاً يعلو عن فهمه أو أن نزيد ارتباكه بالتحدث إليه عما يجهله فى عبارات كلها رموز وألغاز . وما أقل الآباء الذين يعرفون قدر ما يفهم الأطفال مما يسمعون . كذلك لا ينبغى التحدث عن الطفل أو الضحك عليه على مسمع منه ، فشدة الحياء والإحجام

أمور سريعة التكوين ، وقد يجرح شعور الصغير ضحك لا يفهم سببه أو قد يخلق فيه رغبة غير سليمة للظهور واجتذاب النظر والانتباه .

كما ينبغي أن يكون فى معاملتنا للطفل مثل ما فى معاملتنا للكبار من أدب لباقة . والأطفال يعالجون ما يعرض لهم من المشاغل ، ويدبرون ما يخصهم من خطط ، وكثيراً ما يتجاهل الكبار تلك الخطط تمام التجاهل . فإذا لزم أن نتدخل فى شئونهم ، فليكن فى ذلك جانب من الإيضاح لعلة هذا التدخل مع ما ينبغى لهم من تقدير واحترام .

كانت الابنة الصغيرة لزوجين شابين تلعب راضية على البساط عند قدمى أبيها ، حين نادتها أمها من أقصى المنزل تدعوها إلى الفراش . ولو أن الصغيرة كانت قد تركت وشأنها دقيقتين أو ثلاث ، لفرغت مما كانت تلهو به . ولو أن أمها كانت قد عرفت ذلك لتريثت قبل أن تدعوها إلى النوم . فأدارت الصغيرة وجهها واغرورقت عيناها بالدموع قائلة «لكنى لا أريد الذهاب يا بابا إلى أن أنتهى من هذا » وأدرك الوالد حجة صغيرته لكنه أجابها بقوله « حاجة تضايق صحيح ». لكن ماما لم تعرف أنك قاربت الانتهاء وإلا لكانت تركتك تنتهين ؛ ما عليه شىء « الأوامر أوامر ، فاذهبى إلى الفراش » وذهبت البنت إلى فراشها . وعلى هذا المنوال أظهر لها أبوها أنه يعطف عليها فى ضيقها ، وأنه كان يرقب منها أن تواجه العسر فى شجاعة . كما أنه أيد الأم فى طلبها ، وكان فى هذا كله عاطفاً عليها فاهماً إياها .

وقد يجدر بنا أن نذكر هنا أن فى القواعد الأساسية فى تنشئة الأطفال ، أن يكون الوالدان جبهة واحدة بإزاء الطفل . فإذا ثار بينهما خلاف فى الحكم فليلتمسا له الحل بعيداً عن سمع الطفل .

ومن أشد ما يبعث الأسى تلك البيوت التى تخلو من الأب . ولست أشير بهذا إلى الوالد الذى مات ، أو انفصل عن أسرته بالطلاق أو لمرض طويل ،

بل أود أن أشير إلى الوالد الذى يطغى عليه عمله أو أصحابه أو مقهاه وما إلى ذلك، طغياناً يحرم أسرته من حضوره والأنس به فيعتمد الصغار فى هذه الأحوال كل الاعتماد على أمهاتهم .

وهذا موقف عسير خاصة على الأطفال بعد سن الخامسة . ولا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن الوالد الذى يعجز عن إقامة الصلة والألفة بينه وبين صغيره ، واصطناع روح الصحبة وإياه وإشعار الطفل بلزوم أبيه فى حياته قبل سن الخامسة غالباً ما لا يقوم بذلك ألبتة . بل حتى إذا هو اهتم بأمره ، كان ذلك من قبيل الواجب لا من قبيل المتعة به . والأطفال سريعون فى التفرقة بين اللهو فى نفسه وما يبعثه فى نفس الوالد والطفل من رضا ومتعة حقيقية وبين ما يبذله الكبار من جهود للقيام بتلك المهمة كواجب يثقل عليهم ويبعث فيهم السأم ، ولا يضيق الوالد وحده بمثل تلك العلاقة بل يضيق بها الصغير أيضاً .

وما أكثر الآباء الذين لم يذوقوا قط ما فى صحبتهم لأطفالهم من هناء صحيح ! بينما فخرهم بهم لا يقف عند حد . وهم لا يقفون عن مداومة الكد فى تزويد أبنائهم بما يلزم لهم من طعام وملبس ومسكن مريح ، ويرسلون بهم إلى المدارس الخاصة والمصايف . ويواصلون السعى وراء الحصول عل ما يلزم لذلك ولغيره من مال . ولعلهم يظنون على الدوام أن ميعاد تعرفهم على الطفل سوف يحين يوماً عند ما يكبر الطفل قليلا . والطفل ينمو ويشب ، وكلما نما وشب تكونت شخصيته . واصطنع من العادات والخصائص أنواعاً جديدة . وتباورت أفكاره ومشاعره حتى صارت عقائد وآراء . وهذه الآراء ممتلكات ثابتة لديه ، ومنها فكرته عن والديه . فالأب عنده رمز لكل ما هو طيب ، والأم تتغنى بمدح هذا الأب وتتحدث عن قدر ما يبذل من جهد لتهيئة كل ما يستمتعون به ، وهى تقول له إن « بابا » رجل طيب مخلص حنون . ورغم هذا فالغالب أن تكون فكرة الطفل عن أبيه فكرة غامضة لا يتصل بها إلا قليل من الانفعال ، مثل فكرته عن

الأنبياء أو عن أولياء الله الصالحين ، مع أنه يود أن يعرف عن أبيه أكثر من هذا القدر : هو يود أن يعرف فى الواقع ماذا يفعل ؟ وكيف يتصرف ؟ وهل هو لطيف يجيد التسلية ؟ أيحب اللعب ويعرف كثيراً من القصص والحكايات ؟ أترى بابا يهتم بما له من بلى وكرات وأصحاب ومعلمين ؟ وما أكثر تلك الأمور وما إليها مما يستطيع الوالد أن يتحدث مع طفله عنها ، ولو فى أصيل يوم من الأيام عند النزهة ، أو فى المساء قبيل ذهاب الصغير إلى الفراش ، أو فى الصباح على مائدة الإفطار .

وأشد ما يؤسف فى ذلك الموقف أن الآباء لا يفطنون إلى أن متعة الأب بصحبة ابنه أبقى أثراً وأكثر إشباعاً من متعته بماله إياه ؛ فما أكثر من رزقوا أبناء وما أقل من يعرفون أبناءهم ويفهمونهم ويعماون على صحبتهم .

والأمهات مسئولات فى بعض الأحيان ، مسئولية جزئية على الأقل ، عن الشقة التى تفصل بين الآباء والأبناء ، إذ هن يبالغن فى مصاعب العناية بالطفل وما فيها من تعقيد ، مبالغة الوالد فى الإيمان بأن أية مساهمة منه قد تبعث الفوضى أو تثير الاضطراب فى أساوب الأم وتفكيرها الراجح الذى ألفت، يوماً بعد يوم ، أن تبذله فى تربية الطفل وتنشئته . فأى رأى يشير به الأب محكوم عليه بالخطأ : إذا طالب « ميمى » بسماع قصة فقد حل وقت النوم ، وإذا دخل « بابا » بشىء من الحلوى فمن المألوف أن تقول إن الحلوى سوف تتلف معدة الطفل ، وإذا انتوى أن يخرج وصغيره للنزهة فالجو بارد أو الشمس لافحة ، حتى ليبدو أن « بابا » كفيل على الدوام باقتراح الخاطىء من الأمور .

وغالباً ما تخفق الأمهات فى إقناع الآباء بما فى العناية بالأطفال من متعة ، وهكذا يفقدون حافزاً ثميناً يستطعن به أن يدفعن الرجال إلى تحمل جانب من تبعة العناية بالصغار .

ولا يقف لزوم الوالدين للصغار عند سد حاجاتهم البيولوجية ، إذ لا يستطيع

السلف أن يفى بما فى عنقه للخلف بالاقتصار على تزويد الأطفال بما ينبغى لهم من طعام وكساء ومسكن ، بل إن الأبوة والأمومة فى نفسها واجب تطالب به الجماعة قدر ما يطالب به الطفل ، ولا يمكن القيام بهذا الواجب إلا إذا صُغنا من الطفل إنساناً يتفق مع الجماعة ويستطيع الحياة مع الناس .

ومن بالغ الأهمية أن يبذل الآباء كل جهد مستطاع لتفهم الدوافع التى تقيم سلوك أبنائهم ، ذلك لأن الدوافع هى الأمور الأساسية لا السلوك نفسه ، ويساوى ذلك أهمية ألا يحاول الآباء أن يسقطوا فى حياة بنيهم ما لم يتحقق من رغباتهم وأمانيهم وما عجزوا عن نيله ، مما كانوا يتوقون إليه من عطف أو مطامح أو تعليم أو مكانة فى المجتمع . ولنذكر دائماً أن للطفل شخصيته الخاصة به ، وأنه ينبغى أن تتاح له فرصة النمو وفقاً للسبيل الذى يلائم استعداده ويتسق مع ميوله .

الفصل الرابع

التغذية

إن عادات الأكل والنوم والإخراج متصلة مباشرة برفاهية الطفل البدنية ، فإذا درّب على هذه العادات تدريباً صحيحاً فى الوقت المناسب ، حق لنا أن نوقن بأن الأساس الذى تقوم عليه الصحة العقلية والبدنية قد تم وضعه . فتلك هى أولى العادات التى تتطلب الانتباه . ذلك لأنه فى هذه العمليات الفسيولوجية البسيطة تقع الأخطاء المبدئية فى تربية الطفل ، إما بإهمال أهميتها إهمالا مطلقاً ، أو بالمبالغة فى الاضطراب والقلق من ناحية الصعوبات التى تنجم عنها . وقد لا تكون النتائج المترتبة على إهمال العادات المرذولة واضحة على الدوام لأن الأثر المباشر قد يكون تافهاً إذا قيس بالنتائج النهائية . وعلى العكس فإن إغراق الوالدين فى الحدب والرعاية يبعث فى علاقتهما بالطفل أمراً غامضاً يأخذه الصغير على أنه لون من الشك أو الريبة أو من الضعف فى أبويه ، ويمنعه هذا الموقف من اتخاذهما قادة له يسترشد بهما ، مع أن هذا هو العامل الأول فى تربية الطفل .

وقد علمتنا التجارب أن كثيراً من العادات المرذولة ، واعوجاج الشخصية الذى كثيراً ما نشاهده فى مطلع المراهقة ، وثيق الصلة فى بدايته بالعجز عن إجادة هذه العادات الأساسية الثلاث وهى : الأكل والنوم والإخراج ، التى تتصل اتصالا مباشراً بحياة الطفل العضوية . لذلك كان من أهم ما يؤدى إلى رفاهية الطفل فى مقبل أيامه ، وإلى اطمئنان الوالدين ورضاهما أن يعنى الآباء بهذه العادات عناية دقيقة .

ومن أول المصاعب التى تواجه الأم صعوبة مزدوجة هى : تقديم الغذاء الملائم للطفل الحديث الولادة ، وعونه على تكوين عادات حسنة لتناول هذا الغذاء فى خير الأوقات وعلى خير منوال ، حتى تكون أكثر توافقاً مع حاجاته البدنية ، وتبعاً لدقة الأعضاء التى نحن بصددها ، وللصلة الوثيقة بين حياة الطفل الوجدانية وحياته البدنية فإن الاتجاه الصحيح فى تغذية الطفل كثيراً ما يفسده الوالدان لأنهما يتعرضان إلى الانزلاق فى أخطاء لا حصر لها ، قد تؤدى إلى أسوأ النتائج كلما نما الطفل ؛ وما أقل المشاكل التى تثير العناء فى الوالدين أكثر ما تثيره مشكلة التغذية .

وليس هناك فى الجسم عضو واحد يتأثر تأثراً مباشراً بالانفعال ، أكثر من تأثر القناة الهضمية المعوية به . ومن المؤكد أن الجهاز الدورى والجهاز التنفسى يتأثران كثيراً بالانفعال . غير أن كليهما يقوم بوظيفته — أثناء الانفعال — على وجه أكبر كفاية وأقل إزعاجاً للفرد من ذلك الجهاز الذى يقوم بهضم الطعام وتمثيله وإخراجه ، وقد أثبت البحث الفسيولوجى ما يعقب الانفعالات المختلفة كالخوف والغضب والسورة [١] من أثر مباشر على العصارات التى تعمل على هضم الطعام . ولا يبعث على العجب أن نجد أن الجهاز الهضمى — الذى يبلغ فى الاستجابة للمثيرات الخارجية من الدقة والسرعة مبلغ الجهاز العصبى للطفل — يستطيع أن يميط اللثام تماماً عن الصلة الوثيقة بين العمليات البدنية والعمليات الانفعالية . فالطفل إذا غضب أو استشعر الوحدة أو اشتد انفعاله فى اللعب أو الخوف لا يستطيع أن يهضم الطعام أو يمثله .

وفى كل المشاكل التى تتصل بتناول الطعام نود أن يكون مفهوماً أنه حين لا تذكر أية أسباب بدنية للأعراض الظاهرة . يكون الفحص الطبى واختبارات

---

(١) نقترح كلمة السورة ترجمة اللفظ Excitement فالسورة الحدة ،وقد ورد منه سورة الجوع والخمر والغضب ، ومن ثم يمكن إطلاقها على حدة أى انفعال إذا اشتد الشعور به .

المعمل الضرورية ، قد استبعدت وجود أى سبب من هذه الأسباب . هذا إلى أن الخطوة الثانية ، لالتماس ما أدى إلى فقدان الشهية عند طفل أو ألم المعدة عند آخر أو القيء المتواصل عند ثالث ، هى البحث عن كل الظروف التى لابست ظهور هذه الأعراض منذ البدء ؛ كما تتضمن محاولة الوقوف على الغاية التى تعمل هذه الأعراض على تحقيقها فى حياة هؤلاء الأطفال .

ويجب أن نذكر دواماً أن كل المشاكل الخاصة بتغذية الأطفال ، لا يمكن أن توضع ارتجالا فى واحدة من هاتين المجموعتين ، ألا وهما : المجموعة التى تنتج عن قليل من الاضطراب فى عمل واحد من أجهزة الجسم المختلفة ، أو المجموعة التى ترجع إلى العادات المرذولة . فكثيراً جداً ما نجد أن إحدى المشاكل البدنية التى تبدو لنا فى ظاهرها بسيطة لا صعوبة فى فهمها ، هى فى الواقع معقدة ، تبقى طويلا بعد إزالة السبب البدنى . ومن ثم كانت هذه المشكلة أشد ما يؤدى إلى الحيرة والدهشة وأشد ما يتطلب من الآباء كثيراً من الأناة والمهارة ، إذا هم رغبوا فى أن يوفقوا إلى حلها حلا يتسم بالحكمة ويقوم على الرؤية .

فإذا أردنا أن نستقصى أهم الأسباب الواضحة التى تثير فى الوالدين قلقاً زائداً على الطفل الذى يرفض الأكل رأينا أول الأمر دون شك ، أن ضعف الشهية متصل بضعف الصحة وضعف الشهية من الأعراض الشائعة للمرض ، حاداً كان أو مزمناً ، إذ أن الشهية تعتبر عادة عنواناً لصحة الفرد . هذا إلى أن الرأى الشائع خلال الأعوام الأخيرة فى تقنين أوزان الأطفال وأطوالهم كان مبعثاً للقلق فى نفوس كثير من الأمهات . ومع ما لأهمية التحقق من ملاءمة الغذاء للطفل وكفايته ، يجب ألا يفوتنا ما للمبالغة فى أهمية معايير الوزن والنمو وتعيين مقاييسها من خطر . ذلك لأن الأطفال يتفاوتون من حيث كمية الطعام اللازمة لكل منهم . فلعل فى فقدان الطفل إحدى وجباته ، من وقت لآخر ، من النفع له أكثر مما فيه من ضرر ؛ ولا يتحتم أن يصاب كافة الأطفال الذين

لا يحبون أكل الأسفاناخ أو الجزر بإحدى العاهات البدنية فى مقبل حياتهم .

لهذا يجب أن ينظر الوالدان إلى كافة هذه العوامل بما ينبغى من حسن الفهم وسلامته . إذ لا يمكن ضمان الصحة العقلية والبدنية للطفل ، إذا أثار أى شذوذ فى تناول الطعام، سواء بالكلام أو بالفعل ، رداً انفعالياً فى الوالدين يدفعهما إلى الغضب والسخط ، أو إلى الإسراف فى الرعاية والقلق . فكثيراً ما تجذب انفعالات الآباء وعنايتهم انتباه الطفل إلى قيمة نفسه ، وتبعث عنده شعوراً لذيذاً بالقوة ، وتوحى إليه أن ساعة تناول الطعام فرصة سانحة لاجتذاب الانتباه إليه والاهتمام بأمره .

وفى الحالة الآتية نتبين كيف أن بساطة الوالدة وسذاجة انفعالاتها قد أدت بكافة أعضاء الأسرة إلى تركيز حياتهم كلها حول تغذية الطفل :

كان م . . . وهو طفل الأسرة الوحيد يبلغ من العمر ثلاث سنين ونصفاً عند ما أحضر إلى العيادة . وكان الهلع قد اشتد بأمه عند ما أصيب بالدفتيريا وهو فى سن الأربعة الأشهر ، فأحاطته بكل ما تستطيعه من رعاية وعناية ، بينما كان أبوه لا يبدى أى اهتمام بأمره بل كثيراً ما كان يضربه رغم ولع الصبى به . أما أجداد الصبى الذين كانوا يعيشون فى نفس الدار ، فكانوا يدللونه . وإلى هذا كانت له عمة تعطيه أحياناً بعض الحلوى بين الوجبة والوجبة . ومن ثم كانت هناك على الدوام صعوبة فى تغذيته وصلت فى هذا الوقت إلى حد رفضه كل ألوان الطعام . هذا إلى ما كانوا يلقونه من صعوبة فى دفعه إلى النوم ، إذ تعودت الأم أن تضعه فى الفراش حيثما يناسبها ذلك ، وكانت تؤرجحه وتغنى له حتى ينام ، وكثيراً ما كانت ترقد إلى جانبه . ولكى تدفعه إلى تناول الطعام كانت تجلس بجانبه لتحببه فيه ، وتريه صوراً ، أو تقص عليه حكايات دون جدوى من ذلك كله . وكانت تتبعه فى أركان الدار ، بل تلاحقه فى الشارع تغريه بشتى أصناف الطعام . فإذا أراد أن يلعب خارج الدار تعقبته على

درجات السلم تعطيه غذاءه . وكان الوالدان دائمي الشجار على العناية بالطفل ، لأن الأم كانت ترى أن شهية زوجها ضعيفة ، وأنه كثيراً ما يرفض تناول بعض ألوان الطعام التي كان يرفضها الطفل بعينها ، وكانت تلوم الوالد على عـــدم إرغام الطفل على الطعام ، بينما كان هو بدوره يلقى تبعة هذه المتاعب على عاتقها هي . أما هي فكانت تشعر بخجل مرير لأن طفلها لا يأكل ، ولا يسمن ، ولأن خدوده لا تتورد ، فكم كانت تتوق إلى أن يكون أطفالها مُثُلا وآيات في الصحة والرواء . . ، وكان من العسير عليها أن تتبع أوامر العيادة ، وأن تعطى الطفل طعامه في أوقات الوجبات المعينة ، إذ لم تكن لتستطيع أن تدع طفلها جوعان ، فإذا طلب شيئاً يأكله سارعت إلى تلبية رغبته . ومن الواضح أنه لا يمكن إصلاح عادات هذا الطفل دون تغيير كبير في موقف أمه .

من الطبيعي أن يثير ضعف شهية الطفل انزعاج الوالدين وقلقهما ، غير أنه في مثل هذه الحالة التي نحن بصددها ، لا توجد علاقة بين عادات الغذاء المرذولة وبين ضعف الشهية . فالحق أن كثيراً من أولئك الأطفال ذوي العادات الغذائية السيئة لا يتناولون من الطعام كمية منقوصة ، وهم فوق ذلك ليسوا بناقصي الوزن ، بل إن البحث يكشف عن أن الطفل يتناول من الطعام ما يكفيه . وتحل المشكلة نفسها إذا نظرنا أولا إلى كمية الطعام التي يتناولها الصغير ، وثانياً إلى الطريقة والميعاد الذي يتناول بهما طعامه ، وأخيراً إلى قدر ما يبذله الوالدان من الطاقة والجهد في دفع الطفل إلى تناول الغذاء الكافي له .

ومن الصعوبات الجمة التي نلقاها اعتقاد الأمهات الخاطيء أن كافة الأطفال طفلا طفلا ، يحتاجون إلى كمية معينة من الغذاء كل يوم ، بغض النظر عما يشعر به الطفل . مع أننا نحن الكبار يطيب لنا التنوع الكثير في ألوان الأطعمة ؛ ولن نشعر بالسخط فحسب ، بل بالسآمة والملل أيضاً ، إذ طاب إلينا أن نتناول كمية من الطعام في عشائنا كل ليلة ، أو أن نأخذ نفس العدد من

« وحدات الحرارة » فى وجبة الغذاء ظهراً كل يوم ، ذلك لأن شهية كل منا محكومة على الدوام بما نشعر به من صحة ، وبنوع العمل الذى نؤديه ، وبحالتنا البدنية العامة عند تناول الطعام . ومع أنه يجب التزام حدود معينة عند انتقاء غذاء الطفل من ناحية كميته ونوعه ، فإنه يجب أن نذكر — ولو فى بعض الأحيان على الأقل — أن رغبته فى الطعام تتغير كثيراً وتختلف ، كما تتغير رغبتنا نحن وتختلف .

ولا نود بالطبع أن نحط من قيمة الإقبال على الطعام كدليل مفيد نتعرف منه على صحة الطفل العامة . ومع هذا فمن الواجب أن ندرك أنه من الصعوبة بمكان . أن نضع المعايير الدقيقة لغذاء الطفل . لأنه لا يلزم أن يكون كل الأطفال من وزن واحد وعلى طول واحد فى سن معينة ، ولن ينجم أى ضرر إذا نحن أخفقنا فى الوصول بهم إلى ما نسميه « المعايير » ، أو إذا هم رفضوا فى بعض الأحايين وجبة أو اثنتين من وجبات الطعام . كما يجب أن نؤكد ما يؤدى إليه قلق الآباء على بعض المسائل التافهة من التعجيل بصعوبات التغذية فى الطفل وتثبيتها عنده .

وكثيراً ما تؤدى بعض انفعالات الآباء إلى المبالغة فيما لمسألة التغذية من أهمية . ويمكن ملاحظة هذا بوضوح فى حالة س . . . التى تبلغ من العمر ست سنوات . كانت أمها قد ماتت بذات الرئة من قبل ، فتملك أباها خوف دائم مروع من أن تكون الطفلة قد أصيبت بنفس العلة . فكان ينشد أن يراها على الدوام سمينة موردة الخدين . لهذا فرض على الطفلة يومياً ثلاث وجبات كبار . فى حزم شديد خلع على المنزل جواً من الجفاف أفقد الطفلة شهيتها . فكانت تزدرد الطعام ازدراداً خشية من ثورة غضبه ، أو كانت تتمنع عن الطعام فلا تبتلع لقمة واحدة دون إغراء أو رشوة . وبدلا من أن يصير تناول الطعام نظاماً محدوداً معيناً . أصبح ميعاد الوجبة عند الصغيرة فرصة تنتهزها

لتمثيل رواية صغيرة تلعب فيها الدور الأول ، حتى تثير العناية وتجتذب العطف والرعاية .

فإذا عرفنا أن بالطفل نزعات فطرية نحو القوة والظهور ، وأن الأساليب التى يستطيع أن يشبع فيها تلك الميول ساذجة محدودة ، لم يكن مما يبعث على العجب أن نرى الصغار يلجأون إلى هذه الطرق لفرض أنفسهم علينا . وقد يغيب عن الأم تماماً أن ابنها الصغير عند ما يأكل أو يرفض الأكل مثلا ، يستطيع بذلك أن يسيطر على جانب كبير من نشاطها ، كأن يجعلها تجلس لإطعامه ، أو تقص عليه الأقاصيص ، أو تغريه وترشوه ، أو تهدده ، بل أن تدمع عيناها حنقاً وغضباً . وقد تخفى على الطفل العوامل التى تدفعه إلى سلوكه ، قدر خفاء العمليات الفسيولوجية التى يهضم بها غذاءه ، لكنه مع ذلك يشعر بقوته وسطوته ويحس بما تبعثه هذه القوة فى نفسه من رضاً يماثل ذلك الرضا الذى يشعر به فى راحته عقب قيلولة هانئة أو أكلة طيبة .

هناك إذن خطأ عظيم تتعرض له الأم ويؤدى بها إلى الإخفاق فى تحقيق غايتها ، إذا هى بدأت الوجبة بتذكير الطفل أن عليه أن يتناول غذاءه ؛ أو أن يتركه ويذهب بدونه . ذلك لأنه يكون قد كشف من قبل . أنه ليس فى الواقع مرغماً على قبول أحد الأمرين ، إذ أنه يعرف أن التهديد على الدوام يسبق الإلحاح والرشوة . وهو لهذا يجد نفسه فى موقف يخوله حق الخيار عند ما يشاء ، هذا إلى أن الأم إذا بالغت فى حنانها وأسرفت فى قلقها . اندفعت دائماً إلى قبول أيسر الحلول . يضاف إلى ذلك أن الطفل يشعر بالأمن وبقوة المركز ، لأن التجارب المتوالية عامته أن أمه لا تذهب بعيداً فى تهديدها بالعقاب ، بل إنها سوف تجاس آخر الأمر لإطعامه . غير أن لذة الموقف عنده لاتقف غالباً عند هذا الحد ، لأن شدة رعاية الأم وهول اضطرابها إزاء المشكلة ، كفيل بأن يدفعها إلى التحدث عن الصعاب التى تلقاها فى تغذية الطفـــل مع الجيران

والصحاب ومع بقية أفراد الأسرة ، وهكذا يواصل الطفل العمل على نيل ما يبغيه من ارتيــاح إذ يظفر بالحصول على أكبر جانب من مدار الحديث فى الأسرة .

هذه الاعتبارات العامة تنطبق على معظم الصعاب التى تتعلق بتغذية الطفل بغض الطرف عن اختلاف ظروفها وأحوالها . ذلك لأن هذه المشكلات عامة شائعة لا تخلو منها طبقة اجتماعية واحدة ، لكن لعلها فى الواقع أكثر ظهوراً بين أبناء المترفين الأثرياء ، وخاصة أولئك الذين يكلون تربية أطفالهم إلى المربيات « والدادات » .

وها نحن أولاء نعرض فيما يأتى من الحالات جانباً من التفاصيل وبعض الطرق التى تعين على حل هذه المشكلة .

ت . . . غلام يبلغ من العمر ثلاث سنوات . كانت ولادته عسيرة ، ونموه طبيعيًّا لم يصبه أى مرض من الأمراض التى تصيب الأطفال عادة . وقد عولج فى سن الثانية بالراديوم . لبقاء الغدة التيموسية (١) . وهو يعانى الآن تضخماً معتدلا بالزوائد الأنفية واللوز . هو كثير التأفف من الطعام يحب بعض أصنافه ويكره بعضها الآخر . إذ لا يعنيه تناول اللبن ويرفض الخضر لكنه مولع باللحوم والحلوى . يرفض على الدوام تناول الطعام فى مواعيده . يكثر أكل التفاح والحلوى . كما يتناول المثلجات أحياناً بين الوجبات . إذا ألزم بالجلوس إلى المائدة أخذ يعبث بالطعام . وشرع يخلط أصنافه المختلفة فى الطبق الذى أمامه ، وإذا تناول منه النزر اليسير نثر أكثره على المائدة أو على أرض الغرفة . وإلى جانب معضلة التغذية كان نومه قليلا . يتقلب أثناءه ويتململ وكثيراً ما يبكى خلال الليل . يكاد يكون ممتازاً فى ذكائه فهو يفوق عمره الزمنى بعام . وأهله

---

(١) Thymus غدة ليمفاوية صماء توجد فى الجزء الأسفل من الحنجرة ، ورغم غموض وظيفتها يظن أنها تؤثر فى النمو وفى تكوين الدم ، وهى تختفى أو تضمر حوالى سن المراهقة . (المترجم)

أذكياء عاملون ، يتوقون للتعاون معنا فى التغلب على هذه المشكلة .

وقد اقترحنا عليهم الخطة الآتية التى لاقت النجاح فى التنفيذ : كانت أولى الخطوات وأهمها هى التغلب على اضطراب الأم وإشفاقها من الموقف ، وقد وصلنا إلى هذا بإقناعها بأن المشكلة كثيراً ما تحدث ، وأن فى الإمكان علاجها علاجاً سريعاً ناجعاً إذا هى قدمت معونتها لذلك . وبذلنا وقتاً طويلا فى إيضاح تفاصيل المشكلة ، حتى يمكن أن تقف وقوفاً تامًّا على الغاية من عادات التغذية السيئة التى أدمنها الصبى .

ولما كان الطفل هياباً لا يثق بنفسه إلى حد أزهده فى الاتصال بأترابه الأطفال إلا فى الندرة ؛ و لما كان أبوه لا يمكث فى المنزل إلا لماماً ، زاد ذلك كله فى أهمية الدور الذى تقوم به الأم فى حياة الطفل . فكان من المقطوع به ، وفقاً للخطة التى جرى عليها سلوكه ، أنه يعمل على ألا يفقد السيطرة أو يفرط فى سلطانه على أمه : لهذا أكدنا لها أن الطفل قد تعلم بالتجربة أنه إذا رفض الطعام فى الوقت المعين فذلك لأنه قد عرف أن أمه لا تطرب لشىء أكثر من أن تسارع إلى تلبية رغبته وفقاً لهواه وعند ما يشاء . كما ألححنا فى إقناع الأم بأن الطفل إذا تمكن من الحصول على الغذاء متى أراد ، وإذا توفر له التفاح والحلوى والمثلجات ، بدلا من البطاطس والإسفاناخ فمن الحمق بعد ذلك أن نتوقع منه إطاعة رغباتها أو أوامرها . وقيل لها ، إلى ذلك كله ، بأنه إذا لم يبد منها عدم الاهتمام بالمسألة وقت الوجبات فلاحق لها أو لنا أن نتوقع إلا أقل نزر من النجاح . أو بمعنى آخر أنه إذا أصر الطفل على تمثيل هذه الرواية وقت تناوله الطعام ، فيجب أن نترك له المسرح يمثل فيه وحده ، ولا يستمتع بمشاهدة أحـــد من المتفرجين فى غرفة المائدة . ولما كنا نقدر مبلغ اضطراب الأم وانزعاجها إذا حرم الطفل وجبة أو اثنتين مع غذائه ، بينّا لها أنها بذلك تود أن تتجنب القلق فقط ، وأنها لا تؤدى ما يجب عليها القيام به فى سبيل منفعة الطفل وعلاجه .

أما أسباب القيء عند الأطفال فكثيرة متنوعة : وهى أعراض المرض الشائعة ، كما أنه كثيراً ما يعجل بها شدة الانفعالات والتوتر.. لهذا لا ينبغى أن نستبعد فحسب كل سبب بدنى ممكن بعض الفحص الدقيق ، بل ينبغى أن ننقب تنقيباً دقيقاً عن أسباب التوتر الانفعالى . والعوامل التى تؤدى إليه فى بيئة الطفل . وهكذا يجب بالإضافة إلى التحقق من عدم وجود أية علة جسمية ، أن نلم بتاريخ الطفل وبيئته حتى نقف على الظروف التى عرضت للطفل فى حياته ودفعت به إلى تكوين عادة القيء .

ومن أكثر المواقف التى تؤدى إلى القيء عند الأطفال ، تلك المواقف التى تتصل بالتغذية . ذلك أن الأم بعد أن تكون قد استنفدت كل جهودها لإغراء الطفل بالأكل حتى لجأت أخيراً إلى استخدام التهديد والعقاب ، أصبح الطفل بين يديها ممتلئاً حقداً وسخطاً أو خوفاً وخنوعاً . وقد تؤدى تلك الجهود أحياناً إلى النجاح فى إدخال بعض الطعام ، قل أو كثر ، إلى معدة الطفل . غير أنه على الدوام عقب أى موقف عاصف تضيق على الطفل فيه المنافذ ، تكون العملية الفسيولوجية التى تشمل استبقاء الطعام وهضمه . قد أصابها من الاضطراب — الذى نتج عن شدة الموقف الانفعالى — قدراً يؤدى إلى قذف الطعام قذفاً لا إرادة له فيه . ومع أن الموقف الذى أدى إلى القيء موقف انفعالى خالص كان يمكن تجنبه . إلا أن قذف الطعام كان فى الواقع عملية فسيولوجية لا يمكن الطفل أن يسيطر عليها على أى وجه من الوجوه .

وقد يحصل القيء أيضاً كذيل لمرض من الأمراض . لم يكن القيء سوى أحد أعراضه التى بقيت طويلا بعد القضاء على علتها الجسمية أو التخلص منها ، مثل ما كان فى الحالة الآتية :

ف . . . . بنت تبلغ الخامسة تعودت القيء دون انقطاع منذ عامين ونصف ، وأحياناً لعـــدة مرات فى اليوم الواحد . ولم تكف مرة عن القيء أكثر من

أسبوعين . وكان يحصل فى الصباح خاصة ، لكنه كان يفد عليها فى الأوقات الأخرى أيضاً ، وإذا استيقظت وسط الليل أحياناً ، كانت تشعر بالتقزز وتنادى أمها . وبدأ هذا الداء عقب إحدى عمليات اللوز والزوائد الأنفية التى طال أثناءها تخدير الطفلة بالأثير فبقيت بعد العملية تقىء يوماً بأكمله .

وكانت طفلة مبكرة النضوج ، كما كان من الواضح أن هذا القىء كان يلعب دوراً كبيراً فى حياتها . إذ كانت تفكر فيه كثيراً ، وتتحدث عنه كما قد تتحدث امرأة عصابية عن الأعراض التى تشعر بها . وأدى الأمر بها إلى أن أى انفعال زائد أو توتر كان يفسد عليها أمرها ويؤدى مباشرة إلى القىء .

وقرر طبيب الأسرة أن العلة تعود إلى أصل بدنى ، وألح فى وجوب القيام بعملية جراحية لاستئصال التهاب مزمن بالمصران الأعور . غير أن الحالة التى وجد بها المصران لم تكن سيئة حتى تكون سبباً للقىء الذى استمر أيضاً عقب العملية ، رغم أن صحة الطفلة كانت حسنة .

وأخذ القلق من الأم كل مأخذ إذ كانت تحب ابنتها حبًّا فائقاً يبلغ حد العبادة . ومع أنه كان لها طفلان آخران أكبر من هذه البنت ، فإن أغلب رعايتها كانت موجهة إليها وحدها . فكان نظام غذائها على الدوام محلا للنظر والبحث ، كما كان طعامها يقدم إليها وحدها بعيداً عن إخوتها .. ولم يكن يؤذن لها بالخروج واللعب مع غيرها من الأطفال ، لأن طبيب الأسرة كان قد أشار بالحد والإقلال من اللعب والرياضة ، فكانت أمها تبقيها أحياناً فى الفراش ، وإذا اصطحبتها للخروج كانت تركب وإياها عربة بدلا من ترك الطفلة تسير على قدميها ، حتى ظن الجيران أن هذه البنت من المرضى ذوات العاهات . ومن ثم كان من الواضح أن الطفلة قد أدركت أنها تجتذب العطف وأنهم ينظرون إليها نظرة خاصة كلما استمسكت بعادة القىء .

ومع أن الأم كانت بوجه عام سيدة تتميز بالذكاء ورجاحة العقل ، فلم

تكن لتقوى على أن تغالب شغفها الشديد ، أو تمسك بزمام عاطفتها نحو ابنتها هذه ، فإذا ذهبت البنت إلى المدرسة رافقتها الأم إليها صباح كل يوم ، ثم عادت مرات خلال الفسح . حتى تعلم إذا كانت قد قاءت . ومع هذا فقد تعلمت الأم شيئاً فشيئاً أن تتجاهل تلك العادة إلى حد بعيد ، وأن تهيء لابنتها طريق الحياة السوية . حتى تحققت خلال عام واحد أن الطفلة قد تحسنت تحسناً كبيراً ، مع أنه كان ينتابها بين حين وحين نوبات من القيء .

لم يكن القيء فى هذه الحالة بالذات ، كما كان فى غيره من الحالات المماثلة . مشكلة تتصل بالتغذية اتصالا أساسيًّا ، بل كان على الأكثر جانباً من حيلة يصطنعها الطفل لاجتذاب الرعاية من أم تبالغ فى الشغف به ، وتسرف فى ذلك . فالمرض على اختلاف أنواعه وظروف إصابة الطفل به ، يهيء للطفل ميزات خاصة فى دائرة الأسرة . حتى إن كثيراً من الأطفال يشق عليهم أن يتخلوا عن المكانة الكبيرة التى كان المرض يهيئها لهم ، فإذا هم يتعلقون بعلتهم تعلقاً شديداً ، أو يستمسكون ببعض أعراضها التى تجدى عليهم فى الاحتفاظ بما يرضون من مكانة ورعاية . وسوف نعرض لهذا بتفاصيل أكثر فى الفصل الخاص بتغيرات الشخصية التى تعقب المرض .

ومع أن التقليد ليس سبباً من الأسباب الشائعة للقيء عند الأطفال ، إلا أنه من العوامل التى ينبغى النظر إليها . ذلك لأن الأفعال المنعكسة [1] . تصل فى توافقها عند بعض الأطفال المرهفى الحس إلى حد من الدقة لا يستطيعون معه ، عند رؤية غيرهم أو سماعهم يقيئون . إلا أن يقذفوا الطعام من أجوافهم . هذا إلى أنه قد يحصل بين الحين والحين من المواقف فى المنزل ما يكون عاملا مثيراً يبعث إلى قيء الطفل قيئاً أقرب إلى الدوام . مثل ما نرى فى حالة ج . . . .

---

(١) هى تلك الأفعال والحركات التى تصدر من الإنسان دون أن يتعمد إحداثها أو يستطيع منعها وهى فطرية تنفع فى احتفاظ الكائن بحياته . ومنها العطس والسعال وإفراز اللعاب . (المترجم)

هى طفلة تبلغ السادسة وتسعة أشهر . أحضرتها أمها إلى العيادة لقيئها المتواصل الذى بدأ منذ أربعة أسابيع قبل هذه الزيارة ، والبوال[1] الذى لازمها تقريباً منذ مولدها ، ولم يسبق أن جرب معها أى نظام يجدى فى دفعها إلى الإقلاع عن هذه العادة .

وهى طفلة خجول لا تتكلم إلا إذا وجه إليها الكلام حتى فى المدرسة . وكثيراً ما تحنى رأسها إذا خاطبتها المعلمة وتمتنع عن الرد على حديثها . وهى شديدة الأثرة والغيرة من الأطفال الآخرين . يبدو أنها تحب أفراد الأسرة جميعاً إلا أختها الصغيرة التى تشعر المريضة نحوها بعداء شديد جداً . وفى العيادة لاح عليها الغباء والبلادة ، وأحنت رأسها . ورفضت النظر إلى من كان يفحصها وتبين أن الثقة بالنفس كانت تعوزها عوزاً شديداً . ولم يبق منها أى اهتمام بما كان يحيط بها . حتى ليشعر المرء للحال أنه بإزاء مشكلة من مشكلات الضعف العقلى — وهى حقيقة أظهرتها الاختبارات والمقاييس السيكلوجية فيما بعد ، إذ كانت نسبة ذكائها ٦٤ ، مما يدل دلالة لا بأس بها على مدى استعدادها العقلى .

يقع المنزل فى حى فقير . وتعيش الأسرة فى شارع مكتظ ضيق كل الضيق فى شقة بها غرف ثلاث سيئة النظام . تنام الأم وصغرى الأطفال التى تبلغ من العمر عامين فى فراش واحد ، بينما ينام الوالد وتلك الطفلة وأختها الأخرى فى فراش آخر . وهم يقطنون هذا المسكن منذ خمس سنوات ، ومع أن حالهم كان ينم على فقر مدقع ، إلا أنه مع ذلك كان خيراً من حالهم لسنوات مضت ، حين كانوا يقيمون فى غرفة واحدة وأيام أن كان الوالد سكيراً ، وكانت الأم لا تبدى أى اهتمام أو أى رعاية لأطفالها ، هذا إلى ما كانوا ينوءون به من دين ثقيل .

---

(١) عدم القدرة على ضبط المثانة

لكن الوالد اليوم قد أقلع عن الخمر ، وزادت الأم اهتماماً بأمر أطفالها ، كما ذهب عبء الدين عنهم .

لم يكن من العسير أن يقف الطبيب على منشأ عادة القىء عند الطفلة ، إذ أن الأم ، بسبب الحمل ، كثيراً ما كانت تقىء فى الشهور القليلة الماضية فى حضور الطفلة . ورغم أنه من الصعب أن نحدد قدر ما يثيره التقليد وقدر ما يثيره رد الفعل الفسيولوجى عند رؤية شخص آخر يقىء ، فإنه حالما نبهنا الأم إلى ضرورة التزامها العزلة أثناء القىء ، وحين أفهمنا الطفلة — رغم غبائها — سخف الاستمساك بهذه العادة : لأنه من الحمق أن تواصل تناول الطعام ، وهى تواصل قذفه على وجه السرعة من جوفها ، لاح كأن المشكلة فى طريق الحل ، ووقف القىء تماماً فى ظرف أسبوعين اثنين .

وتبين من مواصلة البحث أن أختها التى تصغرها بعامين ، والتى تفوقها ذكاء كانت مصابة هى الأخرى بعادة البوال ليلا . فاتخذت للحال مع كلتا البنتين الأساليب المألوفة ، واستعمل « نظام اللوحة »[1] واستثيرت فى كل منهما المنافسة على أى منهما سوف تتفوق على الأخرى ، فكانت النتيجة فى كلتا الحالتين مرضية جدًّا فيما يتعلق بمشكلة البوال .

ومن الواضح أن مشكلات الضعف العقلى ، والغيرة ، والميل إلى الكفاح فى هاتين الطفلتين كانت أكثر أهمية من الأعراض التى عولجت وشفيت . غير أنه ينبغى من الناحية الأخرى أن نقيم للبيئة وزنها ، وأن نقدر الحدود التى يمكن أن يصل إليها التدريب فى مثل هذه الظروف .

وفى الوقت الذى كنت أكتب فيه هذا ، وفد على الأسرة طفل آخر فصار أبناؤها خمسة ، لا تتجاوز كبراهم السابعة من عمرها إلا قليلا . وقد اضطرت

---

(١) هى لوحة مبين عليها أيام الأسبوع ، وأمام كل يوم خانة تلصق بها نجمة إذا نجح الطفل فى القيام بما يطلب منه — انظر صفحة ٩٨ .

الأم إلى العمل فى تنظيف أحد المسارح ليلا ، فصارت تترك الدار فى منتصف الساعة الحادية عشرة ، وتعود مكدودة أنهكها التعب بعد ساعات ثمان . فتنام أكثر النهار . وأصبحت بذلك مثلا للأم التى لا تستطيع ، لما بها من عناء ، أن تؤدى سوى النزر اليسير مما يتطلبه أطفالها من رعاية وعناية ، وهى رغم ذلك جد راضية بما وصل إليه حالها وما زالت ابنتاها تزوران العيادة ، بين الحين والحَين ، لأن الأم تشعر أنهما تصيران أسهل قياداً يترددهما عليها أحياناً . وأكثر ما يسترعى الانتباه فى هذه الحالة ، هو أنها تبين أهمية التقليد فى نمو الأطفال العقلى ، كما تبين أن ضعاف العقول من الأطفال يستجيبون استجابة طيبة جداً لطرائق التدريب البسيطة .

وليس اجترار الطعام بعديم الشيوع خلال مرحلة الطفولة المبكرة . وكثيراً ما يلازم الطفل أشهراً عدة برغم الجهود التى تبذل لإصلاح هذه العادة . هذا إلى أن كثيراً من هؤلاء الأطفال لا يتعودون مص أصابعهم فحسب . بل ووضع قبضة أيديهم بأجمعها فى أفواههم . ويلتذون من هذا مثل التذاذهم بمص الأثداء الصناعية وما إليها ، لهذا ينبغى أن لا يُهز أولئك الأطفال الذين تعودوا إرجاع الطعام ، أو يؤرجحوا أو يحملوا على أى وجه من الوجوه عقب إطعامهم مباشرة . هذا إلى أنه ينبغى أن يصف أحد الأطباء ما يقدم إليهم من غذاء لا يساعد تركيبه على تأييد هذه العادة . كما ينبغى بالطبع ألا يعطوا ماء أثناء وجبات الطعام .

وهناك قلة من الأطفال يبدو أنهم يستمتعون باجترار الطعام وقذفه ، قدر استمتاعهم بإفراغ ما فى أجوافهم من بول أو غيره ؛ وهناك غيرهم ممن يشفقون ويهلعون من ذلك ، ولسنا فى حاجة إلى القول بأن هذه الفئة الأخيرة نادراً ما تتعود القىء أو تدمنه .

وليس من أمر أكبر أهمية فى تكوين العادات الحسنة فى تناول الطعام من

الحالة العقلية للطفل أثناء أوقات الأكل ، لهذا ينبغي أن نبذل كل جهد لبعث الهدوء والسرور فى نفسه ، وصرفه – ما أمكن ذلك – عن أى أمر آخر غير الطعام . لهــذا ينبغى تنبيه الطفل من قبل ، حتى يستطيع إتمام ما كان يقوم به ، وأن يستريح قليلا قبل إقباله على المائدة . إذ أنه لا يرجى أن ينصرف الطفل إلى الطعام إذا دعى إليه من لعبة أو مهمة شديدة التسلية ، قدر انصرافه إليه إذا كان الطعام هو العمل الوحيد الذى يشغل فكره عند تناوله . فإذا كان الطفل حانقاً أو ساخطاً أو شديد الانفعال كان من المحتمل أن يظهر عنده ضعف فى الشهية ولم يبعد أن يبدو الطعام كريهاً له .

ومن الخير ، قبل أن يتم تكوين آداب المائدة تكويناً طيباً ، أن يأكل الطفل وحيداً ، حتى يستطيع بدون حضور جمع من المتفرجين المهتمين به ، أن يتعلم كيف يتناول الطعام بنفسه ، فإذا سكبه أو نثر جانباً منه هنا وهناك – أثناء تعلمه هذا – لم يكن فى ذلك ضرر كبير . لأنه على هذا المنوال يكون أقل تعرضاً لتشتت الانتباه ، لا يبلبله منظر صنوف الطعام الذى يعد على المائدة لكبار الأسرة . فإذا جلست الأم برفقته لم يكن فى هذا من بأس ، على أن تشغل عنه جانباً من انتباهها بشىء من الحيلة أو المطالعة مثلا حتى يشعر الطفل عندئذ أن انتباهها لا ينصرف بأكمله إليه . لأنه ليس هناك ما يفسد جهود الآباء فى تكوين عادات الأكل الطيبة فى صغارهم أكثر من أن يدرك الطفل شدة الاهتمام الذى يبدو منهم فيما يتعلق بذلك . . فإذا ثار بنفسك القلق فلتخفيه ، فى الظاهر على الأقل ، واعتبرى وقت الطعام أمراً لطيفاً لكنه ناحية عابرة من النظام اليومى المألوف .

فإذا لم يستطع الصغير لسبب ما أن يتناول ما أمامه من طعام أو رفض تناوله فلا ينبغى إرغامه ، أو التحدث عن الأمر مع الآخرين فى حضوره . ومما يؤدى كثيراً إلى استثارة كراهية الطفل لصنف معين من أصناف الطعام أن نلح عليه فى تناوله عند أول مرة نقدمه إليه ، ومن المحتمل أن تشعر الأم بجانب

من الغيظ إذا عصيت أوامرها ، ولعلها تشعر — دون أى حق لها فى ذلك — بأنها إذا لم تدفع ابنها إلى تناول ما يوضع له على المائدة من أصناف الخضر لأول مرة، فإنهلن يتناوله ألبتة فيما بعد،لكن من أخطار هذه السياسة أن تؤدى إلى خلق جو مقبض لا يسر ، سوف يسترجعه الطفل على الدوام كلما رأى هذه الأصناف ويمنعه عن تناولها أو الميل إليها .

وللأناقة فى تقديم الطعام فضل كبير فى فتح الشهية ، فقد يجذب الطفل كثيراً أن يكون له مائدة صغيرة وأطباق خاصة ، أو أن يؤذن له بالجلوس مكان أمه إلى المائدة . ومن الخير أن يعرف الطفل أنه إذا تعلم كيف يأكل بهدوء وعلى منوال لائق ، أمكنه أن يجلس مع الكبار إلى المائدة ، فقد يدفعه ذلك إلى الجهاد فى سبيل إتقان آداب المائدة . ولا بأس من استشارة الصغير بين الحين والحين عما يفضل من ألوان الطعام ، على ألا يشعر ألبتة بأنه حر فى إملاء رغبته فيما يريد وما لا يريد . ولنعلمه أن بعض أصناف الغذاء لازمة له حتى ينمو ويصير كبيراً ضخماً كأبيه الذى هو مغرم به ، ولا داعى للإلحاح فى إرغامه بل يكفى إرشاده فى المرة الواحدة ، فلن يلحقه إلا ضرر تافه إذا فقد إحدى وجباته بين الحين والحين . وأن الطعام كله ليبدو للأطفال كريهاً فى بعض الأحيان دون سبب ظاهر ، كما أن مزاجهم العابر ، أحياناً أخرى ، قد يدفعهم إلى الاستمتاع بإثارة القلق والاضطراب والخشية فى نفوس أهليهم . فإذا كان الأمر كذلك ، وقال الصغير بعدم رغبته فى الطعام ، كان من الحكمة أن نوافقه وأن نجيبه بأنه إذا لم يكن جائعاً فليذهب إلى حيث يستطيع أن يلعب . وبذلك نستبعد كل مقاومة كان الصغير يأمل فى الكفاح ضدها ، فإذا كان رفضه موقفاً انفعاليًّا فحسب لم يكن من المحتمل أن يخاطر بإحدى وجبات طعامه فى المستقبل .

ولنذكر أن الأطفال سريعو التقليد . فإذا كانت جدته مثلا تتبع نظاماً

معيناً فى الأكل . فلا تتناول هذا أو ذاك ، أو إذا كان أبوه يصرح بما يجب وما لا يجب ، صار الطفل كفيلا بأن يظهر فى أكله أشكالامن التأفف والمفاضلة وإن يكن هذا قائماً بأكمله على التقليد . أما الصغير الذى يبكر فى أن يتعلم تناول طعامه فى شهية حسنة مهما كان نوعه ، فلسوف يتخلص بذلك من كثير من العناء والضيق فى مقبل حياته .

ومن اللازم بالطبع أن يكون طعام الطفل بسيطاً مغذياً سهل الهضم ، قد أجيد طبخه . وأن يقدم إليه بكميات صغيرة . أما الانتظام فى تقديم الطعام للطفل فأمر عظيم الأهمية ، لا للأسباب الفسيولوجية فحسب ، مثل تنظيم استقبال الطعام تنظيماً متعادلا حتى يستطيع الجهاز الهضمى أن يحسن القيام بعمله ، بل لأسباب أخرى كذلك ؛ فمن الواضح أن الطفل إذا عرف أن الغذاء فى متناوله كل ساعة من ساعات النهار ، لم يحفل كثيراً بتناوله فى أى موعد معين . ومن اللازم أن يفهم الصغار ، وأن يصر الآباء على أن الطفل إذا لم يأكل فى ميعاد تناول الطعام ، لم يستطع الحصول على شيء منه حتى ميعاد الوجبة التالية ؛ أى أنه ينبغى أن نعنى بمنع أى واحد من أفراد الأسرة الآخرين عن إطعامه بين الوجبات . أو إعطائه قرشاً يشترى به من الحلوى ما يستطيع أن يسد به جوعه بين الوجبة والوجبة . كذلك ينبغى ألا نستعجل الطفل أثناء الطعام وألا نترك له من الوقت ما يشجعه على العبث به ، إذ لا تتطلب أية وجبة عادية من الطفل أكثر من نصف ساعة فى الغالب . فإذا لم ينته منه خلال ذلك ، فليؤخذ الطعام من أمامه دون أى تعليق وليصرف عن المائدة .

ولنذكر مرة أخرى ، أن وقت الطعام لا ينبغى أن يكون فرصة ينتهزها الطفل للظهور بمظهر الفرد ذى الأهمية الممتازة .

الفصل الخامس

النوم

النوم من أعظم الأمور أهمية فى حياة الطفل العقلية والبدنية ، وخاصة أثناء السنوات الثلاث الأولى . وقد هيأت الطبيعة ، بعملية النوم الفسيولوجية ، الطفل للاحتفاظ بطاقته ونشاطه ، حتى يستطيع أن يحسن سد المطالب التى يستلزمها ما يجرى من نمو هائل فى بدنه وعقله .

بعد أن أبرز « جيزل » السرعة التى ينمو بها الدماغ حتى يصل تقريباً إلى حجمه الكامل قبل سن السادسة ، وبعد أن ذكر عن « دونلدسون » قوله بأن لحاء المخ يصل إلى سمكه الكامل حوالى الشهر الخامس من العمر ، ذهب إلى القول بأن « الطفل فى سنواته الأولى يتعلم كيف يبصر ويسمع ويمسك ويمشى ويفهم ويتكلم . وهو يتخذ عدداً لا حصر له من العادات التى يستلزمها فن الحياة المعقد . ولن يتقدم ألبتة عقله وخلقه ونفسه بقدر السرعة التى يتقدم بها خلال فترة نموه وتكوينه فى السنين التى تسبق دخوله المدرسة . ولن تتاح لنا الفرصة مرة أخرى لوضع الأسس التى تقوم عليها صحته العقلية »[1] .

والنوم أهم ما يشغل الطفل خلال الشهور الستة الأولى . وهو ينام فى الواقع كل وقته أثناء الأسابيع القليلة الأولى ، إذ يبلغ ذلك من عشرين إلى اثنتين وعشرين ساعة فى اليوم الواحد . ولا يصحو كما يقول الدكتور هولت[2] إلا بتأثير الجوع أو عدم الراحة أو الألم . وعنـــد نهاية الأشهر الستة ، قد تنقص

(١) A. Gesell : *The Mental Growth of the Pre-School Child* p. 11 (New York. 1925)

(٢) olt & HowlHand : *The Diseases of Infancy & Childhood*, p. 6 (New York, 1922)

ساعات النوم الفعلية إلى ست عشرة ساعة أو أقل ، ويكون هذا النقص تدريجاً حتى سن الرابعة ؛ حين يرجح أن تكون اثنتا عشرة ساعة كافية للإبقاء على صحته البدنية . وتتصل عادات النوم الطيبة صلة وثيقة بانتظام التغذية ، واضطراب النوم أو التغذية كفيل بأن يبعث الاضطراب فى الآخر .

ويمكن أن تغرس العادات الطيبة الخاصة بالنوم بدون صعوبة فى البيوت العادية . غير أن أولئك الذين يعرفون عن كثب ظروف الأسر الفقيرة ، يقدرون مدى الصعوبة التى تقف دون تدبير الطرق والوسائل التى تلزم لتهيئة الأمكنة المناسبة لنوم ستة أطفال أو ثمانية وأمهم وأبيهم فى مسكن صغير ضيق . ولا يمكن علاج مثل هذه الظروف بتحسين تنشئة الصغار وغرس العادات الحسنة . فهى مشكلات اجتماعية كبيرة تتطلب اهتمام الهيئات الاجتماعية والحكومية . ونحن نفرض فى هذا الفصل أن ظروف البيئة المنزلية تسمح بإعداد مكان مناسب للطفل ، وسوف نقصر أنفسنا على التعرض للعوامل التى يمكن أن تخضع لتصرف الوالدين .

وفى سبيل صحة الطفل البدنية والعقلية يلزم لزوماً أساسيًّا أن تكون حياته رتيبة محكمة النظام . ولا يمكن غرس العادات المنتظمة ، إلا إذا عرف الطفل بالخبرة أن عليه أن يفعل عين الشىء يوميًّا فى وقت خاص . ولا يمكن أن نحيد به عن هذا المنهج المرسوم إلا بعد أن تكون العادة قد استقرت عنده استقراراً مكيناً ؛ بل إنا عندئذ لنتعرض لجانب ما من الخطورة ، إذا سمحنا بالاستثناء ، لأن كل نشوز عن المنوال المألوف تلازمه ألوان جديدة من الميل والإشباع الوجدانى ؛ وهذه هى فى نفسها القوى الدافعة لكل عادة جديدة ، فكأننا بهذا الاستثناء نقيم عادة الخروج على النظام .

وقد قرر الدكتور هولت بما له من خبرة واسعة « أنه ينبغى البدء بغرس عادات النوم الطيبة منذ المولد ، إذ ينبغى أن يألف الطفل منذ مطلع حياته أن

يوضع فى مهده أثناء صحوه ، وأن ينام دون أن يعينه أحد على ذلك . ولا ضرورة إلى أرجحته أو إلى غرس العادات الأخرى من هذا النوع لأن فى هذا أذى له . كما لا ينبغى أن يترك الطفل ينام على ثدى مرضعته أو بحلمة الزجاجة فى فمه . ومما يؤذى الطفل إيذاء لا شك فيه كل الطرق الأخرى لبعثه إلى النوم ، كإعطائه حلمة من المطاط يمصها ، ذلك لأنا إذا لجأنا إلى مثل هذه الوسائل تعود الطفل أن لا ينام بدونها »[1] .

أما ساعات النوم والاستيقاظ ، وكذلك أوقات القيلولة وما إليها ، فلا بد أن تحدد تحديداً حازماً لا يتغير . وكثيراً ما يميل الأهل إلى تأخير موعد نوم الطفل أو تقديمه قليلا وفقاً لما يناسبهم ، أو هم قد يرغبون فى عرض الطفل على أصدقاء لهم مدعوين لتناول العشاء بينما ينبغى أن يكون هو فى فراشه قبل ذلك بوقت طويل . أو لعل إحدي الزائرات تفد والصغير مستغرق فى نومه « لكنها تكاد تجن لرؤية « فيفى » قبل أن تروح إلى دارها » مع أن المسكين يكون فى أحلى نومه . ذلك كله لأنا نحن الكبار لا نعبأ إلا قليلا جداً بحياة الطفل الخاصة ولهذا نخرق حرمتها على الدوام دون إدراك منا لذلك أو اهتمام بها .

وطبيعى جداً أن يشكو الطفل أحياناً إذا ألزمناه بترك لعبة يلهو بها أو موقف يعجب به وأمرناه بالاعتكاف وحيداً فى حجرة نومه . ورغم هذا فإنه لن يمضى وقت طويل حتى يعرف الطفل أن هذه الشكاوى لا تجدى شيئاً فى التأثير على حزم والديه . كما أنه لن يتوانى عن استخدام الدموع أو الصراخ إذا كانت خبرته السابقة قد علمته أن ذلك يجديه فى تنفيذ أغراضه ، فكثير من الأطفال منذ وقت مبكر يسبقون أهلهم فى التماس الطرق والوسائل لتنفيذ أغراضهم . فالأم التى تبدأ بهدهدة طفلها « الزنّان » عند النوم ثم ينتهى بها الأمر إلى أرجحته حتى ينعس ، أو إلى الرقاد بجانبه ، قد تشعر أن هذا حنان

---

(١) Hole & Howland : Op. cit. p. 6

عليه وشفقة به ؛ غير أنها بذلك فى الواقع تضع أساس كثير من المصاعب فى المستقبل لنفسها ولطفلها معاً . ذلك لأن الطفل إذا عجز عن البقاء مع الكبار ، انتوى أن يلجأ إلى خير الحلول عقب ذلك ، بإلزامهم البقاء إلى جانبه أينما أمروه أن يذهب .

ويلزم أن نضيف أمراً آخر . هو أنه لا بد من أن يثبت فى ذهن الطفل أن فترة النوم هى الوقت الذى ينبغى أن يبقى فيه وحيداً ؛ وأن وجود من يصاحبه أو ما يسايه كالكتب والألعاب لا يتفق والنوم ؛ وأنه لا يستطيع الحصول على هذه الأشياء إذا لجأ إلى الصياح والعويل . فالأم التى تشكو من بقاء طفلها صاحياً ساعات بعد ذهابه إلى الفراش، دائماً ما تخبرنا أيضاً بطلباته المتوالية منها – كوب من الماء ، أو إغلاق نافذة ، أو « أريد الذهاب إلى دورة المياه » أو « أريد أن أخبرك بأمر ما » – وما إلى ذلك مما يود به استرعاء انتباهها . وغالباً ما يكون هذا الموقف الذى يقفه الطفل إزاء أمه بالليل ، مناقضاً لموقفه بالنهار وما فيه من روح الجرأة والإقدام .

م . . . صبى لطيف جذاب فى الخامسة من عمره يدلله والده ، وقد عرف الطفل كيف ينفذ رغباته ، ويجتذب انتباه من حوله ، وكثيراً ما يلجأ إلى كلا الأمرين . ويبدو أنه لا يخاف شيئاً خلال النهار ، فهو يقدم على الخروج من البيت ، يجوس خلال الأماكن المزدحمة ، ويعبر شوارع المدينة وينساب خلالها دون أن لا يبالى بالسيارات أو العربات .

أما أثناء الليل فله شأن آخر . فهو يطلب أن ينام بجوار أمه ، وأن تترك الأنوار مضاءة . ويود أن يؤكدوا له أنه لن يترك وحيداً وأن يأمن بصفة عامة على سلامته الشخصية . فإذا وفد عليه النعاس أخذ يتقلب ويتحرك ويتحدث فى نومه ، ثم يستيقظ مذعوراً . ولسنا ندرى شيئاً عن محتوى أحلامه ، غير أنا نعرف أن أباه قد استخدم تخويفه طريقة لإرغامه على الطاعة . ويظهر أن أشد

ما أثر عليه هو « العفريت » ، إذ من المعقول أن تكون تلك الأمور الوهمية المخيفة ، مثل « العفريت الذى يخطف الأولاد البطالين » هى أقوى ما يؤثر فى الأطفال ، لأنهم إذا كانوا سريعاً ما يعرفون ، كما عرف هذا الطفل ، أن ليس هناك من حقيقة للقول بأن العسكرى سوف يمسك بهم ، فإنهم لا يستطيعون التخلص من قصة العفريت . والحق أن من أشد المظالم قسوة أن نلجأ إلى مثل هذه التهديدات لضبط قيادة الأطفال . بل إن أرق الطفل بالليل يزيده عصياناً وعناداً ، كما أن أساليب العنف والتخويف فى إصلاح السلوك المعوج تزيد بدورها أرق الطفل وأحلامه المخيفة . هكذا استمرت هذه الدائرة المفرغة حتى تعاون الوالدان على وضع برنامج جديد لتدبير أمر الطفل كما لو كانا قد تعاونا على مواجهة ميزانية الدار تماماً . وعزما على أن يلتمسا حل كل المسائل الخاصة فيما بينهما ، وأن يتجنبا الحديث عنها ألبتة أمام الطفل ، وأن لا يلجأ أحد منهما إلى تخويفه فى أى ظرف من الظروف . وأن يعملا على التغلب على مخاوفه الحالية . واستقر الرأى على أن يخصص للطفل فراش خاص به . وأن يقل لديه النور على أن يفطم منه قليلا قليلا ، ووضعت له خطة للعب خارج المنزل ، وأشرنا بما ينبغى له من الرياضة والأكل . وتقرر أن يواصل الصغير تردده على العيادة للعلاج ، وأن تتردد أمه عليها أيضاً لتلقى ما ينبغى لها من معرفة بطرق تنشئة الأطفال .

وإذا استراح الطفل لفترة قصيرة راحة تامة من أى نوع من الحركة البدنية أو النشاط العقلى قبل ذهابه مباشرة إلى الفراش ، كان ذلك عوناً كبيراً للطفل يبعث النوم إليه عقب رقاده . أما اللعب المتواصل حتى ميعاد الاعتكاف ، أو الإنصات إلى حكاية مثيرة ، أو إلى الراديو ، فهو غالباً ما يكون سبباً لساعات طويلة من الصحو وعدم الاستقرار فى الفراش . فإن القصة المثيرة فى حجرة الجلوس كثيراً ما تكون أمراً مخيفاً فى خيال الطفل إذا وجد نفسه فى حجرة النوم

الهادئة التى ينتشر فيها الظلام .

وكثيراً ما يشعر الأطفال بقلق بالغ من خداعهم فيما يتعلق بخروج والديهم من الدار بعد أن يكونوا هم قد ذهبوا إلى الفراش . إذ قد يظن البعض أن من الشفقة بالغير أن يؤكدوا له أن بابا وماما على مقربة منه فى الحجرة المجاورة ثم يسترقون الخطى إلى الخارج بعد أن ينام الطفل . وليس لهذا الضرب من الخداع أضرار ككل أنواع الخداع الأخرى فحسب ، بل إنه قد يكون أيضاً من العوامل الهامة فى إثارة الأرق كثيراً من الليالى ، لسنوات طوال .

فإذا كان من اللازم أن يخرج الوالدان من المنزل بعد أن ينام الطفل فمن الخير أن يلتزما الأمانة فى إخباره بما سوف يحصل . وقد يكون فى هذا بعض الصعوبة على الوالدين فى بادئ الأمر غير أن ذلك سوف يكون فى نهاية الأمر أكثر يسراً للجميع .

ويخشى كثرة الأطفال ، من حين إلى حين خلال سنواتهم الأولى ، إذا خرج أهلهم أن يتركوهم وحدهم ثم لايعودون ، أو أن يتخلصوا منهم . وتزيد تلك الأشكال من الخداع هذا النوع من الخوف الذى يتردد فى نفوس الأطفال .

ومنذ عهد قريب قال صبى فى الثامنة من عمره لمعلمته بعد أن وبخته على تمدده ورقاده على درجه « أنا تعبان جداً ، لم أكد أقفل عينى طول الليل » . ويغلب أن تصدر مثل هذه العبارات من الأطفال الذين يفدون من العائلات التى ينصرف حديثها إلى النوم والمرض والحالة العامة للصحة . فلا يقتصر الطفل على تقاليد أحاديث الكبار عن هذه الأمور . بل هو غالباً ما يستخدم عين المعاذير للتخلص من الواجبات الثقيلة التى يطالب بأدائها .

ومن أشد الأمور عسراً أن نتغلب على هذه الحالة العقلية التى تدفع الشخص الكبير إلى الإغراق فى القلق على صحته والخشية مما قد يعرض لها ؛ فإذا كان هذا أمراً لازمه منذ سنوات عدة وتأصلت فى نفسه هذه العادة تأصلا بليغاً ، كان من

اللازم أن نعلم الطفل تجاهل تلك الأحاديث ، غير أنا لا بد أن نحاول دفع الأهل إلى التغلب على هذه العادة ما استطاعوا ذلك .

وهناك اختلاف كبير فى حساسية الأطفال الفطرية إزاء الصوت والضوء والحرارة والبرودة وألوان الغذاء والمواقف الانفعالية ، بل كل مثير فى الواقع داخلياً كان أم خارجياً يؤثر على الجهـــاز العصبى . ومع هذا فإن الطفل العادى إذا أحسن تدريبه وتعويده على ساعات منتظمة للنوم والطعام ، وإذا كانت عمليات الإخراج عنده تسير سيراً سوياً ، وإذا كان نظام حياته العام لا يعتمد على أهواء الكبار ، لم يعد فى حاجة إلى أى لون من ألوان الحماية فى مكان نومه . ذلك لأنه ليس من العسير على الطفل فى الواقع أن يتخذ من العادات ما يهيئه للاستغراق فى النوم برغم الأصوات أو الأنوار وغيرها من العوامل . فإن القدرة على التغلب على مثل هذه المؤثرات التى تجذب انتباه المرء عادة أثناء صحوه أو نومه ، إن هى إلا أمر يمكن اكتسابه بالخبرة إذا تكررت مرة بعد أخرى . وتقرب هذه القدرة من موقف المطابقة السلبية التى يتخذها من يقومون بالاختزال فى غرفة تعج بنقيق الآلات الكاتبة وضجتها المتوالية ، إذ هم سرعان ما يتعلمون التفرغ إلى عملهم وقد انصرف ذهنهم تماماً عما يدور حولهم .

وعلى هذا فليس من الخير أن نحمى الطفل من كل أمر قد يؤدى إلى إزعاج نومه ، بل الواقع أنه من الأنفع له أن يتعلم النوم خلال سنواته الأولى فى ما يمكن أن يسمى بالظروف غير المناسبة . فإن الاحتياطات الزائدة التى يتخذها كثير جداً من الآباء لتهيئة أحسن الظروف للطفل ، قد تكون فى نفسها العامل الأساسى الذى يسبب زيادة حساسيته وشدة إرهافها فى مقبل أيامه .

ومع ذلك ينبغى أن نلتزم بعض العوامل الهامة الأخرى . إذ ينبغى على الدوام أن ينام الطفل وحيداً بعد السنة الثانية من عمره كلما أمكن ذلك ، فلا ينام مع الكبار ألبتة أو فى حجرة نومهم . وكثيراً ما تدعو الظروف إلى ضرورة

نوم طفلين معاً خلال السنوات الأولى ، ولا يمكن التساهل فى السماح بذلك إلا إذا كان الطفلان من جنس واحد .

وينبغى أن يكون الطفل السليم مستغرقاً فى نومه عقب ذهابه إلى الفراش بعشرين دقيقة أو ثلاثين ، وأن يترك فراشه مباشرة عقب استيقاظه . فإذا كان الطفل يصحو عادة قبل أن يستيقظ الكبار فى المنزل ، لزم أن يدبر له ضرب من ضروب التسلية يلهو به فى فراشه ، إذ الغالب أن تبدأ العادات السرية خلال هذه الفترات التى يفرغ فيها إلى نفسه .

وينبغى أن تعتبر القيلولة جزءاً مهمًّا من دستور الطفل حتى السنة الخامسة ، وإلى ما بعدها إذا أمكن الإبقاء عليها . ذلك لأن التعب من أهم العوامل التى تسبب الخصائص العصابية فى الأطفال ، فالطفل المتعب يغلب عليه أن يكون كثير الغضب والسخط ، أنانيًّا ، كثير التأفف من الطعام ؛ قليل الرضا بوجه عام . وغالباً ما يتبع هذا كثير من أعراض الاضطراب العصبى الخطيرة مثل الرُّتة[١] وتقلص العضلات الذى يشبه مرض الاهتزاز[٢] . وقد يصدر عن الطفل خلال نومه ما يدل على الاضطراب البدنى أو العقلى ؛ وكثيراً ما يجتمع الاثنان معاً ، فالتقلب والتململ وصرف الأسنان ومص الشفاه والمشى والكلام خلال النوم . كل ذلك من العلامات التى تبين أن الطفل لا يحصل على ما ينبغى له من راحـــة . ويعود جانب كبير من هذه الحركات إلى اضطراب

---

(١) Stuttering « حبسة فى اللسان ، هى كالريح تمنع الكلام ، فإذا جاء شىء منه اتصل ، وقيل إذا عرضت للشخص تتردد كلمته ويسبقه نفسه ، وقيل يدغم فى غير موضع الإدغام . يقال منه رت رتتاً من باب تعب ، ورجل أرت وامرأة رتاء والجمع رت مثل أحمر وحمراء وحمر » (المصباح) . والتأتأة والفأفأة بعض الرتة .

(٢) Chorea وهو مرض عصبى يتميز بنتشات تقلصية وحركات مضطربة مفاجئة ، ويسمى أيضاً « رقص سان فيتاس » ، وأغلب إصاباته تقع فيما بين سن الخامسة والخامسة عشرة ويصيب البنات أكثر من الصبيان ، وتزيد الإصابات به فى شهور الربيع والصيف ، ويستغرق المرض فى المتوسط ما بين شهرين وثلاثة . (المترجم)

العمليات الفسيولوجية ، ومما نشير به أن يفحص الطفل فحصاً طبيًّا دقيقاً لتعيين ما قد يكون مصاباً به من عسر الهضم أو إمساك أو أمراض يسيرة أو اضطراب فى بعض الغدد الصماء أو ديدان أو التهابات موضعية . ومن العوامل التى قد تسبب الأرق تخليط الطعام وكثرة الأغطية وتكدس الملابس وقلة التهوية ورغم أن العوامل البدنية أو المادية السابقة تعمل على خفض عتبة الشعور [١] ، فإنه إذا لم يكن هناك أى أمر فى لا شعور الطفل يسعى إلى الظهور ، كان فى تلك العوامل مادة تدور حولها الأحلام والتى تسبب الاضطراب العقلى أو البدنى خلال النوم .

أما الانفعالات التى ينجح كبتها [٢] فى ساعات الصحو فقد تظهر خلال النوم كما يتبين لنا من الحالة الآتية :

د . . . طفلة لا تبلغ سوى الرابعة من عمرها ، فرض عليها أن تواجه موقفاً من أصعب المواقف فى الحياة ، إذا حل مكانها أخت أصغر منها . فلما ولدت هذه منذ عامين صارت محوراً لانتباه كل من فى الدار دون شعور منهم بذلك ، ثم أصبحت على مر الزمن صاحبة الحظوة لدى الأسرة . لكن د . . . واجهت هذا الموقف الجديد و وفقت فى ذلك . وكانت طفلة شديدة قوية ،

---

(١) من الحقائق الأساسية فى علم النفس وعلم وظائف الأعضاء أيضاً أن مثير أية حاسة من الحواس لابد أن تكون له قوة معينة حتى يمكن إدراكه أو يؤدى إلى استجابة من الاستجابات . وهذا ما يسمى بعتبة الشعور ، وهى تختلف باختلاف الأفراد ، وتختلف فى الفرد الواحد تبعاً للتعب والتمرين وغير ذلك من الأسباب المعروفة والمجهولة ، ويقصد هنا بخفض عتبة الشعور زيادة حاسية الإنسان للمؤثرات المختلفة . (المترجم)

(٢) من المعروف الشائع اليوم أن الشعور ليس سوى جزء يسير من الحياة النفسية ، وأن الجانب الأكبر منها قائم فى اللاشعور حيث توجد الميول الفطرية البدائية عاملة نشيطة ، توجه السلوك وتؤثر فى وجود الحياة جميعاً . والكبت Repression هو عملية دفع الميول والأفكار المؤلمة أو التى لا تتوافق وأوضاع المجتمع من الشعور ووأدها فى اللاشعور . على أنها رغم بقائها فى أعماق النفس تظل حية لا يخمد لها نشاط ، وهى تحاول الظهور أبداً عن طريق مباشر أو غير مباشر فتظهر فى فلتات اللسان والأحلام وغير ذلك . (المترجم)

أقرب إلى حب السيطرة ، لكنها حسنة العلاقات مع غيرها من الأطفال ، تفيض بالسعادة عادة ، وهى عطوفة مطيعة كثيرة العون فى المنزل . وكانت تأخذها الجرأة فى بعض الأحيان ولا يهمها مدح أو ذم . أما أختها الصغرى فكانت على النقيض تستبق التأنيب والعقاب ، وكثيراً ما تتخلص منهما ببعض الدموع السخينة تجريها على وجناتها الصغيرة . وكانت د . . . لا تستقر ليلا فكان من العسير عليها أن تظفر بالنوم ، فإذا نامت استيقظت من النوم عدة مرات ، وقالت إنها هالعة وطلبت أمها كى تهدئ من روعها . فإذا أتت بدا عليها الهدوء، وذهب عنها الخوف . وقد انقطع الأرق ليلا ، وذهبت المخاوف بعد أن عدل أفراد الأسرة موقفهم إزاء الطفلة ، وصاروا يبذلون لها من الوقت والعناية جانباً أكبر مما كانوا يبذلون . الأمر الذى يدفعنا إلى الظن بأن ذلك النوم المضطرب لم يكن سوى وسيلة تصطنعها الصغيرة لاجتذاب الانتباه الذى كان ينقصها خلال النهار . وليس الكلام أو المشى أثناء النوم سوى رد فعل على أحد الأحلام القوية التى كثيراً ما تقمع فيمر الطفل مرة أخرى بحادثة أو خبرة وقعت له بالفعل . وليس من غير المألوف من ولد اشترك فى لعب حام للكرة عصر أحد الأيام أن يؤدى جانباً من اللعبة أداء حيًّا خلال نومه تلك الليلة نفسها . بل إنه ليبدو فى إشاراته بالليل كل الانفعالات التى كانت تثور بنفسه فى الحياة الواقعية ، حتى إنه لقد يجرى على لسانه من الشتائم ما كان يوجهه إلى أحد اللاعبين ردًّا على شراسته كما كان يفعل أثناء اللعب ، وإذا بأمه قد حزنت وروعت من أن تجد ولدها وقد أسف هذا الإسفاف وتعلم تلك البذاءة ، على أن الأمر لا يكون غريباً على أبيه أو بعيداً عن مألوفه تمام البعد .

وأحلام الأطفال فى الغالب تعبير صريح عن رغباتهم التى لم تتحقق ، مثل ذلك أحد الصبيان الذى لم يكن يميل إلى الألعاب الرياضية ، لكنه كان يتوق إلى بعض المجد والفخار الذى كان يفيض على من يتقنونها ، فتكررت الأحلام

التى كان يجد فيها نفسه يقوم بألعاب عجيبة على أرض الملعب والجماهير تصفق له وتهتف . وهذه الأحلام تبعث السرور فى نفس الطفل ، وهو كفيل جدًّا بأن يقيم عليها أموراً كثيرة وأن يتحدث أحياناً عن الحلم كأنه خبرة قد مرت به فى الواقع . أما تجوال النوم فهو يرتبط بالأحلام التى تكون مشبعة بالانفعالات الشديدة كالخوف عادة ، والحزن أحياناً. بدأ أحد الأولاد الذى كان يحب أباه ، حبًّا شديداً ، يتجول أثناء نومه ، عقب وفاة أبيه مباشرة. فكان يقوم ويلبس ويغتسل ويفتح الأبواب ، ويسير مسافة ميلين إلى قبر أبيه حيث يجثو ويصلى ، ثم يعود إلى المنزل ويذهب إلى الفراش . ويقل شيوع أحلام الخوف فى الصغار عنه بين الكبار ، لأن الأطفال فى العادة خلال صحوهم لا يحاولون كبت ما يستشعرونه من خوف ، بينما الكبار لا يقتصرون على كبت مخاوفهم بل ينكرون التسليم بوجودها حتى لأنفسهم . وإذا وفدت الأحلام المزعجة على الأطفال فلا ينبغى أن يتاح لهم فحسب أن يتحدثوا عن مخاوفهم مع آبائهم ، بل ينبغى أن يبذل الوالدان كل جهد للوقوف على كنه تلك المخاوف وما يثيرها . ويستطيع الآباء أن يقوموا بدور هام فى منع المخاوف من التأثير تأثيراً بالغاً فى حياة أبنائهم . هذه المخاوف إذا استقرت بنفس الطفل ، كان من الخير أن يتصرف فيها الطبيب الذى يعرف علاج مثل هذه المشكلات . ويحاول الآباء أحياناً ، ظنًّا منهم بأن تجوال النوم شكل من أشكال الأمراض العقلية ، أن يبقوا الأمر سرًّا مكتوماً ؛ ويؤدى هذا بالطفل إلى المبالغة فى أهمية ذلك ، حتى يشعر هو أيضاً أن الأمر لا يدعو إلى الخجل منه فحسب ، بل إنه إلى ذلك مسئول عن الوقوع فيه . رأينا أخيراً إحدى طالبات المدارس العالية ، وكانت فى حالة شديدة من القلق ، إذ كانت تخشى أن يقف أحد على أنها كانت تسير أحياناً أثناء نومها . وليس بنا من حاجة إلى القول بأن هذه الخشية كانت تزيد حاجتها إلى كبت مخاوفها التى كانت السبب فى قيام هذه المشكلة . على أنها انتفعت

كثيراً ، خفَّت المشكلة حين استطاعت أن تدرك أصلها إدراكاً صحيحاً .

ولا تطول المدة التى تفد فيها هذه الأشكال المختلفة من النشاط أثناء النوم . وإذا تصرف الآباء بإزائها تصرفاً سليماً ، لم تصبح مبعثاً لأى خشية أو خطر . على أن موقف الآباء مع ذلك إذا دفع بالصغير إلى زيادة كبت مخاوفه استمرت تلك المشكلة إلى أن يشاء الله .

وقيمة النوم للأطفال أمر لا يمكن إيفاؤه حقه . ذلك لأن عمل أجهـــزة البدن المختلفة ، وما نسميه بحالة الصحة — وما فيها من جلاء العقل واتزان الانفعالات — يمكن أن تضطرب جميعها إذا اضطرب نوم المرء . ولو غرسنا فى نفسه ما ينبغى من العادات الطيبة فى صدر حياته ، لأمكن أن نجنبه بذلك كثيراً من الاضطراب والقلق والهلع الذى يربط بالأرق فى حياته المقبلة .

الفصل السادس

البوال[1]

نود قبل الحديث عن هذه المشكلة أن نؤكد أهمية الفحص الطبي الدقيق حتى نستبعد الأسباب الجسمانية للبوال كلما أمكن ذلك . وفى إهمال هذا التحذير خطر جسيم ، لأن علاج الطفل المصاب فى جهازه البولى بمرض قد يسبب البوال ، ظناً منا أن علة ذلك هى الإخفاق فى تدريبه على العادات الصحيحة ، إنما هو كارثة تنزل به ، لأننا بذلك نحرم الطفل من العلاج الطبى والجراحى الذى يخفف عنه ، وقد يؤدى ذلك إلى تعريض حياته للخطر . ومن الواضح ألا جدوى فى مطالبة الطفل أن يقاوم أمراً فوق قدرته ، إذ أن هناك كثيراً من الحالات البدنية الصغرى التى تسبب البوال — مثل المهيجات المحلية فى المنطقة التناسلية كالالتهابات وضيق المخارج وديدان الشرج وما إلى ذلك — مما يعجز الطفل عن احتماله أو السيطرة عليه . وكثيراً ما يرتبط البوال بوجود البول الحمضى المركز وخاصة إذا كانت كمية السوائل التى يتناولها غير كافية . كذلك مما قد يسبب البوال : فقر الدم وسوء التغذية واضطراب الجهاز العصبى ، وينبغى أن تلقى هذه العلل ما يجب لها من علاج . ومع أن كثيراً من حالات البوال يرجع إلى الأسباب العضوية ، إلا أن حالات أخرى كثيرة تنتج من تكوين العادات السيئة فقط . وإلى ذلك يجب أن نذكر أبداً أن عادة البوال قد تستمر حتى بعد الوقوف على سببها البدنى وعلاجه .

---

(١) البوال Enuresis هو عدم القدرة على ضبط المثانة وحقن البول، اشتق من لفظ البول دلالة على المرض ، وقد ورد « أخذه بوال أى كثرة بول » (الصحاح) .

وقد تظهر عادة البوال في الليل أو النهار أو في كليهما . وهي تظهر في بعض الحالات بالليل فقط وفي أخرى نهاراً فقط . وهي تصيب الجنسين على السواء تقريباً . وقد يبلغ بعض الأطفال سن السادسة أو السابعة بل أكثر من ذلك في بعض الحالات ، دون أن يتغلبوا على عادة البوال ، التي لا تعتبر شذوذاً في الطفولة المبكرة ، على أن هناك من الأطفال من يعتادون ضبط المثانة قبل إتمام السنة الثانية من عمرهم ، ثم يعتادون البوال بعد هذه السن فلا يلازمهم سوى أيام أو قد يلازمهم أمداً غير محدود .

ويقول الدكتور هولت « إن البوال في أكثر الحالات ما هو إلا عادة متصلة على الأغلب بعادات أخرى تدل على أن بجهاز الطفل العصبي عدم استقرار أو حساسية بالغة »[1] وهذه هي الحالات التي تسترعي انتباهنا ، إذ يرجع الخطأ في أغلب الحالات التي لم يتخذ الطفل فيها ما ينبغي من العادات الطيبة حتى سن الثانية والنصف ، يرجع هذا الخطأ مباشرة إلى أبويه . إذ يكونان قد عجزا عن تكوين عادة حقن[2] البول . وقد يعود ذلك إلى جهلهما أهمية تكوين العادات . لكن الأمر يعود على الأكثر إلى عدم المبالاة أو الكسل الذي يخيل إلى الآباء أن رقابة الطفل والعمل على إنهاضه في الأوقات غير المناسبة ، مهمة شاقة يهملونها فيتعود الطفل على بل ملابسه . وفوق هذا كله فإن الآباء كثيراً ما ينسبون مشكلة الطفل إلى الوراثة . ويقولون إنهم ، هم أيضاً ، كانوا مصابين بعين المشكلة حتى الطفولة المتأخرة أو حتى مطالع البلوغ ، وأنهم في كل بساطة ينتظرون أن يكبر الطفل فيصل إلى السن التي يتغلب فيها على هذه العادة كما فعلوا هم من قبل .

وسوف نؤكد في فصل مقبل أن الآباء يميلون إلى اتخاذ خبرتهم التي

---

(١) Holt & Howland : *The Diseases of Infancy & Childhood*, p. 665.

(٢) حقن دمه منع أن يسفك ، وحقن بوله ، وبابه نصر .

يذكرونها عن أيام طفولتهم هادياً يرشدهم إلى ما ينبغى أن ينتظروه فى أبنائهم . ومن عثار الجد أن كثيراً من الذكريات التى تبقى فى الشعور وتنتقل إلى حياة الكبر تكون مثقلة محملة بالانفعالات السارة أو غير السارة . فإذا كان أحد الأبوين قد لقى من جراء بواله ما لقى من الخجل والذلة والعقاب والهلع على أيدى أولئك الذين كانوا يعملون على استئصال تلك العادة فيه ، كان الأرجح أن يبدو من الأب أو الأم حنان بالغ بإزاء أطفالها إذا لحقتهم عين المشكلة . ذلك لأن خشية الأم من أن تنزل بطفلها عين الخبرة الانفعالية التى قاستها هى فى طفولتها كثيراً ما تكون هى السبب الحقيقى الذى يدفعها إلى تبرير البوال بالأسباب الجسمية دون أن يكون ذلك صحيحاً ، وتكون هى السبب فى استمساكها استمساكاً شديداً بخطتها التى تقوم على ترك الطفل وشأنه حتى « يكبر » .

ولو أنه كان صحيحاً أن الخوف والذلة والعقاب أمور لازمة للعلاج ، لكان للآباء كل الحق فى تجنبها جميعاً ، غير أن هذه الأمور لحسن الحظ لا تجدى فى العلاج فتيلا . والواقع أن أهم مظاهر العلاج هو منع الطفل من الشعور بالقصور [1] الذى تؤدى إليه تلك العادة .

وفى علاج البوال يصحب تقدم الحالة تحسن عام فى سلوك الطفل يدفع المرء إلى الإيمان بأن الشعور بالقصور والخزى الذى يلازم البوال ، فى أغلب الحالات كثيراً ما يصبغ حياة الطفل العقلية بأكملها . ومن ثم كان من المهم عملياً فى علاج المشكلات العقلية فى الأطفال ، إذا كان البوال واحداً من أعراضها ، أن نبكر فى علاج البوال ما أمكن التبكير .

ومع أنه كان من المحال فى حالة الطفلة التى سوف نعرضها فيما يلى أن نحدد العلة الكامنة لهلعها فى فترات الصحو ، فإنه من الطريف أن نلفت النظر إلى أن كثيراً من التحسن فى سلوكها قد وقع خلال علاجنا للبوال وبعد ذلك العلاج .

---

(١) انظر معنى القصور فى الفصل الخاص به .

ر . . . طفلة تبلغ من العمر ثلاث سنوات وتسعة أشهر أحضرتها إلى العيادة أمها التى قالت إن الصغيرة قد بدأت منذ شهر تستيقظ خلال الليل مذعورة تصيح وتتحدث عن العساكر . هذا إلى مشكلة البوال التى لازمتها منذ المولد ، وكانت تحدث ليلا ونهاراً على السواء . وكانت البنت أبداً تتأفف فى الأكل . وهى هيابة شديدة الخجل ، لا تفتح فمها ألبتة بمحضر الأغراب بل تتشبث بأمها . وكان لها من قبل طبع حاد ، كثيراً ما كانت تصيبها نوباته . تنهشها الغيرة نهشاً من أخيها الصغير . وقد بلغت هذه الغيرة أقصاها حين بدأت الأم ترضع الطفل ، فما كانت البنت تترك فرصة تسنح لها حتى توسعه ضرباً أو صفعاً . ولم تكن تميل إلى اللعب مع غيرها من الأطفال ، بل هى تتركز حول ذاتها ، وتعتزل ، وتستطيع أن تسلى نفسها وحدها . وكانت مطيعة ، نادراً ما يستلزم الحال تأديبها . وكان لعبها فى الغالب يدور حول دماها ، وأحياناً مع أخيها ، لكنها نادراً ما كانت تختلط بغيرها من الأطفال . وكان تعلقها بأبيها أشد من تعلقها بأمها وكان يعوزها الاهتمام والميل السوى المألوف إلى أخيها .

كان فى نومها بعض العسر منذ وقت طويل . إذ كانت الطفلة توضع فى الفراش فى الساعة السابعة والنصف فى حجرتها الخاصة ، فلا يمر عادة أكثر من نصف ساعة حتى يغلبها النعاس ، لكنها تستيقظ فى الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً ، وتصمم على الصحو الذى كان يزعج كل الدار حقًّا ، لأنها كانت تواصل البكاء والصياح إذا استيقظت . وقد أصابها منذ ثلاثة أسابيع خوف غير مألوف من العساكر فكانت إذا استيقظت صاحت خائفة تقول : « لا تتركوا العسكرى يأخذنى » . وحكاية ذلك أن أمها أخذتها قبل ذلك بأسابيع لشهود عرض الجنود فى إحدى الحفلات فأهلعها هذا لعلة غير معروفة ، وأخذت منذ ذلك الحين تواصل الحديث عن الجنود قائلة إنهم سوف يختطفونها . وإذا

استيقظت ليلا صاحت بأمها قائلة « اقفلى الباب فالعساكر مقبلون » وكانت ترفض منذ تلك الحادثة دخول أية غرفة بمفردها وتود أن تكون أمها إلى جانبها أبداً كما أصبحت تفرق من الظلام وتخاف خوفاً بالغاً .

وكانت الطفلة خلال زيارتها الأولى للعيادة شديدة الحياء ، لا شأن لها ألبتة بالفاحص ولا تتحدث إلا إلى أمها هامسة . وتحنق إذا حاول الطبيب ملاطفتها ، ولاحت هيابة إلى حد غير مألوف .

فأشرنا باتخاذ العلاج المألوف فى حالات البوال ، وأن تذهب الطفلة إلى الفراش كالمألوف فى الساعة السابعة والنصف ، ثم توقظ فى العاشرة ، وتواصل نومها حتى الصباح. وأشرنا على أمها باصطحابها يومياً إلى الساحة حين تدريب الجنود، وأن تقرب منهم بالقدر الذى يسمح به خوفها منهم ، وأن تواصل أمها تشجيعها والتحدث معها عن الجنود بالقدر الذى يتناسب وسنها .

وبعد شهر قررت الأم أن الطفلة قد تقدمت تقدماً محسوساً ، وأنها لم تبلل فراشها منذ أسبوعين ، وتحسن نومها ولم تعد تخاف العساكر ، إذ يلوح أن اصطحاب أمها إياها إلى ساحة التدريب يومياً قد قضى على مخاوفها . وكانت الطفلة أكثر لطفاً مع الطبيب لكنها لم تزل شديدة الخجل والتهيب .

واستمر التحسن خلال أشهر الصيف ، وفى سبتمبر دخلت الصغيرة روضة الأطفال فسارت سيراً حسناً ، وبدا منها اهتمام سوى بالأعمال المدرسية ، وكانت تستمتع بصحبة الأطفال الآخرين ، وبدا منها الإيثار الكريم وحسن الأدب والطاعة .

ومن الطريف أن نلاحظ فى هذه الحالة ، أن هذه البنت الصغيرة قد أظهرت منذ أن أقبلت على العيادة قدرة كبيرة على تكييف نفسها تكييفاً مرضياً وفقاً لظروف المنزل والمدرسة . ولم تعد تعتمد اعتماداً كاملا على أمها ، وشرعت تهتم بأخيها الصغير وتحنو عليه ، وهى تنام نوماً عميقاً وشهيتها للأكل طيبة ، وقد

انقطع عندها البوال ، ولم تعد المخاوف أو الأحــلام المرعبة تزعجها أو تعرض لها .

ومع أن هناك اختلافاً واسعاً فى استجابة الأطفال للتدريب ، وفى قدر السهولة التى تتكون بها العادات ، فليس هناك ألبتة ما يدعو إلى الظن بأن أى طفل إذا خلا من العلل البدنية لا يستطيع أن ينشأ ويدرب على ما ينبغى من عادات الإخراج ، إذا بذل أبواه ما يلزم لذلك من الجهد الخالص المتواصل . فإذا تخطى الطفل سن الثالثة دون أن يتعود الاحتفاظ بجفاف ملابسه ، كان هذا أمراً يستدعى الاهتمام حقاً . ولا بد حينذاك من أن يوضع له نظام يستبعد أى إسراف فى التوتر العقلى كلما أمكن ذلك ، كما يلزم أن تحدد ساعات معينة لنوم الطفل ويقظته ، فإذا كان فى سنيه الأولى بعد ، وجب أن تزيد ساعات نومه ليلا وعند القيلولة ؛ ويمكن أن يضاف ساعتان أو ثلاث إلى أوقات راحته بوضعه فى الفراش قبل ميعاده المألوف بساعة ، وإبقائه فى الفراش صباحاً نصف ساعة ، وزيادة فترة راحته عقب وجبة الغذاء ساعة . وهكذا تزيد ساعتان ونصف من الراحة للطفل الذى ينام اثنتى عشرة ساعة ليلا وساعة فى القيلولة . ويجدى هذا كثيراً على الطفل الكثير الحركة ذى الجهاز العصبى المتوتر ، ويحفظ عليه — على الأقل — ما ينصرف من طاقته حتى لو استراح فحسب ولم ينم . ومن اللازم أن نزود الطفل فى ساعات راحته — إذا لم يغلبه النعاس — ببعض ما يسليه كالصور أو الكتب .

وإذا كان الطفل قد تعود البوال ، وجب أن يكون طعامه بسيطاً خفيفاً وأن تمنع عنه الأطعمة الكثيرة التوابل منعاً باتاً . وأن نتبع معه الطرق المألوفة لمنع الإمساك وزيادة الإخراج عن طريق الكلى . وأولى خطوات العلاج وأهمها ، هو بعث الطفل إلى العمل على التخلص من هذه العادة . ولا يمكن بتاتاً أن يؤدى العقاب إلى تكوين هذا الموقف ، بل ينبغى أن نعرض المشكلة على الطفل

باعتبارها أمراً يمكن تحقيقه ، وأن فى وسعه القيام به ، وأن ندفعه إلى الشعور بأنه أكبر من العادة . وأنه قادر على الانتصار عليها ، فيزيده هذا كله حماسة وإقبالا على القيام بواجبه . أما إذلاله فلا ينفع فى شىء ولا يساعده ألبتة فى القضاء على تلك العادة .

ويمكن أن يبين المرء فوق ذلك كل المضار التى تتأتى عن تلك العادة لا للطفل فحسب بل لأبويه أيضاً . فلنحدثه عما يترتب عن هذه المضار فى المستقبل ، ولنقنعه بأهمية كبره وتخطيه إياها ، حتى يستطيع أن يساهم فى مختلف وجوه النشاط فى الحياة دون أن يتعرض للمهانة والخزى . ولنوضح له أن المزايا التى تعود عليه تستأهل ما ينبغى بذله من جهد للنجاح فى القضاء على تلك العادة . والأولاد يميلون أبداً إلى مرافقة آبائهم فى أسفارهم ، وإلى القيام بالرحلات ، أو المبيت فى المخيمات بعيداً عن دورهم ، فلنبين لهم استحالة ذلك عليهم تماماً ، إلا إذا تغلبوا هم على عادة البوال ، وكثيراً ما نستطيع أن نعتمد على هذه الرغبات فى إقامة حجج مقنعة راجحة .

إذا ما عرضنا على الطفل كافة المزايا والمضار ومختلف الدوافع التى تتطلب منه بذل الجهد — حتى نشوقه ونبعثه إلى الشروع فى القضاء على هذه العادة المرذولة — كان من الخير عندئذ أن نبذل له بعض العون من الخارج . فيجب أن نستبعد الماء واللبن من طعامه بعد الساعة الخامسة مساء . وأن يحاول الآباء القيام بجولات يفتشون فيها ، لعلهم يستطيعون الوقوف على الميعاد الذى يقع فيه البوال . فإذا وقفوا على ميعاد الساعة الحرجة . وجب أن يوقظوا الطفل وأن ينبهوه تماماً عند ذهابه إلى المرحاض . كما يجب أيضاً أن يوقظوه فى الصباح المبكر إذا لزم الأمر . وأن يعنوا بإنشاء سجل يبينون فيه ما أصابه من نجاح ومن إخفاق . وتنفع مثل هذه اللوحة البسيطة المنشورة فى الصفحة الآتية لا كسجل فحسب ؛ بل كدلالة ملموسة تثبت للطفل قدر نجاحه .

اسم الطفل.......................... المدة ....

الليالى النظيفة

السبت	*					
الأحد	*					
الاثنين						
الثلاثاء						
الأربعاء	*					
الخميس						
الجمعة						

وقد نجحت هذه الحيلة فى الحالة الآتية :

ب . . . طفل فى السادسة من عمره ، لم تصدر عنه أية متاعب حتى بلغ سن الثالثة حين أصيب إصابة شديدة بالالتهاب الرئوى . وعقب هذا المرض أخذ يتبرز على نفسه ويبول على ملابسه وفراشه . ولازمته هذه الحالة سنتين ، لكنه خلال السنة ونصف السنة الماضية لازمه البوال ليلا فقط . وكان يقع له هذا حوالى خمس ليال فى الأسبوع ، فكانت أمه كما قالت تضربه وتدعك أنفه فى البول ، وتحرمه مما يريد وترفض إعطاءه أية ملابس نظيفة مدداً طويلة من الزمن ، وتحاول بذلك كله أن تقنعه بأنه يستطيع أن يقلع عن تبليل فراشه .

وكان الطفل كريماً لطيفاً ودوداً يحب الناس ويلعب مع غيره من الصغار ، لكنه كان يميل إلى العناد ، لا يمكن إقناعه بل يسهل إغراؤه ، ولم يكن يخشى شيئاً خاصاً ، وكان مولعاً باللعب مع غيره من الأطفال خارج الدار ، لكنه كان مع هذا يقضى وقتاً طويلا مع أخته يلعبان بالدمى .

ولما كان الطفل قد تردد على عدة عيادات سيكلوجية من قبل ، فقد استيأست الأم من شفائه . وزعمت أنها قد نفذت كل التعليمات التى نصح بها الأطباء لكن البوال لم ينقطع رغم ذلك .

وكان الصبي كما بدا فى العيادة ولداً جذاباً ذكياً ، يهتم بما حوله ، ويتوق إلى إظهار كفايته فى الكتابة والرسم . ويتحدث عن مشكلته حديثاً مكشوفاً صريحاً ، دون أن يلوح عليه اضطراب ، ويبدى رغبته فى التعاون على حلها . وأثبت الفحص الطبي وتحليل البول فى المعمل أن جسم الطفل صحيح سليم .

فرسمنا خطة العلاج على المنوال الآتى : أن يكون طعام الطفل بسيطاً خالياً من التوابل والحلوى ، ليس به من اللحم إلا قدر معتدل ، وأن يتناول عشاءه فى الساعة الخامسة ، وأن يمتنع عن شرب أى سائل بعد ذلك . وكان عليه أن يذهب إلى فراشه فى الساعة السابعة ، وأن يؤخذ بعد أن يستيقظ تماماً إلى المرحاض فى الساعة الثامنة والنصف ، ثم فى الساعة العاشرة ، ويترك بعد ذلك نائماً حتى الصباح حيث ينبغى أن يوقظ فى الساعة السادسة . وقد أكدنا ضرورة إيقاظ الطفل يقظة تامة ، وإشعاره بالغاية من إيقاظه فى هذه الأوقات . ونبهنا الأم إلى ضرورة التأكد من إفراغ بوله فى كل مرة . ثم أحضرنا لوحة وأعطيناها للطفل ، وشرحنا شرحاً وافياً كيفية الاحتفاظ بهذا السجل والعمل به .

وقد استجاب الطفل لما عليه فى البرنامج حماسة كبيرة ، غير أن الأم كانت تشك فى جدوى النظام الذى رسمناه للمريض . فعاد إلى العيادة بعد أسبوع . وتبين أن الأم لم تنفذ التعليمات رغم قولها بعكس ذلك ، وأنها قد استخدمت

بدلا منها دواء تكثر عنه الإعلانات فى الجرائد . ومع هذا فقدألحفناعليها بضرورة السير على النظام الذى أشرنا به شهراً ، وطلبنا إليها زيارة العيادة مرة كل أسبوع . وعند انتهاء الشهر الأول أبدت الأم سرورها الكبير بتحسن حالة الصبى ، وقالت إنها تنسب ذلك إلى اللوحة . ورغبت فى الإذن للطفل الأصغر ، الذى يبلغ الثانية والنصف ، بالتردد على العيادة لعلاجه من نفس العاة ، وبعد شهر آخر قررت الأم أن البوال قد انقطع تماماً ، وأن عبئاً ثقيلا قد ألقى بذلك عن كاهلها .

ولسنا نود أن نعلق على هذه الحالة إلا بأن نشير إلى اللباقة التى ينبغى التزامها للظفر بتعاون الآباء ، ودفعهم إلى الشعور بأنهم رغم ما حولوا من أشكال العلاج فى المرات السالفة فلعلهم لم ينفذوا ألبتة خطة تعالج كل مظاهر الحالة . وقد كان البوال فى الحالة السالفة بسيطاً لم يزده تعقيداً أى عرض عصبى أو أية عادات كريهة ، وكانت الحماسة التى أبداها الطفل فى الاحتفاظ باللوحة أمراً فى نفسه يدعو إلى الرجاء من ناحية التنبؤ بسير الحالة .

ونحن إذ نحاول ألا نبعث انفعالا مكدراً مقيماً بإزاء عادة البوال، نخاطر بالاستهانة بها استهانة تبعث الطفل إلى الشعور بأن لا تبعة عليه فى القضاء عليها . والطفل كفيل باتخاذ تلك الفكرة إذا ترامى إلى سمعه قول أمه هى وغيرها من أعضاء الأسرة بأنه قد ورث هذه العلة ، وأن كليتيه ضعيفتان لا فائدة من إصلاحهما . « وأنه سوف يتخلى عن هذه العادة مع الزمن حين يكبر ، كما وقع لى . لكننا ينبغى فى الوقت الحاضر أن نخفف عليه المسألة . . يا قلبى عليه » ! حتى لقد بلغ من إسراف إحدى الأمهات فى حنانها أن كانت تغير فراش ابنها وهو مستغرق فى نومه ، أملا منها أن يعتقد فى الصباح التالى أنه قد بقى جافاً طوال الليل .

ويتعرض كثير من الأطفال لخطر التخفف من مسئوليتهم عن هذه المشكلة

على منوال يخالف ذلك تماماً ، ويكون ذلك إذا شعر الطفل بأن من يعنون بمشكلة بواله يبلغون من الكثرة حداً لا يترك له سوى أقل نصيب للمساهمة فى علاجها . فهو يرى أن « بابا وماما » يبذلان حقاً كل ما يستطيعان ، وأنه لم يعد فى استطاعتهما القيام بشىء أكثر من هذا . و « دادة » تواصل التفكير فى هذه المسألة ، وأنها تبعاً لأوامر الطبيب تلتمس أبداً ما يجدى فى علاج حاله : وقد رفع السرير من ناحية القدمين وأنقصت السوائل ، وانتقى الطعام انتقاء دقيقاً ، وهم يوقظونه فى كل المواعيد للذهاب إلى المرحاض . وقد نفذوا ما أشار به الطبيب بدقة . وجربوا إلى ذلك حيلا أخرى ؛ لكنه لم يكن فى هذا كله نفع أو جدوى ، فقد أهمل من العلاج أهم مظاهره : ذلك لأن الطفل لم يؤمن بأن البوال إنما هو مشكلته الخاصة به وأن مسئولية أبويه ومربيته وأطبائه لا تتعدى تقديم العون له إذا هو حزم أمره للتخلص من تلك العادة .

كان ب . ُ . صبياً حسن النمو فارع البدن يبلغ من العمر ثمانى سنوات . ينتمى إلى أسرة عريقة ذات مكانة ممتازة من الناحيتين المالية والاجتماعية . وكان هذا الصبي يعانى طوال حياته البوال ليلا وأثناء القيلولة . لا ينقطع عنه سوى فترات قصار تتفاوت من بضعة أيام إلى ثلاثة أسابيع .

عالجه من قبل طبيب ذائع الصيت لم يعثر على أى سبب بدنى لما يعانيه الصبي ، فاستخدم معه كل طريقة ممكنة تستعمل عادة فى مثل هذه الحالات . ورغماً من استخدام ممرضة خاصة ، وبالرغم من اللوحات والنجوم والأدوية وغسل المثانة ، وأشكال الثواب والعقاب ، واصل الصبي تبليل سريره كل ليلة تقريباً . وهكذا حاولوا معه كل طريقة تخطر على البال واحدة فواحدة ، ثم مجتمعة بعضها إلى بعض ؛ فلم يبق لنا بعد هذا كله ، إلا أن نشير بشىء واحد لم يخفق بعد : هو أن تهمل المسألة ويغفل أمرها . ورأينا الصبي مرتين دون أن نشير إلى بواله فتحدث عن عمله بالمدرسة ، وعن رفاقه فيها ، وعما

يهوىَ من الألعاب والكتب وأفاض فى الحديث عن حياته اليومية ، وسرد لنا آماله وأمانيه وكيف يرجو الوصول إليها . وهكذا تشعب بنا الحديث فى كل ناحية يشغف بها الصبى ، ما عدا بواله فى الفراش . وفى نفس الوقت كانت كل طرق العلاج قد أوقفت دون أى تعليق . وفى الزيارة الثالثة انفجر الصبى قائلا للطبيب « كنت أظن أنك سوف تعالجنى من تبليل الفراش ، وها أنت لم تشر إلى الموضوع أية إشارة » فرد الطبيب فى هدوء وعدم اكتراث قائلا « لقد كدت أنسى ذلك ، وها أنت الآن تتكلم عن المسألة ، وإنى لأذكر أن أمك قد حدثتنى عن ذلك من قبل ، غير أنه من الطبيعى أن هذا الأمر من شأنك وحدك . فكل صبى يصل إلى ما وصلت إليه من تفوق فى الفصل ، ويلعب كرة القدم ، ويركب الخيل كالرجال ، ويكون له هذا العدد الكبير من الأصدقاء والصحاب ، ويصطحب بهذه السرعة مع الناس ، أقول إن صبياً هذا شأنه يستطيع بسهولة أن يتغلب على البوال . فهو عادة بسيطة يمكن الإقلاع عنها حال التصميم على القضاء عليها ، ولن تستطيع الأدوية أو اللوحات أو الأطباء أن يجنبوك إياها إلا أن تحزم أنت أمرك وتنتوى ذلك » وانتهى حديثنا عن هذه المسألة عند هذا الحد ، ثم انتقل إلى الحديث عن أحسن زاوية تقذف منها الكرة كى تصيب المرمى . وطلبت إلى الصبى أن يعود بعد أسبوع ، فكانت أول عبارة تفوه بها عند عودته أن قال : « لم أبلل فراشى منذ زيارتى الأخيرة » . وبصرف النظر عن مرة طارئة ، واصل الطفل ضبط بوله . وهكذا يتبين أن الوسيلة الوحيدة فى هذه الحالة بالذات لم تكن إلا إلقاء المسئولية على الطفل ، وأن هذه الوسيلة قد نجحت نجاحاً تاماً .

وفيما يمكن أن يسمى « بالحديث العلاجى إلى الطفل » يلزم أن نبين له فى جلاء وفى دقة كافة الأسباب التى تدعو إلى تغلبه على العادة ، وأن نشعره فى عين الوقت بواسطة الإيحاء ، أنه يستطيع القيام بهذه المهمة . وينبغى أن يبعث

فيه اليقين بواسطة التكرار أننَّا نثق كل الثقة فى نجاحه ، وكثيراً ما يكون خير من يستطيع القيام بهذا الشكل من الإيحاء شخص غريب عن الأسرة كأن يكون الطبيب الذى يثق به الطفل . وينبغى ألا نعين للطفل غاية من الكمال يسعى إليها أول الأمر ، بل أن نتيح له الفرصة للتفوق على ما كنا ننتظره منه ، فإذا كان يبول فى فراشه كل ليلة فلنفهمه أنه لو استطاع ألا يبلل فراشه ثلاث ليال فى الأسبوع كان هذا نجاحاً كبيراً فى الأسبوع الأول . فإذا هو نجح فى ذلك ثلاث مرات أو أربع مرات شرع فى الأسبوع الثانى بحماسة كبيرة تفعم نفسه ، لا تعادلها حماسته لو أنه كان قد لاقى الإخفاق منذ مطلع محاولاته .

ومن أشكال الإيحاء الأخرى التى تستطيع الأم أن تستخدمها والتى تنفع كثيراً فى العلاج ، أن تجلس إلى فراش ابنها عقب ذهابه إلى السرير فى المساء ، وأن تدفعه إلى تكرار مثل هذه الجملة مرة بعد أخرى « سريرى نظيف فى الصبح » . وأن تخبره عن فائدة الاستيقاظ جافًّا ، وعن المتعة التى سوف يشعر بها طول النهار إذا انتصر فى تلك المعركة خلال الليل ، فإن ذلك كله يدفع إلى الإبقاء على أهمية النظافة فى عقل الطفل ، ويحتمل أن تؤدى هذه الروابط إلى وضوح أثر الإحساسات التى تصدر عن المثانة فى الذهن فتزيد من انتباه الطفل إلى حاجته لصرف بوله .

بوال النهار :

يعرض كثير من البوال الذى يقع خلال النهار — عند الأطفال الذين تخطوا الثالثة من عمرهم — للمشغولين ، مسرفى النشاط ، سريعى التهيج الذين يبلغ من شغلهم بالعالم الخارجى ألا يفطن الواحد منهم لمطالب طبيعته سواء أكانت تستلزم منه إفراغ مثانته أو ملء بطنه . لأن الأطفال لا يعرفون ضبط عضلات المثانة ضبطاً إرادياً كما يفعل الكبار ، فإذا انتظر الصغار فترة طويلة دون أن يبولوا نزل بهم الأمر رغم حسن نياتهم وإرادتهم .

وفى علاج هذه الفئة من الأطفال يجب أن نقوم بإقناعهم بأهمية استجابتهم لمطالب الطبيعة منهم . ويجب أن يتعلموا بالخبرة أن تبليل ملابسهم قضية خاسرة تؤدى أبداً إلى الضر والضياع . ولما كان خير ما يجتذب أولئك الأطفال هو العالم الخارجى ، كان أردع عقاب عليهم هو العزل ، فلو أنهم عزلوا عقب الحادثة ، لا فى الفراش ، بل فى مكان لا رفيق لهم فيه ، لأتى ذلك بالعجائب فى فترة قصيرة . فإذا مال الطفل إلى النظر إلى هذه العزلة بعين الاستياء والسخط أمكن أن ننفذها على أساس طبى . ويكون ذلك بإخبار الطفل – وهذا عين الحق – أن جانباً كبيراً من علته يرجع إلى هياجه وشدة تعبه وعنائه ، وأنه محتاج إلى الراحة المطلقة . فيقضى هذا على أى شعور بالحيف والظلم قد يثور بنفسه لإبعاده عن أترابه . كما أن نفوره من العزل يكون دافعاً يبعثه إلى تعود النظافة بحقن بوله .

ويبل بعض الأطفال ملابسهم عن سبق إصرار وسوء نية ، كما يقول الآباء . إذ ينتظر أولئك الصغار حتى تستبدل ملابسهم ، وينظفهم أهلوهم ، ثم يعمدون إلى إطلاق بولهم ؛ وكل حالة من هذه الحالات تستلزم دراسة خاصة ، إذ لا تجدى فيها الأساليب المألوفة لعلاج هذه العادة ، ولا ينفع فيها العقاب بالعزل. ذلك لأننا نجد أبداً، بعد بحث الموقف بحثاً دقيقاً ، أن سلوك الطفل كان نتيجة لشكل من أشكال الصراع الذى يعتمل تحت مستوى الشعور .

م . . . بنت فى الخامسة من عمرها من أسرة ناصعة الصفحة والتاريخ لم يظهر فى أجيالها أية دلالة على الاستعداد العصابى . كانت تنشئة البنت ميسورة حتى سن الثانية ، لكنها بدأت فجأة تبل ملابسها وتلوث ثيابها خلال النهار ، الأمر الذى بعث فى أهلها الأسى واليأس . وكشفت دراسة الحالة للتو تقريباً أن سلوك الطفلة قد يكون استجابة لغيرتها من أخيها الصغير الذى يبلغ من العمر خمسة عشر شهراً . وقد أيد هذا الظن ما أشرنا به من أساليب العلاج الذى قام على

إفهام الأبوين أن الطفلة قد أهمل أمرها نوعاً ما منذ مجىء الوليد الجديد ، وعلى ضرورة تكليف أخته ببعض المسئوليات المعينة للعناية به . واختفت المشكلة تماماً بعد أسبوع واحد .

ينبغى دراسة كل حالة من هذه الحالات بمفردها ، وأن يقوم بهذه الدراسة شخص يجيد معرفة حياة الأطفال العقلية . لكنه إذا لم يوجد مثل هذا الشخص فليس هناك ما يدعو إلى التقاعد واليأس ، إذ كثيراً ما تؤدى دراسة الموقف فى جملته — أى دراسة الطفل وبيئته والناس الذين يتصل بهم — إلى ظهور سبب واضح جدًّا للمشكلة سوف يدهش الآباء منه لأنه لم يخطر لهم من قبل على بال . وكثيراً ما نقصر النظر على المشكلة القائمة وما فيها من مضار وما تبعثه من ضيق وتدعو إليه من هم ، ونحن غافلون كل الغفلة عن الموقف الذى أدى إلى نشوئها .

لكنه لا يجوز أن نختم الحديث عن هذا الموضوع دون أن نقرر أن عادة البوال تستعصى أحياناً على كل الطرق البسيطة التى اقترحناها من قبل ، وأنها رغم الدراسة الدقيقة والعلاج المتواصل أحياناً ما تبقى ولا تزول . وقد يرجع هذا إلى ضعف كامن فى الجهاز البولى لم يصل العلم بعد إلى الوقوف عليه . وقد تكون هذه العادة أداة نافعة فى تنفيذ الخطة التى ارتسمها المريض لحياته ، أو أن الشخص الذى يقوم بعلاج الحالة قد أخفق فى تحديد السبب تحديداً واضحاً دقيقاً فعجز من ثم عن تطبيق أساليب العلاج اللازمة لها .

أما عادات التلويث بما يخرج من الأمعاء فهى أقل كثيراً فى شيوعها من البوال وتستخدم فى علاجها عين الطرق تقريباً . ومع هذا فالمألوف أن يكون إصلاح عادات البراز المرذولة صعباً عسيراً . ذلك لأنها أمور شديدة التعقيد يبدو أنها أعمق تأصلا وجذوراً . ومن ثم لا يمكن أن نذكر أموراً عامة عن كيفية علاج هذه المشكلة فى جملتها بل نشير بوجوب استشارة أحد الأطباء النفسانيين لعلاج من يصاب بهذه العادة من الأطفال .

فمن الأطفال من تدفعهم الخُلْفة (١) إلى الامتناع بتاتاً عن إفراغ أمعائهم إلا إذا أرغمتهم الطبيعة ، فيقع هذا أبداً فى أبعد الأوقات عن المناسبة ؛ ومن الأطفال من يتبرز دون أى اهتمام بالزمان أو المكان ، سواء أكان فى عرض الطريق أو فى المنزل أو فى الفراش بل عقب إعادته من المرحاض وإلباسه ملابسه النظيفة. ويجذل كثير من هؤلاء الأطفال جذلا كبيراً بنثر البراز ، كما كانت تفعل بنت صغيرة فى السابعة من عمرها دفعتها الغيرة لا إلى تلويث حيطان حجرتها وبياضاتها القطيفة فقط بل طعامها وأطباقها أيضاً .

ولا يمكن تفسير البواعث التى تؤدى إلى هذا الطراز من السلوك إلا عقب دراسة طويلة دقيقة للطفل وبيئته والأشخاص الذين يعيش معهم . فمن المؤكد أن هذا السلوك دليل على أمر معين فى حياة الطفل ، وأنه ليس « انحرافاً ملعوناً » فحسب بل لا بد أن هناك علة تسببه .

ومن حسن الحظ أن مثل هذه الحالات لا تبلغ من الكثرة حداً يبرر الدخول هنا فى حديث مفصل عن الدوافع التى تدعو إليها . ويمكن أن نكتفى بالقول إن هذه الحالات تستدعى فحصاً نفسانياً دقيقاً يقوم به أمهر من نستطيع استشارته من أطباء النفس . وكثيراً ما يستلزم الأمر من مثله أن يستخدم كل مهارته وحذقه لتفهم العمليات العقلية التى تؤدى إلى مثل هذا السلوك .

---

(١) Negativism ميل إلى السلوك سلوكاً مناقضاً للاستجابة السوية التى تنتظر رداً على مثير أو موقف خاص .

الفصل السابع

مص الأصابع وعض الأظافر

لو أن الآباء صرفوا جانباً من العناية والقلق الذى يبدونه نحو مص الأصابع وعض الأظافر « والخنفرة » وما إلى ذلك من عادات ، إلى ما هو أهم من ذلك من المظاهر الأساسية لحياة الطفل العقلية لكان ذلك أجدى عليه وأنفع له . والغالب أن الآباء الذين يشتد انفعالهم بإزاء مص الأصابع حتى يصبح قلقاً جاثماً ، يغفلون أفكار أطفالهم ومشاعرهم تمام الإغفال ، ولا يؤدى بهم هذا القلق بتاتاً إلى التساؤل عما إذا كان الطفل سعيداً ، أو عما إذا كانت آماله ومطامحه قد تحققت أو خابت . بل لعلهم يشعرون أن من مضيعة الوقت أن يصرفوا بعضه للتحقق من طريقة تكيف الصغير مع غيره من الأطفال ، أو للبحث فى علة تهيبه وقلة ثقته بنفسه . على أنه ليس من الغريب أن يكون هذا الوجه من سلوك الطفل — إذا أدمن قضم أظافره ومص أصابعه — مبعثاً لضيق الآباء ومثاراً لحنقهم منهم يجتذب الانتباه ويبعث على القلق ، بينما يخفى عليهم كثير الأمور الهامة التى تؤثر فى صحة الطفل العقلية وهنائه فى مقبل حياته .

والحق الصراح أنا لنشعر أن ما يكشف عن تربية الطفل ، إنما هو ما يقول وما يفعل . ولذلك نميل إلى الاعتقاد بأن عادة مثل مص الأصابع إنما هى دلالة واضحة ملموسة على خيبة الآباء . وهى عادة مذمومة فى الطفل لا تسترعى انتباه الآباء فحسب ، بل هى أمر يبعث انتقاد الناس وهم يكرهونه فى غيرهم ، وهى لهذا جديرة بالنظر والاعتبار .

والمص فى أكثر العادات شيوعاً بين الأطفال ، وهو عادة تنتج عن سلسلة

محكمة التنظيم من الحركات العضلية وتنفع الطفل نفعاً جزيلا جداً فى مطلع حياته ، كما أنها رد فعل طبيعى غريزى . والفرق الوحيد بين مص الطفل لثدى أمه ومصه لأصابع يديه أو قدميه ، هو أن الفعل الأول مفيد لذيذ معاً ، بينما الثانى على لذته لا منفعة فيه ، بل هو قد يؤدى أحياناً إلى تشويه الفك . ويمكن اعتبار كل عادات المص والعض وسيلة لإثارة إحساسات عضوية لذيذة ، أى إحساسات تنشأ بالتأثير فى أجزاء البدن المختلفة التى يمكن أن يحصل منها الفرد على أقدار مختلفة من الرضا والإشباع ، وتعتمد شدة استمساك الطفل بهذه العادات المرذولة على شدة تلك اللذة . والأطفال يتفاوتون تفاوتاً كبيراً كتفاوت الكبار فيما يتعلق بالبطء فى التخلص من السعى وراء اللذة .

وقد يبدأ مص الأصابع أو أى جزء آخر من أجزاء البدن منذ الميلاد ، وقد يبقى أياماً أو أسابيع ، أو قد يستمر ويبقى حتى الخامسة أو السادسة من العمر . وتقل هذه العادات قلة نسبية بعد السابعة . فإذا أعملنا جهدنا للقضاء على هذه العادات السيئة — وينبغى أن نذكر أن سوءها يرجع أكثره إلى اعتبارها منافية لآداب اللياقة كريهة المنظر — إذا أردنا القضاء عليها إذن كانت أولى الخطوات وأهمها أن يتخذ الوالدان موقفاً معقولا بإزاء هذه العادة ، فقد ذكرنا آنفاً أن الآباء والأمهات خاصة ، أكثر تعرضاً للإسراف فى النفور من هذه العادات والخجل من وجودها فى أبنائهم . وهم يأخذون المشكلة على منوال شخصى جداً ، ولا يندر لذلك أن تكون شدة انفعالهم هى نفسها العلة فى ضياع الجهود التى يبذلونها ؛ لأن مما يبعث الرضا عند كثيرين من الأطفال أن يقف الواحد منهم على وسيلة بسيطة يحنق بها أبويه ، والأب الحانق يعجز أبداً عن التصرف مع الطفل .

وقد كان الآباء ينفرون أبداً من هذه العادات ، غير أن نفورهم قد ازداد واشتد خلال هذه السنوات الأخيرة ، وخاصة بين الآباء الذين كانوا يحاولون أن يتبعوا الآراء الحديثة فى تنشئة الأطفال . ويرجع ذلك إلى أن إحدى مدارس

العلاج النفسانى القوية[1] تعلق أهمية عظيمة على هذه العادات، وتؤكد تأكيداً يقينياً أن لها معنى جنسياً خطيراً . وكثيراً ما يسألك الناس عما إذا كان مص الأصابع لا يؤدى إلى بعض الانحراف الجنسى الشنيع ، أو لا يعتبر دلالة على الانحلال الخلقى ، وكل ما يمكن أن نجيب به فى مثل هذه المواقف ، هو أنه إذا كان مص الأصابع دلالة على الرغبات الجنسية فلنعتبر هرش الرأس وتنظيف الأنف من هذا القبيل كذلك ، وأنه إذا سلمنا بهذه النظرية وجب أن يكون إدراكنا للنشاط الجنسى مبايناً تمام المباينة للرأى الذى يقول به أكثر الناس ذكاء ورجاحة عقل فى عصرنا الحاضر .

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى مدرسة التحليل النفسانى التى أنشأها فرويد Freud (١٨٥٦ – ١٩٣٩) الذى يمكن أن يعد أشهر علماء النفس قاطبة . وقد ترجمت كتبه إلى أكثر اللغات وانتشر مذهبه وأتباعه فى أكثر البلاد وطبقت نظرته فى مختلف ميادين الحياة .

ويرجع الفضل إلى فرويد فى توجيه الأذهان إلى أهمية اللاشعور فى الحياة النفسية ، فقد توفر على دراسته حتى يستطيع أن يكشف الوسائل التى تعينه على علاج ما يعرض بالنفس من اعوجاج أو علة ولم يكن يهمل لذلك أتفه ما يعرض فى الحياة اليومية من فلتات اللسان أو تسلسل الأفكار أو أنواع الأحلام والأخيلة ، ولم يتفوق عليه أحد فى الاهتمام بوقائع الحياة وما يعرض فيها من أنواع النشاط والسلوك .

وأهم ما يعنينا هنا من آرائه ، التى يستلزم إيجازها مجلدات ، ناحيتان :

الأولى : أن فرويد يعتبر الرغبات التى يستشعرها المرء فى الطفولة المبكرة هى الأساس المقيم للحياة النفسية كلها على مر الأيام ، وأن هذه الرغبات إذا ووريت فى أعماق النفس وخفيت عن صاحبها بقيت رغم ذلك عاملة توجه نشاطه وتفكيره ، ومن ثم كانت كل أشكال السلوك قائمة على خبرة المرء وحياته التى مرت به فى الأربع أو الخمس سنوات الأولى من العمر .

والثانية : نظريته فى الميول الجنسية التى ثار حولها ما لا نهاية له من نقاش والتى يقرر بها أن الرغبات الجنسية – بمعناها الواسع الذى ينبغى ألا يقتصر على الميول التناسلية – وجد فى الإنسان منذ ولادته وأنها تثور بنفس الطفل وتوجد بها وجوداً لا شك فيه ، ولابد لهذه الميول من المرور فى عدة مراحل حتى تصل إلى المستوى السوى المألوف . ويرى فرويد أن الميول الجنسية وإلى جانبها الميول العدوانية هى أهم الدوافع فى حياة الناس ، وأنها الأساس الأول لكافة ألوان الحياة الوجدانية والخلقية والجمالية والثقافية والدينية ، وأنها العلة لكثير مما يظفر المرء به من صحة أو مرض . (انظر تفصيل بعض ذلك فى الباب الأول من كتابنا : علم النفس الفردى ، وفى كتاب فرويد : مقدمة التحليل النفسى – دار المعارف بمصر) .

وهذه العادات عامة الشيوع بين الأطفال ، حتى ليمكن أن نقول إنها عُرْف عندهم بدلا من تسميتها عادات . والمألوف أن تكون أموراً عابرة مؤقتة لا تستقر استقراراً مكيناً فى شغاف شخصية الفرد ، ومع هذا ينبغى أن نذكر أنه إذا لم يمكن التخلص منها واستمرت ممارستها بعد السن التى توجد فيها عادة ، كانت دلالة تثبت أن نمو الطفل قد وقف ، إذ هى أعراض للفجاجة العقلية أو الوجدانية. وفى إمكاننا قبل أن نستطيع اللجوء إلى عقل الطفل بوقت طويل وقبل أن نشرح له أسباب كراهية هذه العادات ، فى إمكاننا أن نستخدم طرقاً بسيطة غالباً ما تنفع فى اقتلاع تلك العادات .

فإذا ما ظهرت عادات المص أمكن أن ينفع المنع الجزئى المؤقت نفعاً جزيلا فى اقتلاعها ؛ فإذا كان الطفل يمص أصابعه كان فى استعمال سوار عادى من القماش المكوى بالنشا ، إذا ربط ربطاً محكماً حول الكوع ، ما يمنع الطفل من ثنى ذراعه ووضع أصابعه فى فمه . ويسمح هذا العمل للطفل بتحريك ذراعه حركة كافية من الكتف ، كما يحسن إخفاء ذلك السوار تحت كمه . وينبغى أن تستخدم تلك الطريقة فى المنع بعد موافقة الطفل وتعاونه كلما كان ذلك مستطاعاً ، لا على أنها عقاب بل على أنها وسيلة لعونه على التخلص من تلك العادة . وغالباً ما تكفى بضعة أيام من مواصلة هذا العلاج للقضاء عليها قضاء تامًّا .

وهناك طريقة أخرى للعلاج بسيطة عتيقة ، هى تلويث الأصابع بأى دواء كريه الطعم ، لكن ينبغى أن يفهم الطفل أننا لا نفعل هذا إلا لتذكيره إذا ما أشرف على الوقوع فى ذلك الفعل الذى يود التخلص منه . فإذا خلقنا الرغبة فى التغلب على العادة الكريهة التى يقوم بها قياماً لاشعوريًّا بأكمله ، أمكن أن تكون النتيجة مرضية ناجحة . ويمكن أن نستخدم لنفس الغرض أصبعاً عادية من أحد القفازات القديمة .

ومع هذا فإن هذه العادة عند الأطفال العصابيين لست سوى عرض من الأعراض العامة ، ذلك لأن الطفل ينام قليلا ، ويتأفف فى أكله ، ويكثر بكاؤه ، وتصيبه نوبات كثيرة من الغضب كما تبدو عليه دلالات أخرى من عدم استقرار الجهاز العصبى . وفى مثل هذه الأحوال ننصح على الدوام بعدم استخدام أية طريقة من طرق المنع لأنها تؤدى إلى مقاومة بدنية ، كما أن العصيان العقلى الذى يثور بنفس الطفل يزيد فى اضطرابه العصبى العام الذى ينبغى أن ينصرف إليه اهتمامنا قبل أى شىء آخر .

وفى الحالة الآتية : أحضرت الأم ابنتها إلى العيادة لعجزها عن دفعها إلى التخلص من الإدمان على مص أصابعها ، مع أن هذه العادة لم تكن أهميتها سوى أمر ثانوى إلى جانب العناد والخافة فى حياة هذه الطفلة . ومما يستدعى الاهتمام ويستوجب الملاحظة فى هذه الحالة ، التى كان يبدو منها أحياناً انحلال يكاد يكون تاماً فى شخصية الطفلة ، أنها لم تكن تجد أية وسيلة للسلوى سوى مص أصابعها . ومع أن المشكلات الأساسية التى كان ينبغى علينا علاجها كانت أكبر خطراً من هذا العرض من أعراض الحالة إلا أن هذه المشكلة الخاصة وحدها هى التى دفعت بالأم إلى الإقبال وابنتها إلى العيادة .

ج . . . طفلة تبلغ من العمر سنتين وثمانية أشهر تقضى وقتاً طويلا فى مص أصابعها وخاصة إذا طغى عليها مزاج الساعة واكتأبت . فتضع فى فمها أصبعين وتقنع بالجلوس هادئة تمتصهما . فإذا عوقبت بوضعها فى الفراش اشتد سرورها إن هى استطاعت أن تفرغ لمص أصابعها . وهى طفلة نشيطة ، مولعة باللعب خارج الدار ، يسرها أن توجد مع غيرها من الأطفال رغم أنه من العسير عليها أن تفلح فى اللهو معهم ، إذ نادراً ما تسنح لها الفرصة للعب مع أحد سوى أختها الصغيرة . وهى محبة للسيطرة ، تود أبداً أن تتولى الرياسة ، مشاكسة خشنة تميل إلى الشجار مع من يصغرونها من الأطفال . هى دائمة « الزن » سريعة

النهيج ، قليلة الصبر ، من العسير أن يقف أحد على ما ترغب ، فإذا جابهت أمراً يسوؤها ردت عليه بنوبة عنيفة من نوبات الغضب ، فتطرح نفسها أرضاً تضرب برجليها ويعلو صراخها ، فإذا حصلت على الشيء الذى كافحت كفاحاً شديداً للحصول عليه فسرعان ما تقذفه بعيداً عنها ، كما أنها كثيرة التحطيم .

وقد أصبحت تخاف كثيراً من الظلام عقب الحادثة التالية : كان أبوها يلاعبها فاختبأت فى غرفة صغيرة مظلمة ، ووقف أبوها خارج الباب يموء كالقط ، وبدا منها أنها كانت تستمتع بذلك وطلبت إليه أن يواصل المواء . لكنها منذ ذلك الحادث أخذت ترفض الذهاب إلى سريرها إذا لم يترك باب الحجرة مفتوحاً ، ورغم ما كان يظهر من نقص فى محبتها لوالديها ، فقد كانت تلح فى اجتذاب انتباه أمها وتود أن تبقى على الدوام إلى جانبها . وقلما كان يبدو منها عطف على أبيها أو أمها ، ولم تكن تقبل أحداً منهما إلا للتخلص من عقاب يحتمل أن ينزل بها وكانت تحسن معاملة الحيوان وإن لم تقس عليه . وكانت شفوقة كريمة مع أختها الصغيرة وإن كانت فى بعض الأحيان تسيء إليها وتدفعها وتصفعها .

وذكرت الأم أنها لا تصرف وقتاً كثيراً مع الطفلة أوتبدى لها عطفاً بالغاً ، وقالت : « لست حانية بطبعى ، وزوجى أكثر اهتماماً منى بالأطفال » . ولاح أن الأم حسنة الذكاء ، يبدو منها الاهتمام بالطفلة غير أن المرء يشعر بأنه اهتمام سطحى ، وأن من خصائصها الأساسية أن تسلك أقل السبل مقاومة وعسراً كأن تحاول التغلب على مص الطفلة لأصابعها بأن تعطيها زجاجة بدلا منها .

وأهم مظاهر هذه الحالة هو قلة حنان الأم على أطفالها ، وعدم اكتراث الطفلة بوالديها . كما اشتد وضوح موقف الخلفة الذى اتخذته الطفلة بإزاء الحياة ، فقد كانت تفعل على الدوام نقيض ما يطلب إليها . وكثيراً ما يكون هذا الموقف من الطفل جهداً يبذله لجذب الانتباه وللظهور وإثارة الحديث

عنه ، إذ أن الآباء أبداً يشيرون إلى الأطفال المخالفين بأنهم « بكل بساطة صغار لا يطاقون » .

ويبدو أنه من الحكمة عند ظهور هذه الخلفة أول الأمر أن نقلل من أهميتها ما أمكن ذلك ، وأن نعمل على ألا يجنى الطفل شيئاً باتخاذه هذا السلوك ، بل أن ندبر الأمر حتى يؤدى إلى إيقاع الخسارة به ، وأهم من هذا كله ألا نناقش مسلكه ألبتة على محضر منه .

وتبرز هذه الحالة أهمية السماح للأطفال بالاختلاط مع غيرهم ممن هم فى سنهم إذ أن من أهم القوى الغريزية الأساسية تلك القوة التى تسمى عادة بغريزة القطيع [1] . فالطفل منذ مطلع حياته قادر على الانتفاع نفعاً كبيراً من صلاته بغيره ، إذ تتاح له الفرصة لرؤية أفعاله كأنها منعكسة فى مرآة فى ردود الأفعال التى يقوم بها من هم فى مثل سنه ، وهو كفيل بأن يحسن فهم الأمور وأن يتخذ موقفاً أكثر عطفاً على غيره بفضل هذا الفهم . لهذا لم يكن من الغريب أن نجد الطفل الذى يعتكف فى منزله تسعة أو عشرة شهور فى السنة لا يتصل إلا بأفراد أسرته فحسب ، ليس من الغريب أن يلقى صعوبة فى فهم غيره والتعامل معهم إذا تطلب الأمر ذلك .

ومع أن الطفلة التى مر علينا ذكرها آنفاً لم تبلغ بعد الثالثة من عمرها ، إلا أنها كانت تتحول سريعاً إلى صبية باردة الحس قليلة العطف تتظاهر بمحبة غيرها فى سبيل الحصول على ما تبغى فحسب . وهذا الموقف بطبيعة الحال ليس إلا موقفاً منعكساً عن موقف الوالدين بإزاء الطفلة ، ولهذا لم يكن من الغريب أن تستخدم من التصرفات ما ينافى الحياة مع الناس مثل نوبات الغضب والخُلفة ،

(١) غريزة القطيع فى الحيوان هى أصل الغريزة الاجتماعية فى الإنسان . وهى ميل فطرى يدفع أفراد الفصيلة الواحدة إلى التجمع قطعاناً أو جماعات تجمعاً يجدى عليهم فى الدفاع عن أنفسهم أو فى تقسيم العمل ، أو فى الهجوم ، أو فى ذلك كله ، كما يؤدى إلى الشعور بالاستئناس خاصة عند الإنسان . (المترجم)

حتى تدفع عن نفسها خطر إغفالها كل الإغفال من محيط الأسرة .

وكان أكثر العلاج فى هذه الحالة موجهاً إلى الأم . إذ لاح منها من الاهتمام بالأمر أكثر مما كان ينتظر ، وبدا الموقف أكثر رجاء لأن ذكاءها كان فوق المتوسط . والعلاج فى مثل هذه الحالة يجب أن يستمر عدة شهور . وينتظر أن تتحسن الطفلة تحسناً كبيراً عند دخولها المدرسة والاتصال اتصالا يومياً بغيرها من الأطفال . وقد تقدم حال الطفلة إلى حد كبير بعد أن وضعنا للأم خطة تسير عليها ، وبعد أن استطاعت هى أن تغير موقفها قليلا بإزاء الطفلة .

وليس من الحكمة فى شىء أن نغرى الطفل ونرشوه حتى يقلع عن إحدى العادات ؛ لأنه سرعان ما يفسر تلك الطرق على أنها دلالة على ضعف والديه ، ويبدأ فى استغلال ما يلمسه من قلقهما عليه ؛ ومع هذا فإنه يحق لنا على الدوام أن نلجأ إلى الطفل فى صراحة وأمانة . وينبغى أن تكون معرفتنا واضحة لما يهتم الطفل به إذا أردنا أن ننجح فى التجائنا إليه . والأطفال يودون لو أصبحوا كباراً ورجالا ، كما يودون أن يرضى عنهم آباؤهم ، وتلك هى الرغبات التى ينبغى أن نلجأ إلى استغلالها فيهم . ولا ينبغى ألبتة أن نلتمس من العبارات ما يلقى بنفوسهم الخوف الذى لا أساس له ، إذ ليس لمثل هذه الطرق سوى أثر وجدانى ، وهى مصدر لأذى الطفل أبداً .

وهناك من الأطفال فئة تلجأ إلى عادات المص التماساً للسلوى والراحة فى أوقات الضيق والعناء فحسب . وكثيراً ما ترتبط عادة المص سواء كان مص الأصابع أو الذراع أو غطاء السرير ارتباطاً وثيقاً بالعقوبات وخيبة الرجاء والتأنيب وبالمرض أحياناً — وبالاختصار عند ما تسوء الصلات بين الطفل والدنيا التى يعيش فيها . والمشكلة هنا أيضاً ليست مشكلة أساسية ، إذ هى ليست سوى عرض من أعراض حالة عقلية ينبغى دراستها دراسة دقيقة . ولسوف نعرض لهذه المشكلات فى الفصول المقبلة .

أما قضم الأظافر فيمكن أن نستخدم لعلاجه كثيراً من الوسائل التى تستخدم فى علاج مص الأصابع . ومع هذا فإن تلويث أصابع الطفل بأشياء مرة إنما هى طريقة قليلة الفائدة ، كما أن طريقة المنع طريقة كبيرة الأذى قطعاً لأن الأغلب أن يوجد عض الأظافر فى الطفل العصابى أكثر من وجود مص الأصابع . فكثيرون ممن يمصون أصابعهم أطفال هادئون فيهم بلادة فى الطبع والوجدان ، بينما من يعضون أظافرهم أفراد مسرفون فى النشاط فيهم سرعة واضطراب وحركة ؛ يبدو أن كل شيء يسجل على أعصابهم أثراً بايغاً كبيراً ، لهذا كان من اللازم فى مثل هذه الحالات أن نعمل ، أول ما نعمل ، على علاج الحالة العامة . فنعالج العلل البدنية ونبحث فى مشكلات النوم والأكل والإخراج . ومما يعين عوناً كبيراً على علاج الحالة أن نصرف الطفل إلى الرياضة خارج الدار فى صحبة غيره من الأطفال وأن ندفع الآباء إلى النظر إلى المشكلة كأنها فى الطفل كله ، لا فى أظافر يديه فقط .

والحالة الآتية تمثل لنا هذا النوع :

ر . . . طفلة تبلغ الثالثة وتسعة أشهر ، تدمن عض أظافرها . كانت تنام قليلا وتتقلب فى نومها كثيراً ويعلو صياحها ، لا تستقر خلال النهار ؛ ويصعب عليها أن تركز انتباهها . ولم تكن تسكن لحظة ، تحطم اللعب وتمزق الكتب ، وكانت تخجل كل الخجل من الأغراب . ولما ذهبت إلى روضة الأطفال لم تكن تشترك فى اللعب مع غيرها بل بدت كأنها تحلم ، ولم تكن تفعل إلا ما تود . وقد دل الفحص الطبي على ضرورة إزالة اللوز والزوائد الأنفية فى الحال وعقب العملية ظهر على الطفلة تحسن سريع ، فتقدمت صحتها وبدت عليها العافية وتحسن سلوكها وصارت تستغرق فى نومها ، وبدأت تزيد لعبها مع أترابها ، وقل خجلها وقد أفلح العلاج سريعاً فى قضم الأظافر — وهو جانب هام من حالة الطفلة لعله لم يكن سوى عرض من أعراض التعب الذى كان ينزل بها لقلة نومها أو تقليداً

لأختها الكبيرة الذى كانت تدمن قضم أظافرها — فابتاعت الأم من العيادة طقماً صغيراً لتنظيف الأظافر ، واستثرنا فى الطفلة العزم على مقاومة هذه العادة . غير أن الجانب الهام فى علاج هذه الطفلة كان تحسين حالتها البدنية التى أدت إلى غرس عادات الأكل والنوم الطيبة .

وفى الأطفال غير العصابيين ، الذين يبدو قرض الأظافر عندهم عادة منفصلة ، يمكن الحصول على خير النتائج إذا لجأنا إلى فخر الطفل واحترامه لنفسه . فإذا عمل الآباء على تقليم أظافر الطفل تقليماً حسناً ، وعلى إثارة رغبته وحماسته إلى إبقائها نظيفة بيضاء حسنة الشكل كأظافر أمه ، كان فى هذا ما يبعث الاهتمام فى نفس الطفل ويدفعه إلى بلوغ المستوى الذى يرسم له .

وقبل ختام هذا الفصل ، نود أن نحذر الآباء من المبالغة فى الانتباه إلى هذه العادات الممقوتة ، ولسنا نشير بهذا إلى وجوب تجاهلها ، بل إرشاد الطفل إلى التخلص منها شيئاً فشيئاً . فأكثر الناس قد أدمنوا هذه العادة أو تلك وقتاً ما ، ثم اختفت بالإرشاد الرفيق المعقول . فإذا بالغنا فى أهمية ذلك الأمر لم يؤد هذا إلا إلى توجيه أنظار الأسرة كلها إلى الطفل يناقشون أمره ويرون فيه الشذوذ ، فيستمد الطفل من هذا أول الأمر جانباً من الرضا اللاشعوري ثم سرعان ما يعرف كيف يستغل هذا الاهتمام بأمره ؛ وأشد ما يقوى العادة فى الطفل تكرار نهيه عنها ، وهذا أقرب طريق لدفعه إلى العناد والمقاومة .

ومما يستلزم كثيراً من المهارة واللباقة وقدراً كبيراً من حسن الفهم والتصرف أن نلتمس الطرق والوسائل للقضاء على هذه المشاكل بطريق غير مباشر ، أى بتحويل نشاط الطفل إلى سبل أخرى دون إدراك منه لذلك . فإذا أحسنّا اختيار تلك السبل وبعثت هذه السبل فى الطفل اهتماماً ، فسرعان ما تحل الميول الجديدة محل القديمة ، وسرعان ما تختفى العادة الممقوتة وتنقضى .

الفصل الثامن

الطاعة والنظام

تتضمن الطاعة الخضوع لسيطرة الآخرين ، « والآخرون » الذين نشير إليهم عند حديثنا عن تربية الطفل هم والداه أو من يتولون أمره . والطاعة ليست أمراً غريزياً كالجوع بل هى أمر يكتسب بالخبرة والمران . ومع هذا فهناك بعض الميول الفطرية مثل التقليد وحب الرضا والمرونة يمكن استخدامها فى غرس العادات التى تؤدى إلى الطاعة .

ولا ينبغى اعتبار الطاعة غاية فى نفسها ؛ لأن الخضوع الخالص لسيطرة الآباء قد يكون موقفاً ضاراً بالطفل فى مقبل حياته. فقد تنحط الطاعة سريعاً حتى تصبح خنوعاً ، أو رغبة فى السير وفقاً لرغبات أى شخص قوى الإرادة أو وفقاً لأهوائه . فالطاعة وسيلة لغاية ، وهذه الغاية هى ضبط النفس والإمساك بزمامها .

ولا يعنى هذا السير وفقاً لقوانين المجتمع وعاداته ، وقواعد الأسرة ونظمها فحسب ، بل يعنى أيضاً إطاعة المبادئ والمستويات التى تقيم الأخلاق الشخصية.

ولا يمكن أن تتخذ الطاعة فى نفسها معياراً للخلق ، وليست السهولة التى قد تنمو بها الطاعة فى نفس الطفل دلالة على قدرته على التكيف تكيفاً مرضياً مع المجتمع فى حياته بعد ذلك . وينبغى أن تكون مرونة عقل الطفل هى العامل الأكبر فى تنشئة هذه الخاصة وتنميتها « والمرونة ، كما يقول وليم جيمس ، هى أن يبلغ التكوين من الضعف حداً يدفعه إلى الاستسلام ومن القوة حداً يمنعه من الاستسلام وأن يقع كلا الأمرين معاً ، وترجع ظاهرة العادات فى الإنسان إلى

هذه المرونة » [١] .

وإذا تطلب الآباء من الأطفال طاعة مطلقة ، أدى بهم هذا إلى استخدام الشدة والعسف ، حتى لقد يفقد الآباء – إشباعاً لرغبتهم فى القوة والسيطرة – تلك الأحاسيس الرفيعة التى ينبغى أن تسود علاقة الآباء بالأبناء . فما أكثر ما تقول الأمهات « لست أستطيع شيئاً حيال ابنى ، لكن يكفى لذلك نظرة واحدة من أبيه » ويدل هذا على أن مما يدفع الطفل إلى حسن السلوك إنما هو الخوف وحده ، وأنه لم يعرف مقدار ما يمكن أن يستمده من سرور ومتعة إذا هو بذل الجهد خالصاً والتعاون كريماً ، وأنه لا يحفل برضا غيره عنه ، وأنه يدبر أموره دون أن يؤثر فيه مدح أو ذم ، أو الأرجح أن الأمور تدبر له وأنهم بهذا يوجهونه نحو مستقبل تفعمه المصاعب فى حياته مع الناس .

ويمكن اعتبار العصيان شكلا من أشكال الاعتداد بالنفس قد وضع فى غير موضعه ، وهو قد يتأتى من المرض حين يحس الطفل بالعناء وانحلال القوى . أما أساليب الشدة والتطرف التى يستخدمها الآباء لإرغام الطفل بدلا من إرشاده وهديه ، فإنها أسباب شائعة للعناد الذى كثيراً ما يؤخذ على أنه عصيان . كما أن الشك والتردد والغيرة والخوف من العوامل التى تهدد التوازن الوجدانى عند الطفل وتؤدى إلى أشكال من الصراع ضد البيئة تعتبر من أشكال العصيان .

وتعتبر الخلفة فى حياة الطفل أمراً عادياً يمر به أثناء عملية النمو . فهى الفترة التى يشرع خلالها الطفل فى فرض شخصيته ويحنق من سيطرة الآخرين ، وهذا رد فعل طبيعى سليم لا ينبغى أن نعالجه بطرق الشدة ، بل ينبغى أن نترك الطفل

---

(١) William James : Principles of Psychology, Vol. 1, p. 105.

ويعد وليم جيمس (١٨٤٢ – ١٩١٠) من أكبر علماء النفس المحدثين ، وهو إلى ذلك أكبر أصحاب المذهب العملى (براغماتزم) فى الفلسفة .

يتعلم بالخبرة أن طريقته فى تنفيذ ما يشاء إنما تؤدي إلى إيقاع الضرر والخسارة به ، ولتكن مطالبنا منه أقل ما يمكن ، لأن مما يجدى كثيراً أن نهمله قليلا وأن نترك له من الوقت ما يهيئ له تنفيذ ما انتواه . وهذه المرحلة الخلفية قصيرة المدي فى العادة لا تستغرق على الأكثر إلا شهوراً قليلة ، ثم تعود الأمور بين الطفل وأسرته إلى سيرها المألوف .

والطاعة أمر كثير الشبه بالاحترام ، يمكن أن يطمع فيها أى امرئ كان ، لكن الذى يتمكن من فرضها والإبقاء عليها إنما هم من أوتوا القدرة على الزعامة ، فإذا وثق الطفل بمن يتطلب منه الطاعة وإذا رغب فى اكتساب رضاه ، لم يجد من العسير عليه أن يؤجل متعة الساعة للحصول عل ما يفيض عليه من رضا مقيم إن هو استمع وأطاع . أما إذا كانت الخبرة قد علمت الطفل بدلا من ذلك أن ليس هناك من حكمة أو عدل عند والديه ، وأن النقد كثيراً ما يكون جزاء له على إخلاصه فى الجهد ، وأنه ضحية أهواء أبويه ونزواتهم ، إذا كان الأمر كذلك فليس من الغريب أن يؤثر الطفل متعة الساعة ، وأن يترك المستقبل وفقاً للمقادير .

وتصدر الطاعة عن النظام ، ولا يمكن أن يصدر النظام إلا عن الزعامة وعن الثقة بمن يتولى هذه الزعامة . وليس فى الميول والاستعدادات الطبيعية التى يفطر عليها الطفل ما يوده الآباء فى أبنائهم من طاعة وأدب وأمانة وطموح ، لأن تلك الخصائص المرغوبة تعتمد إلى حد كبير على قوى البيئة التى يتصل بها الطفل ذلك ، لأنه يتعلم قيمة الطاعة بالخبرة لابالنصح والمواعظ. وليس السير وفق قواعد الآباء والاستجابة لمطالبهم سوى وسيلة ، فإذا أفاد الطفل من الطاعة وخسر من العصيان فسرعان ما يوطن نفسه على عادات الطاعة كإحدى الطرائق التى يستطيع استخدامها للحصول على ما يبغى من لذة ورضا ، ولو أنه من الناحية الأخرى عرف بالخبرة أنه يستطيع أن يظفر إذا عصى بما كان يمكن أن يحصل

عليه بالطاعة ، كان من البين الواضح أنه لن يقلع عن عادات التفكير والسلوك التى تؤدى إلى العصيان إلا فى بطء شديد . ولا يجدى الوعظ مع الطفل الناشز كثيراً أو قليلا لأنه يعتبر الوعظ دلالة من دلالات الضعف وقلة الحيلة ، وإذا كان للوعظ من أثر فيه ، فلن يكون إلا بعثة على الاستخفاف به والسخرية منه .

وينبغى أن يتريث الآباء حتى يقدروا أهمية ما يأمرون به ، وأن يذكروا أنهم يحاولون المحال حين يجاهدون فى فرض أوامرهم على الطفل فى مختلف وجوه نشاطه التى لا حصر لها . وينبغى أن نقدر كآباء أن كثيراً مما يعتبر عصياناً من وجهة نظر الكبار ومستواهم ليس فيه من عناصر العصيان شىء من ناحية الطفل ، ذلك لأن المستويات التى يفرضها الآباء إذا كانت عالية جداً تحتم الإخفاق ، وليس شىء أخطر على إقبال الطفل وأصالته وحماسته من دوام الإخفاق الذى يلقاه .

وتقوم طاعة الطفل أو عصيانه إلى حد كبير على مستويات البيئة ومطالبها وعلى موقف أولئك الذين يتولون الأمر فيها ؛ فإذا كان المثل الأعلى للسلوك مرتفعاً جداً وكان الهدف بعيداً كل البعد ، فقد يظهر بذل الجهد فى هذا السبيل عبثاً لا طائل منه . وكثيراً ما تكون الطريقة التى تستخدم فى فرض الطاعة هى العلة فى العجز عن تحقيق النتائج التى نرجوها .

وكثيراً ما يكون فى عدم الاكتراث الذى يبديه الكبار بالواجب المطلوب من الطفل ما يدفعه إلى الشعور بأن هذا الواجب لا يساوى الجهد الذى يستلزم القيام به . فإذا كان الصغير مستغرقاً فى اللعب بدميته أو منصرفاً إلى تصفح كتابه الجديد فقد تمر الأوامر التى تصيح بها أمه ، وهى منصرفة إلى إعداد الطعام مثلا ، دون أن تلقى منه أذناً صاغية ، لأن الطفل يكون قد ألف تلك الأوامر حتى تكيف وفقها تكيفاً سلبياً ، كما يتكيف الكاتب الذى ينصرف إلى عمله فى الديوان وسط ضجة الآلات الكاتبة وضوضائها . بل إن الطفل قد يسمع الأمر

ويعرف المطلوب منه ، غير أنه قد عرف بالخبرة أن الأمر الذى يتجاهله تنساه أمه ، فلم يحفل هو به ؟

على أنه قد يعلق بذهنه رغم ذلك جانب من الشك فيما قد يلحق به ، فإن أمه تغفر عصيانه يوماً ، لكنها فى اليوم التالى قد تترك ما فى يدها كى تنزل به عقاباً سريعاً لا شك فيه . وإذا اضطرب النظام اضطرب عقل الطفل ، وسرعان ما تصبح تلبيته لأى أمر رهينة بمقدار اهتمامه بما كان يشغله ورغبته فى الروغان والمخاطرة بالهرب من العقاب .

وإذا كان بين الوالدين خلف فى الرأى خاص بطريقة تنشئة الطفل نتج عن ذلك اضطراب فى النظام سرعان ما يستغله الطفل ، كما يبدو من الحالة الآتية :

ل . . . طفلة فى الثانية والنصف استعصى قيادها تمام الاستعصاء على أمها . وهى الطفلة الأولى التى رزق بها والدان شابان لا يستطيعان الاتفاق ألبتة على كيفية تربية ابنتهما . فالأم تود أن تسير وفق خطة منتظمة ، لكن الأب يسير وفق أهوائه : فهو يلاعب الطفلة ويعابثها ويفسد كل ما تقوم به الأم لتدريبها على النظام ، ولا يبذل أحد منهما أى جهد لضبط الأمر ، بل إن ما يفعله أحدهما يخالفه الثانى ، والطفلة تقتحم سبيلها برغم كل منهما ، وهى بنت كثيرة الحركة موفورة القوة واللطف كانت وهى طفلة فى المهد تبكى وتصيح ساعات بأكملها ، ولا تهدأ إلا إذا حملت وسار بها حاملها حتى فى الليل . ولما كانت قد ألفت إسباغ الاهتمام عليها تعودت أن ترقبه من كافة الناس . وهى طيلة النهار تتسلق كل شىء فى المنزل ، وتدفع أمامها كل ما تستطيع . أعد لها أهلها أكداساً من الألعاب مرضاة لها ، غير أن شيئاً من هذه الألعاب لم يكن يتناسب وصغر جسمها حتى تستطيع أن تعبث به .

والأب رجل طيب لا يعقد الأمور ، يظن الأم مسرفة فى الاهتمام بنشاط

الطفلة البالغ بينما يراه هو أمراً عادياً . وها كم مثلا صارخاً يدل على اضطراب الأب فيما يتصل بالنظام ؛ فبينما كان يحمل الطفلة على كتفه رأت وعاء فيه زبيب على أحد الأرفف فطلبته ، فرفض أبوها أن يعطيها إياه وأنزلها عن كتفه . فتسلقت مقعداً صغيراً ثم مقعداً كبيراً ، ووصلت إلى الرف وتناولت الزبيب ، كل هذا وأبوها يراقبها وهو مغرق فى الضحك ، حتى نزلت ووعاء الزبيب فى يدها فأخذه منها . فارتمت الصغيرة على الأرض وأخذت تصيح وتصرخ غاضبة محنقة ، فما كان منه إلا أن ناولها حفنة من الزبيب سرعان ما قذفتها فى وجهه . . . والطفلة ذكية سريعة التعلم ، لكن الفرصة لا تواتيها إلا قليلا فى المنزل لاكتساب العادات الطيبة .

وقد يلجأ الطفل إلى الإفادة من عصيانه واستغلاله إذا أكثرت أمه التوسل والإغراء ، كأن تقول : « إذا أكلت الآن عشاءك كالأولاد الطيبين أعطيتك بعض الحلوى » ، أو : « إذا كففت عن هذه الضوضاء منحتك قرشاً » . فإذا عرف الصغير أن هذه العروض تتبع عدم تلبيته للأوامر الأولى التى تلقى عليه ، كان من الطبيعى جداً أن يعمل على الحصول عليها قبل أن يلبى تلك الأوامر . بل إنه إذا تشبث بموقفه فقد يكون كسبه أكبر ، وقد يستطيع إلى ذلك أيضاً أن يجتذب من الانتباه والاهتمام بأمره ، بهذه الطريقة ، جانباً أعظم مما يعود عليه لو أنه استجاب لما يطلب منه فى التو .

وفى الحالة الآتية وجدنا أن صبيين صغيرين جداً ، ممن أغرقوا فى العصيان ، كانا يستمتعان كل المتعة بما لهما من تفوق وصدارة .

ح . . . كان ولداً جذاباً ، شديداً ، يبلغ الخامسة من عمره تتألق عيناه ويفيض حباً للإيذاء . كان لطيفاً ظريفاً « إذا أحسن السلوك » ، غير أنه فى بعض الأحايين عاص عنيد متوقح لا يتورع عن أية « شقاوة » تجذب إليه الانتباه . كما كان بارعاً فى التفنن فى ألوان الأذى حتى يحنق بها غيره . وكان

له أخ أصغر منه يبلغ الثالثة والنصف ويقلده تقليداً محكماً فى كل فعاله السيئة .
وقالت لنا الأم إنها أقبلت على العيادة لأنها قد عجزت تماماً عن تهذيب أبنائها ، وإنها تخجل كل الخجل من عجزها عن الإمساك بزمامهم ، كما يحزّ فى نفسها ما يبدو منهم من سلوك سيء إذا وفد عليها فى المنزل أحد من الزوار . ولما ذهبت مرشدة اجتماعية من العيادة لزيارة المنزل أخذ الصغار . وهم يتضاحكون ويتصايحون فى توقح ، يقذفون بكتل من الورق إلى الحجرة ؛ ثم قلبوا سلة الغسيل وأخذوا ينثرون الملابس فى أنحاء الغرفة ، كل هذا والأم تجاهد عبثاً أن تمنعهم عن ذلك . وكانت هى سيدة راجحة العقل قد بذلت ما فى وسعها لتنشئة صغارها نشأة طيبة ، وكان الوالد رجلا يهدأ إلى ذاره ويقوم بما ينبغى من عون لزوجه فى ضبط قياد الأطفال ، ورغم هذا لم يكن واسع الحيلة ، لا وسيلة له إلا العصا إذا ضاق ذرعاً بسلوك الأطفال . وكان بالدار إلى جانب من ذكرنا أجداد الأطفال وعمّان لهم ، وكان العجائز يحاولون توجيه الأم فى تنشئة الصغار بينما كانوا هم يقومون بتدليلهم وعقابهم . كذلك كان العمّان لايلتزمان خطة ثابتة فى معاملة الصغار ، يعبثان معهم ويدفعانهم إلى الشرود والجلبة ، ثم ينفد منهما الصبر وينزلان على الأم نقداً وتقريعاً لعجزها عن ضبط قياد أبنائها .

وقد بدأت الشكوى فى حـ . . . عقب إصابته بشلل الأطفال الذى وضعه موضع الرعاية من كل أفراد الأسرة حوالى عام بأكمله . وقد عرف أنهم يؤثرون أن يخضعوا لرغباته بدلا من إثارة غضبه . فإذا سارت الأمور وفق هواه وكان مركزاً لانتباههم استقام سلوكه ، أما إذا أحنقه أحد أو تجاهل أمره لجأ هو إلى نوبات الغضب أو « الشقاوة » حتى يجتذب من الانتباه ما يشاء . وقد اشتد استبداده شيئاً فشيئاً حتى صار يتحكم فى أهله كافة . أما مشكلة أخيه الأصغر فكانت تعود كلها تقريباً إلى تقليده إياه ، وإلى رغبته فى أن يشاطره متعة هذا العبث وتلك المكانة . . . فوضحنا للوالدين أن سلوك الطفلين

على سوئه كان سلوك الأطفال الأسوياء ذوى النشاط ، غير أنه ينبغى أن يتعلم كل منهما أن يكف غرائزه حتى تتسق مع الوسط الذى يعيش فيه ، وأن يعرفا بالخبرة أن سوء السلوك لن يقابل أبداً إلا بالسخط والعقاب .

وليس هناك من طريقة لضبط قياد الأطفال أسوأ من تهديدهم برجال البوليس والعفاريت والأطباء . فإما أن يبعث ذلك فى نفوسهم ما يملؤها خوفاً وخشية ، أو أن يتحقق الطفل منذ سن مبكرة أن هذا ضرب من التهديد لا غناء فيه ولا جدوى منه ، ويتحول الأمر به إلى الإفادة منه ، كأن يلجأ إلى ادعاء الخوف من الأطباء مثلا ، فيستطيع بنوبة من العويل والصراخ أن يخيف أمه حتى يتجنب بذلك علاج أسنانه أو فحص عينيه .

ولا يمكن أن تنى الأمانة فى معاملة الأطفال حقها من الأهمية ، لأنه إذا انحطمت ثقة الأطفال وإيمانهم الأول بآبائهم انهدمت الأسس التى تقوم عليها الدنيا التى يعيشون فيها ، ذلك لأنه إذا كان ما يقوله بابا أو ماما كاذباً فماذا يصدقون ؟ وكثيراً ما يكون لفقدان الثقة بهذا الشكل أثر مباشر فى إقامة الطاعة أو العصيان . وقد يلجأ بعض الآباء عامدين إلى خداع أبنائهم ، يحاولون بذلك أن يبعثوهم إلى الطاعة أو يأملون أن يخففوا واجباً كريهاً أو مهمة أليمة سوف تواجه صغارهم .

عرفنا صبياً صغيراً استطاع ، مع شدة خوفه من الألم الذى قد يحل به على يدى طبيب الأسنان ، أن يتحمل الجلسة الأولى تحمل الرجال وألا يذرف من عينيه سوى دمعة أو اثنتين . ورغم هذا فقد اشتد رعبه من الزيارة الثانية ولازمته الخشية والاضطراب . فأخذت أمه ، فى سبيل التخفيف عنه ، تقول له : « إنك لن تشعر بأى ألم فى هذه المرة » ، وكانت أمه حتى ذاك الوقت لا تقول له إلا حقاً ، فصدق قولها . وكانت الصدمة قاسية حين نزل به من الوجع ما هو أشد مما أصابه فى الزيارة السابقة . فانحطمت ثقته الكامنة ، وأصبح الخوف يتملكه

من كل أمر جديد ، ويبدو منه عدم الثقة بما يلقى إليه من أقوال ، وظهر هذا جلياً – فى ظرف آخر – عند ما ذهب إلى طبيب الأسنان بعد عدة شهور لخلع إحدى أسنانه . لكن أمه وعدته وعداً قاطعاً بأنها لن تخلع فى هذا اليوم نفسه وأنه لا ينبغى أن يخشى شيئاً ، وأنه إذا تبين ضرورة خلعها فلسوف تعمل له الترتيبات بعد ذلك لخلعها بعد تخديره . وفهم الصبى ذلك جيداً لكنه حين جلس على الكرسى فى عيادة الطبيب لم يلبث أن جن خوفاً ، ولم يمكن تهدئة روعه ألبتة ، إذ كان يرد على كل ما يقال لطمأنته : « قد قلت من قبل إنى لن أحس وجعاً لكنى تألمت حقًّا . أود العودة إلى البيت . لن يلمس أسنانى » . . . ولسوف يمر وقت طويل قبل أن يستعيد هذا الطفل ثقته بأمه ، إن كان له أن يستعيدها .

ومن اللازم حين نعامل الأطفال أن نقف على أسباب سلوكهم ودوافعها . إذ أن ما يبدو منهم استخفافاً برغبات الآباء ، كثيراً ما يكون رغبة جامحة بنفس الطفل تدفعه إلى تقديم العون لأمه أو أبيه . حُذرت طفلة صغيرة فى الرابعة من عمرها مرة بعد مرة من اللعب بالماء ، فلما وجدها أهلها يوماً فى المطبخ تقطر ملابسها جميعها ماء عوقبت لعصيانها . لكنهم عرفوا بعد ذلك أن ما كانت تنتوى فعله هو ملء دلو من الحوض وتناول خرقة لتنظيف باب المنزل ، كما رأت أمها تفعل مرة ؛ فوقعت واندلق الماء ونزل بها العقاب ، وليس من شك أنه بدا لها أنها قد عوقبت جزاء لها على أن حاولت تقديم العون وبذل المساعدة .

وهناك الصبى الصغير الذى نهره أهله عن اقتلاع نباتات الحديقة . فرأى أباه يوماً يجتث الحشائش الصغيرة من حوض الزهور ، فما كان من الصغير بعد ذلك ببضعة أيام إلا أن اقتلع – رغبة منه فى عون أبيه – كل شجيرات الجزر الجديدة تاركاً كل النباتات التافهة الكبيرة .

وتُفرض على الأطفال بعض القيود التى يكون من المحال عليهم استحالة مادية أن يقوموا بها . فمن الميسور أن يقال للطفل « لا تتحرك» و «اقعد ساكناً » . لكن مثل هذه النواهى إلى طفل سليم يفيض حياة وقوة ، إنما هى أمور عسير عليه كل العسر أن ينفذها لأكثر من دقائق معدودات . ذلك لأن عضلات الأطفال الصغار تنمو وتزيد أبداً ، ومن اللازم أن نترك لهم حرية العدو والوثب والصياح واللعب لأن الطبيعة تستلزم هذا . ومن الخير أن يخصص لهم جانب من المنزل أو من فنائه ، يبعدون فيه عن أكثر الأخطار ويتخففون فيه من أصفاد القيود ، حيث يستطيعون أن ينفسوا عن الطاقة الحيوية التى تجرى فى أبدانهم ويفتحون « صمام الأمن » دون أن يعوقهم انتهار أو يلاحقهم تأنيب .

وقد يستخدم الخوف من العقاب العاجل أو الآجل وسيلة لمنع الفرد من خرق القوانين وعصيان النواهى . على أنه ليس لهذا الخوف سوى قيمة إنشائية تافهة ، لأنه يعجز عن استثارة المرء إلى العمل نحو أية غاية معينة نافعة . فالخوف أمر يمنع ويكف ويعوق ، لكنه لا يدفع أو يبعث النشاط نحو وجهة إيجابية منتجة . ومما يكفل للطفل أن يفيد من تنشئته نشأة لا تعوقها القيود والنظم أن تهيئ له البيئة كثيراً من ألوان الثواب والعقاب . ومن اللازم بالطبع أن لا ينزل بالطفل من العقاب ما قد يلحق به ضرراً ، وما يكون فيه من التحيف والعنف ما لا يتناسب وما ارتكبه .

وليس هناك من خلاف بيننا وبين أولئك الذين يقولون إن العقاب البدنى من حين إلى حين له نفعه فى بعض الأحوال خلال السنوات الأولى . فإن ضربة حادة على الأيدى قد تجدى كثيراً فى تذكير الطفل بأن بعض الأفعال محرمة عليه وأنها تجلب عليه السخط وقد تلحق به الألم . ومع هذا فنحن موقنون بأنه يمكن استبعاد العقاب البدنى تماماً من أساليب تأديب الطفل دون خسارة كبيرة .

ذلك لأنه مقابل كل طفل واحد يتقدم سلوكه من خشية العقاب ويعينه ذلك على أن يتخذ من العادات الطيبة ما يدوم وما يجدى عليه ، ينشأ عشرة آخرون من الأطفال على العناد والسخط والعصيان إذا اتخذنا معهم عين الطريقة . فالكثرة الكبيرة من الأطفال لا تحفل بهذا الضرب من التأديب ، لأنا إذا ابتغينا أن يكون للعقاب البدنى أثره الرادع كان من اللازم أن يكون موجعاً ، وإذا ابتغينا أن يكون باعثاً يردع الطفل الخاطىء عن تكرار فعل مرذول وجب أن تكون قسوته على الدوام أمراً لا يتناسب بتاتاً والذنب الذى استلزم إنزال العقاب به . لأن العقاب البدنى ينزل بالطفل عادة لتحقيق غرضين : أولهما عقاب الطفل على ما ارتكب من قبل ، والثانى ردعه عن تكرار عين الفعل فى المستقبل . أى أننا بعبارة أخرى ننتظر أن يتعرض الطفل لعين الإغراء الذى دفعه إلى ارتكاب فعلته . وفى هذا العمل نفسه ظلم صارخ نلحقه بالطفل ، لأنه ليس من العدل فى كثير أن ننزل به العقاب عن زلة ننتظر ارتكابه إياها . حتى لكأننا فى ذلك نحكم بالحبس ستة أشهر على أحد الأشخاص لارتكابه إحدى الجرائم ، ثم نزيده ستة أشهر أخرى حتى لا تسول له نفسه مرة ثانية ارتكاب عين الجريمة .

والعقاب البدنى بالصفع والوكز ، حين ينزله الآباء بأبنائهم — كى يثبتوا لهم حنقهم على سوء سلوكهم — هو من الناحية الأخرى أمر لا قيمة له ، لأنه لا يبعث فى الطفل سوى السخط والعصيان وكثيراً ما يبعث فيه الرغبة إلى « تسوية حسابه » مع من أنزل به العقاب .

وإن المرء كثيراً ما يلقى رجالا قد أفعمت نفوسهم سخطاً على كل ألوان الرياسة ، الأمر الذى يدل على ما علق بنفوسهم من ضروب التأديب القاسية التى أنزلت بهم فى حياتهم من قبل .

وينبغى ألا يغيب عنا ألبتة أنا بإنزال العقاب نواجه المشكلة التى تنتج عن

خوف الطفل من الألم البدنى ، وما دام الأمر كذلك لم يكن للعقاب سوى أتفه الأثر فى عون الطفل على توجيه نشاطه وفق الأساليب الاجتماعية وفى مساعدته على التفكير فى الحياة التى تفرض عليه أن يعيش مع غيره . وما أسعد الطفل وأكفأه لو أنه تعلم الطاعة – ولو على مهل شديد – بأن يسير فى حياته وفقاً لمطالب الجماعة سواء أكان ذلك فى المنزل أم الملعب أم المدرسة .

وليس من النادر أن ينقلب الأطفال من الطاعة إلى العصيان وإلى الاستخفاف بكل القواعد والنظم . وكثيراً ما يقع إذا واجه الطفل موقفاً جديداً عليه . مثل دخوله المدرسة أو مرض أمه ، أو تغيير مربيته ، أو وفاة أبيه . لكن الطفل إذا كانت تنشئته قد أحسنت ولم يكن الخوف هو الدافع القوى الذى يبعثه إلى السلوك الطيب ، كان عصيانه فى العادة أمراً عابراً لا يبقى غالباً سوى بضعة أيام .

ومما يدفع الكبار إلى بذل خير جهودهم ما يلقونه من عوض عما يبذلون من جهد ، والمرء قد يجد جزاءه فى القوة أو المال أو الجاه أو اللذة فى القيام بالعمل . هكذا يجد الصغير ما يبعثه إلى السلوك الطيب فيما يجدى عليه هذا السلوك من جزاء . لكن هذا الجزاء ينبغى أن يكون متعدد الألوان مختلف الصنوف . ولا ينبغى أن نبخل على الطفل بالرضا والثناء ، على ألا نسرف فى ذلك فيترقب منا الثناء على كل أمر يؤديه ، كذلك لا بد من إثابته على حسن السلوك بجانب من الحوافز المادية ، فبضعة قروش توضع فى الحصالة ، أو رحلة إلى حديقة الحيوان ، أو حلوى يشتهيها الصغير ، دلالات محسوسة تثبت للطفل أن السلوك الذى يتفق والأصول المرعية فى المنزل يجلب عليه الرضا والعطف . بل إن كثيراً من الضرورات التى ينبغى أن يزود الآباء بها أبناءهم مثل حذاء جديد ، أو معطف ، أو قميص ، بل ذهاب لقص الشعر عند الحلاق يمكن أن تكون

غايات يتطلع إليها الطفل ويعمل على الاستمتاع بها لو أحسن الآباء عرضها عليه وحببوها إلى نفسه .

وينبغى أن نؤجل الثواب المادى فترة كافية حتى يبذل الطفل جهده مخلصاً فترة من الزمن كى يصل إليه ، فنى هذا أهمية الجزاء؛ إذ هو يفرض على الصغير أن يهمل بعض اللذة المؤقتة أو المتعة العابرة فى سبيل الحصول على ما هو أهم منها فيما بعد . وفى الجهود التى يبذلها لتربية الطفل – التى ينبغى أن تكون مشبعة أبداً بالصبر وباحترام دوافعه الفطرية التى تنجو جميعها نحو إرضاء ذاته – ينبغى أن ندفعه إلى الإيمان بأن الغايات التى نعمل على تحقيقها نحن الآباء إنما هى خطط قد رسمت بعناية حتى تؤدى إلى خيره ، وأنها ليست نزوات تهفو على الكبار يودون بها إظهار ما لهم من سطوة عليه والعمل على مضايقته . فإذا تبينت طرائق الآباء فى اكتساب الطاعة ، وأحسنوا وضع خططهم فى فرض النظام ، لم تلحق رغباتهم ونواهيهم شائبة من الشك والتردد الذى يسهل على الطفل كثيراً أن يقف عليه .

ومما يؤسف له أن التأديب كثيراً ما ينزل بالطفل فى الوقت الذى تصل فيه مقاومته إلى أقصاها ، أى عقب ارتكابه للذنب مباشرة حين يكون مستعداً للدفاع . فيكون كل همه منصرفاً إلى تبرير سلوكه . ولما كان أخطر ما نهتم به هو الدوافع لا الفعل نفسه ، كان هذا أسوأ الأوقات للوقوف على هذه الدوافع وعلى خير ما يشبعها من السلوك الذى يتفق ورغبات الآباء .

وكثيراً ما يكون من العسير إنزال العقاب بانتظام فيعرف الطفل بخبرته أن كثيراً مما يهدد به لا يتحقق ، ويقع هذا خاصة حين يبلغ الأطفال السن التى يقضون فيها جانباً من وقتهم خارج الدار فلا يكون سلوكهم موضعاً للرقابة المتواصلة ، وحين يستطيعون أن يلصقوا الذنب بغيرهم من الأطفال . ومع خشية الصغير من العقاب فإنه لا ينزل به إلا وفق مزاج الساعة عند الآباء . فلو أن

اليوم كان قد مر على الأم وهى منشرحة غير حانقة فقد يخف العقاب أو يؤجل أو يلغى بأكمله . أما إذا كان أحد الوالدين محنقاً أو ضيق الصدر فلا شك فى توقع الجزاء سريعاً ، بل قد يكون فيه من القسوة ما لا حاجة إليه . أما الرضا والثواب فهى أمور يملك زمامها الآباء ولا تعتمد كثيراً على اضطراب انفعالاتهم ، ولهذا فإن الأرجح أن يعدلوا فى منحها .

وليست قيمة الطاعة فى قدرة الطفل على الاستجابة استجابة صريحة لنواهى من بأيديهم الأمر ، بل فى قدرته على الاتساق مع المستويات التى اكتسبها من روح السماحة وإحقاق الحق التى تمثلها فى أهله ومعلميه وأصدقائه .

والحق أن الطفل قبل إدراكه فكرة الطاعة وما يغلب عليها من تجريد، ينبغى أن يعرف الطاعة فى أمور خاصة معينة. على أنه من الخير أن نذكر أبداً أن هذا الخضوع ليس غاية فى نفسه ، فإذا تكاملت مستويات الطاعة ومثلها فى شغاف شخصية الطفل أصبحت تعمل أخيراً دون توجيه أوامر من الخارج ، وهذه هى الطاعة الحقة ، ولا يمكن أن ينشأ هذا الميل فى الطفل بإثارة خوفه أو مواصلة وعظه لأن الطاعة أمر أسمى من العادة ، إذ هى خاصة من خصائص الخلق ، وهى لهذا تؤثر فى كل العادات الأخرى . وهى على بطء نموها تتقدم وتتضح حتى إنه ما بلغ كثير من الأطفال سن الثامنة يكونون قد اكتسبوا الأصول الأساسية للطاعة واتخذوا على الأغلب لأنفسهم مثلا معينة للسلوك يعتزون بها ويدافعون عنها .

ومن الخير أن نذكر أن كثيراً من خصائص الخلق الثمينة مثل الدأب وحب الاستطلاع تناهض الطاعة المطلقة ، وأن هناك خطراً من المبالغة فى أهمية الطاعة الكاملة . وقد يكون الطفل النشيط المقدام المثابر المنبسط أقل مرونة من مثيله الحيي المتحفظ وأعسر قياداً وأصعب مراساً ، لكن الطفل الأول مع ذلك سوف يكون إنساناً أنفع للمجتمع كثيراً إذا أحسنت تنشئته .

وكثيراً ما يبالغ الآباء فى أهمية الطاعة لأن السلطة والنهى يبعث فيهم شعوراً بالرضا ، وإذا عجزوا عن فرض الطاعة استشعروا الخيبة والإخفاق ، ولما كانت الطاعة أمراً يهم الآباء فهم كثيراً ما يعنون بها عناية كبيرة ، وفى سبيل فرضها يقضون على بعض خصائص الخلق التى قد تجدى على الطفل كثيراً فى مقبل حياته . واست بهذا أخفض من قيمة الطاعة ، لكنى أنوه بأنها كثيراً ما تتحقق بعد أن تبذل فى سبيلها تضحيات لاتتناسب فى شىء وما لها من قيمة.

فإذا أردت غرس عادة الطاعة فتوفر أول كل شىء على دراسة ابنك ، وقف على ما يفكر فيه ، واعرف كيف يستجيب لما يعرض له .

وجه إليه قليلا من الأوامر التى أحسنت التفكير فيها ، وتحقق من تنفيذها ، فالأمر إذا ألقى ينبغى تنفيذه . وتجنب الاستبداد والصرامة فإن الأطفال يكرهون السطوة قدر كراهية الكبار إياها .

اجذب انتباه الطفل ، ثم وجه إليه التعليمات بسيطة واضحة واشرح له ، إن أمكن ، سبب ما تطلب منه . فالطفل إذا كان قد تعلم بخبرته ألا يطلب منه سوى المعقول من الأمور ، أسرع إلى تنفيذ المطلوب منه إذا استلزم الأمر سرعة العمل .

اكتسب اهتمام الطفل ، وأوقفه على قيمة العمل المطلوب ، وأظهر الاهتمام بما يحققه ويصل إليه .

اطلب إليه ما تود فى صيغة الإيجاب لا النفى . استخدم لفظ « افعل » بدلا من « لا تفعل » . واستهوه إلى ما يجذب اهتمامه بعيداً عما تنهاه عنه . ووجه انتباهه إلى غيره .

فكر مليًّا فى وعودك قبل أن تعده بها . فإذا وعدت فلتف بوعدك ، أو فلتبين العلة فى خلف الوعد حتى تستبقى ثقة الطفل بك .

ولتكن ثابتاً تلتزم عين القواعد ، فلا تسمح مرة بما تنهى عنه مرة أخرى ؛

فلسوف يتعلم الطفل بذلك الطاعة إذا كان ما يلقى إليه من الأوامر معقولا ، ولأن الخضوع يؤدى إلى الرضا عنه وهو يتطلع إلى هذا الرضا أكثر من تطلعه إلى الثواب المادى .

وفوق كل هذا ينبغى أن تتوقع الطاعة. فلا تدع الطفل يشعر أنك تتشكك فى استجابته أو يحس بتأكدك من أنه سوف يعصاك . فكل امرئ يود لو حقق ما ينتظر منه ، وخاصة لو كان طفلا . فمن اليسير عليه أن يكون موضع فخرك به وثقتك فيه ، قدر ما هو يسير عليه أن يكون جديراً بسمعته إن عرف عنه أنه أشد الأطفال عصياناً بين أبناء الجيران والأقارب .

الفصل التاسع

الغضب

قد تكون تنشئة الطفل أقل عسراً لو أنها كانت مهمة لا تتعدى تهذيب الخصائص التى تجدى على الفرد حين يحاول أن يكيف حياته ، وأن يستأصل شأفة الميول المرذولة التى تقف عثرة فى سبيل نموه . غير أن الشخصية المتكاملة لا تقوم بأكملها على ما يمكن أن يسمى بالميول الاجتماعية مثل الحب والتعاطف والأمانة والإيثار ، إذ أن الفرد يستشعر من الأمور ما هو أكثر سذاجة من تلك كانفعالات الغضب والكراهية والغيرة . فالشخصية المتزنة التى تفيض كفاية وسعادة إن هى إلا مزيج متناسق ؛ من هذه الانفعالات ومن تلك الخصائص الخلقية ، ويصدر عنه ضبط النفس وعادات التوافق . فإذا كان المرء من هذا الطراز كان من المألوف أن يقدر فى تصرفاته ما يمس منها غيره سواء أكان ذلك فى المنزل أم فى المجتمع أم فى العمل ، حتى يصبح موقفه ووجوده بين أصدقائه وجيرانه وزملائه فى عمله أصلا لازماً من الأصول التى يقوم عليها المجتمع ، كما تشيع فى علاقاته الهناءة ويصدر عنها الرضا والخير .

ومن ثم لم نكن بصدد مشكلة نرجو من حلها استئصال ميل غريزى كالغضب ، بل أن نصطنع التربية والتدريب وأن نساعد الطفل بذلك على ضبط ذلك الميل حتى يتمكن الصغير من السيطرة عليه ، بدلا من أن يسيطر الميل على الصغير . وإذا أردنا أن تكون لهذه السيطرة قيمتها وجدواها وجب أن تكون صادرة من نفس الطفل لا مفروضة عليه من الخارج . وما الغضب الذى يكبت يوماً بعد يوم خوفاً من العقاب إلا انفعال حبيس يتراكم ويشتد حتى

يصل إلى حد الانفجار ، وإذا به كالآلة الجهنمية تنفجر دون توقع منا أو انتظار .

ولا ينبغى أن يفوت الآباء أن الإغراق فى الاهتمام بتنشئه الطفل فيه من الخطر الداهم قدر ما فى إهمال ذلك ، وأن هناك من الميول التى تتنافى وأصول الحياة الاجتماعية ما يظهر من الطفل أثناء نموه ، مع أنها فى الواقع دليل على سوائه وسلامة ميوله . فما أشد تفاهة الصبى الذى لا يغضب لشىء ، وما أكثر غباء الطفل وبلادته إذا لم تظهر إرادته بعصيانه الأوامر أحياناً ، بل ما أعجب طفلا لم يدفعه حبه للاستطلاع فى بعض الأحايين إلى الإتلاف والتحطيم . وما أتفه عقلية الفتى الذى لا يعمل خياله ويقيم العوالى والقصور ، بل إنا لنجد أن الطفل الذى تخلو نفسه من نوازع الخطيئة والشر إن هو إلا امرؤ تبلد، لا يستجيب لما يحيط به ، وقد خلت نفسه مما يقوم بنفوس الناس ويدفعها إلى العمل والنشاط .

ومع هذا فإن الغضب قد يصير قوة تطغى وتعسف بحياة الفرد ؛ لأنه انفعال شديد هو العلة لكثير من أنواع التشرد التى قد يرتكبها الأطفال ، وهو الدافع إلى ارتكاب نسبة غير صغيرة من الجرائم الخطيرة فى حياتهم بعد ذلك . وهو أحد خصائص الشخصية التى ينالها الصقل والتهذيب أبداً من أولئك الذين يحنون على الطفل ويعنون بأمره . ونحن فى هذا الفصل نعرض لظروف البيئة ومواقف الآباء التى تؤدى إلى إثارة هذا الانفعال حتى يصل الأمر به إلى الإزمان والشذوذ .

كثيراً ما يثور الغضب إذا عطل أى ميل من الميول الغريزية أو سدت أمامه السبل . فما أكثر ما نرى طفلا صغيراً يثور غاضباً على الكتل الخشبية التى لا تريد البقاء واحدة فوق أخرى ، أو على قطاره الصغير إذا رفض المسير والحركة ، وإذا بالصغير يشرع فى كسرها وتحطيمها لأنه عجز عن تركيبها

أو دفعها إلى الحركة وفقاً لرغبته ، والكبير حذو الصغير يبدو من كليهما الغضب إذا وقفت أمام رغباته عقبة أو جرحت كبرياؤه واعتزازه بنفسه ، بل إن الخوف إذا لم يجد له متنفساً فى الهرب قد يؤدى إلى إثارة الغضب ، ومثل ذلك فى الحيوان إذا سدت أمامه السبل . فالغضب إذن ينتج عن عدة أسباب فى البيئة التى يعيش فيها الفرد وقد يظهر على أشكال كثيرة متباينة .

وقد يكون غضب الطفل فى بعض الأحايين رد فعل طبيعى على المواقف الواضحة وضوحاً لا خفاء فيها كثيراً ، كهذه الحالة التالية التى كان جل عوج الطفل فيها استجابة على إحناق أخته الصغيرة إياه .

ر . . . طفل فى السابعة من عمره . هو الولد الأكبر فى الأسرة . كان والداه فى أزمة منذ مولده لمرض الأب ، وللفاقة التى لازمتهم عقب ذلك . لكن الوالد قد شفى وابتسمت لهم الدنيا وأخذوا يشعرون بما فى الحياة من متعة . غير أنهم يقولون إنهم يؤثرون العودة إلى فقرهم الأول وما كان فيه من هدوء وسلام على الجلبة المتواصلة وهذا العناء الذى يلحقهم من ابنتهم الصغيرة التى حالما استطاعت أن تمشى وأن تتكلم أخذت فى مضايقة أخيها . وفى سن الرابعة بدأت تتخذ العصيان البالغ والتحطيم ديدناً لها . ومن النادر أن يبدو عليها الرضا إلا إذا كانت بسبيل إحناق أحد الناس حتى تسترعى بذلك الأنظار إليها . فإذا عوقبت ترك العقاب فى نفسها مرارة ورغبة فى الانتقام ، كما أنها تصر أبداً على الاستحواذ على أية لعبة يشرع أخوها فى اللعب بها ، فإذا منع عنها ما تود تعالى صياحها حتى تفوز بما تريد .

وعند ما أحضر ر . . . إلى العيادة قيل إنه صبى يعوزه التهذيب ، وإن له طبعاً صعب المراس عسير القياد ، وإنه أبداً متوقح سليط بإزاء أمه . كما ذكرت أمه أنه فى هياجه كفيل بأن يرتكب أسوأ الأمور ، فهو يقسو فى ضرب أخته ويرميها بأى شىء ولو كان سكيناً حاداً ، حتى لقد واصل دقها مرة

على ظهرها حتى اسود جلدها وازرق ، وهكذا دأبه معها لا ينقطع عن شجارها وعراكها ، فألفينا الصبى طفلا صغير الحجم ، فيه لطف ، وفى شخصيته اتزان ، يهوى ما يهوى الأسوياء من الصبيان ، ويفيض نشاطاً وحيوية لا تجد ما ينبغى لها من منفذ تنصرف خلاله . وكان الصبى وأخته يفتقران إلى الأصحاب فى خارج الدار . ولم يكن الصبى مسرفاً فى ميله إلى الغضب ، لكن نفسه كانت تأبى عليه إلا أن يحنق إذا ما عذبته أخته ، كما كانت تفعل أبداً . وخيل إلينا أنه لما كان معظم سلوكه استجابة لما يلقاه من كيد أخته ، كان من المحتمل أنه سوف يصلح من شأنه لو أنها قد أصلحت أمرها .

وفيما يتصل بسلوك الأطفال لا ينبغى أن نكتفى بالتحقيق من أن فعلا معيناً كان مظهراً من مظاهر الغضب ، بل يجب إلى ذلك أن نحدد السبب الذى أثار الغضب إذا استطعنا ذلك . فلو أنه قد عرضت علينا مشكلة طفل قد دأب منذ أسبوعين على تحطيم زجاج النوافذ ، ووجدنا أنه لم يكن يحطم الزجاج إلا عند غضبه وهياجه ، كان علينا بعد ذلك أن نكشف الظروف والأحوال التى تحيط به فتؤدى إلى إثارة انفعال الغضب . فقد نجد فى هذه الحالة بالذات أن الغضب كان نتيجة من نتائج الغيرة على أنه قد يستثار كذلك إذا شعر الصغير بعدة أمور أخرى : مثل السخط على عقاب يعتقد الطفل أنه لا يستحقه ، أو مثل الخيبة فى دروسه أو ألعابه . ولهذه النقطة أهمية أساسية فى دراسة مشكلات الأطفال التى يشيع فيها الغضب ، لأن لب الأمر ليس الغضب فى ذاته إذ أنه ليس سوى علامة تنذرنا بالخطر وتدفعنا إلى البحث عن الأسباب العميقة التى تبعث إليه .

ويعتمد ضبط الغضب على تكوين بعض أشكال الكف والمنع ، فإذا أردنا أن ينشأ الطفل إنساناً نافعاً يحكم قياد نفسه كان من اللازم أن نغرس فيه منذ مطلع أيامه تلك القوى التى تكفه وتمسك زمامه . وأهم ما ينبغى أن يتعلمه

الطفل هو أن الميل الطبيعى إلى الانتقام والأخذ بالثأر لا يجديه نفعاً .

ومن مظاهر الغضب الشائعة فى الأطفال ما يسمى بنوبات الطبع ، وهو انفجار لا يمكن ضبطه يدفع إلى الرفس والصياح ، بل هو مظاهرة تمثيلية بدنية تدل على حنق الطفل . وعلى خلاف هذا نجد بعض الأطفال إذا غضبوا لازمتهم الكآبة والعبوس . والموقف الثانى هو أكثر الموقفين إيذاء للطفل ، لأنه كثيراً ما ينتهى به إلى الهم وإلى ضروب من الهواجس المريضة التى يشيع فيها الضغن ، حتى لقد تدفع تلك الميول بالطفل شيئاً فشيئاً إلى الانطواء حول ذاته ، وتؤدى إلى ضياع طاقته فى أفكار مخبوءة عما يقع به من مظالم وهمية ، وما يحل به من اضطهادات هى نسيج خياله . وهكذا يصير الطفل مرير النفس محنقاً من الحياة . ومع هذا فإن نوبات الطبع تنتهى فى العادة إلى مظهر من مظاهر السلوك الممقوتة تبقى حيناً ما ، ثم يصفو الجو ويعتدل الطفل حتى تحين ظروف أخرى تدعو إلى إثارة الغضب .

وفى الحالة التالية نرى أن نوبات الطبع بالنسبة إلى مستقبل الطفل أمر ثانوى الأهمية إذا قورن بالكآبة التى تلازم هذا الصبى .

. . . طفل فى الخامسة من عمره نشيط يحب التعلم والعمل ، يستطيع أن يرتدى ملابسه بنفسه ، ويميل إلى مساعدة والدته . يحب اللعب خارج المنزل مع أخيه وأخته اللذين لم يكن له من رفاق سواهما . يبدو منه ابتكار يمتاز عن ابتكار غيره من الأطفال ، إذا أراد الحصول على ما فى حوزتهم اغتصبه منهم ، فإذا غضب أصابته نوبة من نوبات الطبع . فألقى بنفسه إلى الأرض يرفس ويصرخ ، ويحصل بهذه الطريقة عادة على ما يرغب . تثور بين الأم والجدة اللتين يعيش معهما الأطفال عدة معارك فى اليوم الواحد عن النظام وأصول التأديب ، لأن الجدة عجوز صارمة نافذة الصبر تقول فى حضور الفتى الصغير إنها تعجز عن عمل أى شىء معه وإنه « ولد فظيع » ، وهو يستمتع بهذا متعة

واضحة . أما الأم فهى على النقيض من ذلك سيدة لينة تميل إلى التسامح مع الأطفال مولعة « بأن تدللهم » و « تكره أن تراهم يكبرون » . عند ما أخذ الغلام لأول مرة إلى روضة الأطفال بدا عليه الذعر وأخذ يصرخ ويرفس عند رؤيته المعلمة كما رفض أن يندمج مع الأطفال الآخرين فيما يعملون . وهو فى المنزل عادة كثير الشغب والجلبة . ، غير أنه صامت حانق فى الخارج ، يعبس ويتجهم ويقاوم أى طلب أو عرض . يكفى أحياناً أى رجاء يوجه إليه مثل « تعال هنا » أو « شد حيلك » حتى يتجهم معظم الصباح . كان يقاوم أول الأمر عند أخذه إلى المدرسة ، وكثيراً ما كانت أمه ترافقه حتى باب المدرسة فلا تكاد تعود إلى الدار إلا لتجده قد سبقها فى العودة ، غير أنه يذهب الآن وحده ، وإذا كان بالمدرسة لازمه ، أغلب الوقت ، عبوسه وكآبته . . . ونحن نرى أنه يجب على المعلمة فى هذه الحالة أن تدبر وسيلة تتجاهله بها أو تعزله عن غيره ؛ حتى تتغلب بذلك على موقفه لأن فى ذلك ما يقنعه بأن هذا الموقف لا يجديه نفعاً أو يعود عليه بشىء .

والغضب فى الكثرة الغالبة من الأطفال إذا كان متناسباً مع المثير وكان قصير الأمد كان رداً سوياً سليماً . إذ أن الطفل الذى لا يغضب بتاتاً لا بد أن يكون به جانب من الشذوذ ، فهناك من لين العريكة ومن الهدوء ما يزيد على الحد السوى . لكن الطفل الذى يلاقى المواقف الصعبة بإدمان الثورة وحدة الطبع يكون فى خطر داهم من أن يستمسك بهذه الأساليب الكريهة فى السلوك حتى فى مقبل حياته عند كبره .

وغالباً ما نجد أن نوبات حدة الطبع ، التى أصبحت عادة ، كانت تجدى على الطفل من طريق مباشر أو غير مباشر جدوى موقوتة على الأقل . وقد يكون ذلك من إصرار الطفل على رأيه . أو من تطلعه إلى جذب الانتباه من أى سبيل ، أو شعوره بإمكان الحصول على رشوة إذا هو أصر على موقفه وقتاً

كافياً . فالمظاهرة التى يقوم بها الصغير أثناء غضبه مشهد رائع مؤثر ، لايستطيع إزاءه أولئك الذين أنكروا عليه رغائبه من قبل إلا أن يسلموا له وأن يقبلوا مطالبه وشروطه ، حتى يتجنبوا من مظاهر حنقه ما لا يسرهم فى قليل أو كثير . ومن أشد ما يبعث العجب أن نرى إلى حذق الطفل فى تخير الزمان والمكان الذى يبدو الاستسلام لرغباته فيهما ضرورة لا محيص منها . هكذا يتعلم الطفل سريعاً كيف يسيطر على من يحيطون به ، وسرعان ما نجد أن النوبات التى كانت تثور أصلا من المواقف التى تسوءه قد صارت تستخدم للتخلص من أى موقف يفرض عليه الخنوع لإرادة غيره . وهذه النوبات لا تتناسب ألبتة ومقتضيات الحال ، فإن الصغير كفيل بأن يمثل نوبة من النوبات العنيفة إذا أحضرت له أمه « مصاصة » من الحلوى الحمراء بدلا من الخضراء التى أرادها ، حتى لتبلغ هذه النوبة فى عنفها مبلغ النوبة التى تصدر عنه إذا وجد ما يثير حنقه حقاً .

نعرف غلاماً صغيراً فى الرابعة اصطنع هذه الطريقة ليجذب انتباه الأسرة إليه كلما استشعر أنهم استخفوا به أو أهملوا شأنه . فإذا أخذوه بالتأديب أو لم تلائمه الأمور كانت استجابته سريعة فبدأ بإهراق الدمع ثم أعقب ذلك بالصراخ عالياً . وإذا لم يجده ذلك نفعاً رمى بنفسه على الأرض يرفس أو يضرب أى شىء اعترضه ، فإذا بلغ الأمر ذلك الحد لانت الأسرة فى العادة خوفاً مما يعقب ذلك . ومع هذا فإنهم إذا لم يحفلوا به لم ييأس الصغير إذ لا يزال فى جعبته سهم أخير . . . وإذا به يكف عن الرفس والصراخ ، ويتخشب جسمه وينقطع فتحيط الزرقة فمه ويكون ذلك خاتمة القصة ؛ فإذا بهم جميعاً عند قدميه يلقون بالماء على وجهه ، ويخففون عنه ويعدونه بكل ما يرغب ، مهما كان فى ذلك من ضيق لغيره ، وما إن تتحقق رغائبه حتى ينصرف إلى شأنه . وقد يبدو هذا لمن يألف تلك النوبات مبالغة وإسرافاً فى الوصف ، لكن الحق أن ليس فيه

من المبالغة شيء، فهذه النوبات مروعة حقًّا تتطلب هدوءاً وعزماً قويا للوقوف فى وجه الطفل فى مثل هذه الأحوال .

وليس هذا سوى قليل من الأسباب الجلية التى تؤدى إلى نوبات الطبع ، لكنه لا بد أن نذكر أن هناك أسباباً أكثر خفاء ودقة قد لا تبدو بمثل هــذا الوضوح فى كل حين . ولنفرض مثلا أن الطفل كان يلعب هادئاً ينفذ خطة كان قد رسمها لنفسه وهو يتوق إلى إتمامها ، فإذا به بكلمة من أحد الكبار الذين لا يحفلون بما يدور فى ذهنه — يطالب بأن يقف كل خططه وجهوده أو أن يطرحها جانباً ، سواء أمكنه أن يدرك الحكمة فى ذلك أو لم يمكنه . أمن الغريب إذن أن يعبر عن حنقه على أعنف منوال يستطيع به التعبير عنه ؟

وقد لا يكون تقلب المزاج فى الصغار إلا انعكاساً لعدم الاستقرار عند آبائهم . أتنفجر أنت غاضباً ؟ أيدفعك طفلك إلى الحنق إذا أساء أدبه ؟ ألا تزال به قائلا « كفى » و « لا » حين لا يستلزم الأمر ذلك حقًّا ؟ ليس من المجدى أن تحاول فرض الطاعة بالصياح فى وجه الطفل كما يفعل كثير من الآباء ، فإنما يثيره هذا ويزيد هياجه ويجعله من ثم أعسر قياداً . ولا يعوز الطفل وقت طويل حتى يعرف مواطن الضعف فى أهله ، وحتى يحدد تحديداً دقيقاً قدر ما ينبغى من رفس وصراخ وعويل للحصول على الغاية التى يهدف إليها . فإذا هيأ الآباء أنفسهم لاتخاذ ما ينبغى إزاء ذلك من مسلك حازم موحد ، وإذا هم أوتوا من الشجاعة ما يدفعهم إلى التسليم بأنهم هم الآخرين فى حاجة إلى تعلم ضبط النفس ، فسرعان ما ينتهى الأمر بالفوز فى المعركة .

ويغلب أن يكون الطفل الذى تلازمه هذه النوبات الحادة غير مستقر الانفعالات بطبعه ، وأن يكون من الطراز الذى يعجز عن مواجهة المقدار المألوف من الجهد والتوتر دون أن يلحق به إجهاد بالغ ، وليست نوبات الطبع سوى عرض من أعراض كثيرة للإجهاد العصبى عند الأطفال . إذ غالباً ما يسبق

تلك النوبات اضطراب فى النوم ، وتأفف فى الأكل ، وتلمس للأخطاء التافهة ، أو شكاوى من حيف زملائه فى اللعب ، أو ظلم أبويه ومعلميه . ويعنى هذا أن الطفل فى حاجة إلى قدر أكبر من الراحة والنوم ، ثم إلى فرصة أسنح وأوسع للعب خلال صحوه . فلا يجب أن يحجز فى الدار ويحرم من رفاقه فى اللعب ، لأن هذا الموقف نفسه يدفعه إلى أن يتركز تفكيره حول ذاته ، فيصير غضوباً عسير الرضا دائم التوتر ، وهو كفيل بأن ينفجر فى أية لحظة . كذلك لا ينبغى أن نجره إلى مشاوير السوق أو إلى السينما أو إلى الحفلات حيث يزيد ثورة وهياجاً .

ويجب النظر إلى نوبات الطبع فى كل حالة من حيث صلتها بالأسباب المثيرة وبشخصية الطفل . فإذا كانت النوبات دلالة على احتجاج لاشعورى ضد ما يعوق رغبة من الرغبات الأساسية ، وجب بذل كل جهد للوقوف على السبب واستبعاده ، أو لتغيير موقف الطفل نحوه . أما إذا كانت تلك النوبات من ناحية أخرى قد صارت عادة يستخدمها الطفل كطريقة ساذجة يحصل بها على ما يود ، أو هو يستخدمها لاجتذاب الانتباه أو الحصول على الرشاوى ، وجب أن نحسم القرار حتى يعرف الطفل أن لاجدوى أو نفع بعد يمكن أن تواتيه به هذه النوبات . فإذا تحدد الموقف فلن يطول الأمر بالصغير حتى يدرك أن لم يعد هناك من تسامح بإزاء أساليبه السابقة وراء الحصول على ما ينبغى ، وأن لا كسب له فى هذا بل فيه عليه خسار للرضا إذا اصطنع ذلك السلوك . إذا ما استشعر الطفل ذلك فسرعان ما ينبذ تلك النوبات . وليس هناك من طرق معينة بالذات يمكن تطبيقها فى التصرف بإزاء الغضب عند الأطفال كافة . فقد تكون مشكلة نوبات الطبع عند طفل مصحوبة أبداً بمرض بدنى ، وفى آخر بغيرة حادة من أخته الصغيرة ، بينما طفل ثالث يلجأ إليها عارفاً عامداً كى يحصل بها على ما يريد ويواصل استخدامها ما دامت تجدى عليه ، وصبى

آخر ينفس عن غضبه الشديد بتلك النوبات . والأعراض فى كل حالة من هذه الحالات متماثلة ، غير أن العوامل التى تسببها يختلف بعضها عن بعض كل الاختلاف ، والعلاج فى كل حالة يجب أن يسير فى حلقة متصلة من أشكال التكييف المختلفة .

ولا يبدو الغضب دواماً بمثل هذه الانفجارات . فهناك جانب من الحالات يطغى الغضب فيها على الطفل ، حتى يستحيل عليه وقتاً ما أن يقوم بأى فعل من الأفعال ، ومما يحسن أداء هذه الفكرة العبارات المعروفة مثل « شلّه الغضب » « اشتد غضبى حتى عجزت عن الكلام » .. وليس هذا الضرب من رد فعل شائعاً بين الأطفال ، لكنه رغم ذلك قد يوجد فى بعضهم . وكثيراً ما يبقى الانفعال ويكبت يوماً بعد يوم ، وإذا به فجاءة ودون علة ظاهرة أو لسبب تافه قد أدى إلى الانفجار ، حتى ليعجز أولئك الذين يعرفون الطفل أن يفهموا كيف أن طفلا كان هذا شأنه — حتى اليوم — من الهدوء والتحفظ يمكن أن ينفجر هكذا فجاءة كما فعل .

ويستطيع الآباء أن يتجنبوا كثيراً من هذه الانفجارات الدورية التى يخيل إليهم أنها تمتنع على التفسير إذا هم وقفوا بين الحين والحين « لعمل جرد للحساب » تمعّن فى حالة الطفل العامة : أهناك أية دلالة على التعب الجسمى مثل تقلص العضلات الكبيرة أو ارتفاعها أو اختلاج الأعين ؟ أيأكل الطفل وينام جيداً، وهل إخراجه طبيعى ؟ كيف حاله من ناحية المدرسة ورفاقه فى اللعب ؟ أيسير سيراً حسناً ؟ أيختلط بغيره من الأطفال ، أهم يكيدونه ، وإذا كانوا يكيدونه فلماذا ؟ أيلعب مع أطفال يكبرونه أم مع أطفال يصغرونه ؟ أيميل لأن يكون عسوفاً ؟ وفى اللعب أهو رياضى حقّاً ؟ ما هى واجباته خارج المدرسة ؟ أيأخذ درساً خصوصياً ولماذا ؟ أيشتد ولعه بدروس الموسيقى مثلا إلى حد يمنعه من أخذ كفايته من الرياضة فى الهواء الطلق ؟

ابحث عما يفكر فيه . ما هى مشكلاته وآماله وأسباب يأسه ؟ إذا بدا عليه الشقاء فابحث عن السبب فى عدم رضاه . فلعل الغيرة تأكله أو لعـل خوفاً غامضاً يجثم عليه ، أو لعله مهموم من المسألة الجنسية . لعله يشعر أنه أدنى مرتبة من الآخرين . فساعده حتى يرى الأمور على حقيقتها وعلى وجهها الصحيح فعلى الآباء أن يؤمنوا بأن واجبات الأبوة أسمى بكثير من تهيئة ما يكفى صغارهم من الطعام والكساء . ومنعهم من السرقة أو الكذب أو إشعال الحرائق ، فإن المهمة الكبرى على الآباء أن تشيع السعادة فى حياة أبنائهم وأن يرشدوا فلذات أكبادهم إلى كيفية النجاح فى مواجهة مشكلات الحياة اليومية .

وموقف الآباء هو السبب فى انفجارات الطبع التى تلازم جانباً من الأطفال. فهى عند بعض الصغار أمر يتعلمه بالمحاكاة كما يتعلم المشى . فإذا تعود أحد الآباء أن ينفجر غاضباً بمحضر أبنائه ، كان الأرجح أن يصدر من أحد الأبناء الكبار عقب ذلك مشهد من الحنق والغضب ينزل على رأس أحد أفراد الأسرة الصغار أو أحـد زملائه فى اللعب ، ثم يوجه نحو أبويه أنفسهما آخر الأمر .

وكثيراً ما يقاسى الطفل من سرعة الغضب عند أحد والديه دون أن يكون للصغير يد فى ذلك ، فهناك آباء تتحكم فى موقفهم العقلى بأكمله تجاه الحياة أمور تافهة يضيقون بها . فإذا كان ماء الحمام بارداً ، أو موسى الحلاقة أثلم ، أو القهوة خفيفة أو جريدة الصباح متأخرة كان على الطفل فى الغالب أن يتحمل صدمة ما ينتج عن ذلك من سخط وهياج ، حتى إن أى سلوك مألوف لا غبار عليه يصدر عن الطفل عند ذاك يجلب عليه تعنيفاً شديداً قاسياً ، فأولئك الآباء كفيلون بأن ينسبوا علة حنقهم وما يشعرون به من ضيق إلى الطفل بدلا من نسبتها إلى الخادم أو البواب أو بائع الصحف . وقد يدرك الصغير مصدر الحنق ، أو قد يخفى على إدراكه ، لكنه يستشعر ما فى ذلك من ظلم لا شك

فيه ، الأمر الذى يؤدى إلى سخطه ويدفع به أكثر الأحيان إلى الثورة عليه ثورة مكشوفة صريحة . وهكذا تبدأ حلقة مفرغة من العسير قطعها .

ولا يكاد يبدو من اللازم أن ننبه الآباء إلى أن الحديث عن طبع الطفل أمام الأقارب والأصدقاء بمحضر الطفل ، إنما هو وسيلة توجه نظره إلى كيفية جذب الانتباه إليه ، وأن هذا الحديث فوق ذلك اعتراف من الآباء بما للطفل من سطوة وسلطان على الأسرة . ومع هذا فما أكثر الآباء الذين يقعون فى هذا الخطأ بالذات ، إذ نسمع كثيراً من الأمهات، على اختلاف أوساطهن الاجتماعية ، يقلن إن الطفل قد بلغ من فظاعة الطبع حداً « لا أستطيع أن أفعل معه أى شىء » ، ونرى الطفل من حين إلى الآخر يبدى ما يؤيد قولها فترضى حيناً وتسخط حيناً آخر . ومن الخير أن نذكر أبداً أن رغبة الطفل الكامنة فى اتخاذ مركز بارز فى الأسرة أمر يبلغ من الوضوح حداً لا يسمح بالمبالغة فى تشجيعه على ذلك حتى فى محيط العائلة الضيق ، ومن ثم ينبغى ألا يكون سلوك الطفل ألبتة موضوعاً لثرثرة الأهل والجيران .

ويتعرض الأطفال لكثير من ألوان الكيد والإذلال والسخرية من الآباء دون أن يدرك هؤلاء ذلك . بل إن بعض الآباء ليتورعون عن معاملة خدمهم بمثل ما يظهرونه نحو أبنائهم من الاستخفاف وعدم الرعاية ، وهم لا يفعلون هذا عن قسوة أو قلة فى الحنان والعطف ، بل إن عدم المبالاة والبرود الذى يلقاه الطفل من أبيه المنصرف إلى عمله ، أو من أمه التى يغلب عليها سرعة الغضب ، كثيراً ما يكون سبباً فيما يجثم على الطفل من سوء المزاج .

ولا تزال بعض الأسر تستخدم إلهاب الغيرة حافزاً يبعث الطفل إلى مضاعفة جهوده كأن يداوموا مقارنة طفل بآخر مقارنة تصل إلى شدة المبالغة فى خيبة أحدهما وفى تفوق الآخر ، وهم قد يصلون إليها بتفضيل الواحد أو امتداحه ومكافأته أو بإشعار الآخر أنهم لا ينتظرون منه إلا أقل شىء ، إن كانوا ينتظرون

شيئاً . فإذا حدث ذلك على أى وجه من الوجوه وجب أن نوقن أن إشعار الطفل بعجزه مصدر فياض لهياجه وحدة طبعه .

أما عدم الاطراد فى طرق التهذيب . فهو أبداً مبعث لسخط الطفل ، والسخط والحنق على الدوام أمر يسبق نوبات الطبع . وقد أشرنا من قبل إلى أنه لا ينبغى ألبتة أن يكون الطفل فى شك مما ينتظر منه ، وألا يعنف اليوم أو يعاقب على أمر لم يعلق عليه أحد بالأمس . إلى كل أب وأم نقول : كن فى مسائل التأديب حازماً . وفى تعلياتك واضحاً دقيقاً . كن عادلا فوق كل شى . ولتذكر ما استطعت أنك لو أدليت للطفل بتفسير معقول عن وجوب قيامه بأمر ما كان لهذا التفسير فائدة كبيرة فى تدريبه على الطاعة ، وفى وقايته من سرعة الهياج ونوبات الغضب .

الفصل العاشر

الخوف

بين كل الانفعالات التى لا بد أن يستشعرها الناس يعتبر الخوف واحداً من أكثرها شيوعاً ، ويثيره ما لا حصر له من المواقف التى تتباين تبايناً كبيراً . حياة مختلف الأفراد ، كما تتنوع شدته متدرجة من مجرد الحذر من ناحية ، إلى الهلع والرعب من الناحية الأخرى .

والخوف — على أى وجه — يلازم الكثرة منا أبداً من المهد إلى اللحد . وهو إحدى القوى التى قد تعمل على البناء أو على الهدم فى تكوين الشخصية ونموها . وقد تؤدى إلى تشتيت الطاقة العقلية التى توجه نحو الأهداف النافعة. والخوف كذلك يرشد الفرد ، ويكفه ، ويدفع عنه القوى الهدامة المؤذية .

فإذا سيطر العقل على الخوف أصبح هذا من أعظم القوى نفعاً للمجتمع وأصبحت له قيمة بنائية فائقة . والخوف ، إذا كان من هذا النوع البنائى ، كثيراً ما يمر مراً عابراً لا يسترعى النظر ، إذ يعتبر وقاية أو وزناً للأمور أو اقتصاداً أو فطنة ؛ غير أن هذه الألوان من خصائص الشخصية التى تعود على المرء بالدعة والأمن ، ليست سوى مشتقات من رد الفعل البدائى الغريزى ، الذى ندعوه بالخوف ، بعد أن شكلته الخبرة وعدلته .

وإذا تحدثنا عن مخاوف الطفل عن أنها حمق وقصور فى الإدراك ، فذلك لأننا نحن الكبار عاجزون عن أن ندرك بعض خبرات الطفولة المبكرة التى تترك فى العقل آثاراً تحكم سلوكنا وموقفنا العام تجاه الحياة ، بعد أن تكون التجربة نفسها قد غابت عن الذكريات بوقت طويل . وقد قال فكتور هيجو فى

كتابه « ذكريات الطفولة » « إذا قيل شيء مرة ، رسب فى العقل ؛ أما ذلك الذى يصدم الذهن ، فإنه غالباً ما يعود مرة بعد مرة ؛ وهكذا تعيش فى صدر الطفولة الساذجة كثير من الأمور المغلقة التى تستعصى على البيان والتفسير » .

ولا تبدو لنا مخاوف الأطفال ضروباً من الحمق والسخافة ، إلا لعجزنا عن فهم التجارب التى يمر بها الطفل أو التى مر بها من قبل . فمثيرات الخوف الغريزية فى الأطفال قليلة محدودة ؛ غير أن أكثر مخاوفهم يثور من أنواع الخبرة التى تعرض للطفل بعد إقباله على الحياة . ومع أن الآباء ذوى العقل الراجح قد صاروا يقلعون عن إثارة الخوف فى أطفالهم كنوع من العقاب أو كطريقة لغرس السلوك الطيب ، فإن قليلا منهم من يبذلون نحو المخاوف التى يبديها الأطفال ما يجب لها من عناية ؛ فهم غالباً ما يغفلون البحث عن أسبابها ، ولا يعملون على استئصالها بما يقضى عليها من بيان واضح مفيد . وليس هناك من انفعال يكثر تعرض الطفل له أكثر من الخوف ، إنه يمكن أن تثيره أسباب غامضة عسيرة التحديد ؛ وهو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالانفعالات الأخرى ؛ كما أنه يلعب دوراً يبلغ من الأهمية فى تكوين شخصية الطفل حدًّا يتطلب أكبر قسط من العناية به وتدبير أمره .

وللخوف نوعان متمايزان هما الخوف الموضوعى والخوف الذاتى . والمخاوف الموضوعية هى الأكبر شيوعاً ، أو هى على الأقل ما يغلب أن يتعرفه كثرة الآباء. ولما كان تحديد مصدر هذه المخاوف ليس عسيراً ، كان التغلب عليها بسرعة أمراً ممكناً . فالخوف من الحيوانات ، والجنود ، ورجال الشرطة ، والأطباء ، والبرق، وطلقات المدافع ، والأماكن العالية يعتمد عادة على بعض التجارب السابقة التى التصق بها انفعال مكدر ، أو على سماع قصة معينة أثارت فى ذلك الوقت ردًّا انفعاليًّا سيئاً . ويخاف الأطفال من أى شيء غريب أوجديد،

لكن هذا الخوف يزول بسرعة لو هيئ للطفل ما يكفيه من الوقت حتى يألف موضوع خوفه . ولا يجب دفع الصغار وإقحامهم فى المواقف التى تخيفهم رغبة فى عونهم على التغلب على الخوف .

والخوف الذى يتصل بالتجارب الحقيقية فى الطفولة ، والذى لا بد منه للإبقاء على النفس وتوجيه السلوك وجهة يرضى عنها المجتمع ، قد يكون أمراً ضرورياً ؛ غير أنه مما يجب كل الوجوب : ألا نسرف فى إثارة هذه المخاوف ، فإن النوع البنائى نفسه من الخوف إذا اتسع انتشاره أو زادت شدته أصبح عاملا يعجز نشاط الطفل ويعوقه .

إن الخوف الذى يدعو إلى الحيطة والحذر من الكلاب العابرة ، أو من حوادث السيارات ، أو الوقوع من الأماكن العالية ، أو الاحتراق بالنار وما إلى ذلك من المواقف التى يلاقيها الطفل فى حياته ، إنما هو خوف جليل القيمة إذا هو التزم الحدود السوية ؛ غير أنه إذا زادت استثارته أصبحت المخاوف مشكلة عويصة للآباء والأطفال معاً .

كانت ج . . . تبلغ من العمر ست سنوات عند ما شاهدت حادثة مثيرة جداً : كان حصان يجر عربة للألبان ، فتملكه ذعر دفعه إلى العدو عدواً جنونياً فى أحد الشوارع العامرة المزدحمة ، فانقلبت العربة ، وتحطمت الزجاجات وتناثر اللبن ، واصطدم الحصان بأحد الأسوار فأخذ يرفس ويخرج أصوتاً مخيفة مروعة . وأسرعت الطفلة إلى الدار شاحبة اللون مذعورة لا تتكلم وصارت بعد هذه الحادثة تخاف الذهاب إلى المدرسة وحدها ، ثم امتنعت عن المرور فى الطريق الذي وقعت فيه الحادثة وأصبحت كلما وقع بصرها على حصان تملكها خوف يكاد يزهق أنفاسها . هذا إلى ما كان يخالط نومها — زمناً ما بعد الحادثة — من أحلام مزعجة يصحبها منظر الحادثة التى شاهدتها من قبل ، فكانت تصيح وتطلب العون حتى لا تقتحم الخيل غرفتها .

ومن الحكمة بعد أن يتعرض الطفل لإحدى التجارب المزعجة ، أن تشجعه على التحدث عنها كما يشاء ، لأنه كلما تحدث عنها ظهرت له تلك التجربة أكثر ألفة وأقل غرابة ، وضعف الخطر من أن تدفن فى أعماق نفسه فيكون لها أثر بالغ فى حياته المقبلة . وكثيراً ما يخطئ المرء حين ينصح الطفل أن يتناسى الأمر قائلا له: « لا تتحدث عنها ، فكر فى شيء آخر » ، لأن لمثل هذه التجربة لوناً فاقعاً من الخوف لا يمكن نسيانه فمن اللازم له أن يتعرف عليها . ومن الخير أن يمتنع الآباء والكبار عن السخرية بالصغير إذا خاف ، أوعن القول له بأنه شديد الغباوة ،أو أن يدعوا المسألة تمر دون تعليق . ويجدر بهم أن يبينوا له أنهم يقدرون تماماً ما يشعر به ، وأن يذكروا له أن كثرة الناس تواجه مثل هذه المشاعر السيئة بين حين وحين فى كثير من الأمور فى الحياة ، وأن يؤكدوا له أن هذا الشعور لن يطول به . . . هوّن — مع التزام الصدق — من الخطر الحقيقى للتجربة التى مر بها الطفل ، وعد به شيئاً فشيئاً إلى أحد وجوه المنظر الذى أزعجه مرة بعد مرة ، فنحن فى حالة ج . . . كنا نقترب شيئاً فشيئاً من منظر الحادث يوماً بعد آخر . فكانت البنت تلاحظ الخيل على البعد ، ومن الصور التى تمثل الأطفال يلعبون حول الأحصنة فى ود وصداقة أخذت تطمئن إلى أن الحصان حيوان يغلب عليه الخير لا الشر . ومع أن الأحلام لم تنقطع للتو عقب ذلك ، إلا أنها فقدت كل مظهر للذعر . وسرعان ما هضمت الطفلة تلك التجربة وتمثلتها ، حتى إنها لم تعد تستطيع أن تتحدث عنها دون انفعال فحسب بل تمكنت من أن تتابع حياتها دون أن يتحكم فى نفسها الخوف .

ولا يجب كبت المواقف الانفعالية من أى نوع عند الأطفال ، إذ أنهم بما لهم من عقلية كبيرة المرونة يستطيعون أن يحسنوا تدبير هذه المواقف خيراً من الكبار لو أحسن التصرف معهم . فإذا فقد الطفل أحد والديه بسبب الموت أو الطلاق . فمن الخير أن نصارحه بما حدث بالضبط ، وبما يمكن أن يتوقعه .

فإذا كنا بصدد الوفاة مثلا ، فلنطلب إليه أن ينساها تماماً ، وأن ينقطع عن التفكير فيها . ولن يطول الأمر بالطفل ، الذي كان قد تملكه الأسى وطغى عليه الحزن عقب الفجيعة حتى يستطيع التحدث عن أبيه أو عن أمه التى فقدها بقليل من الانفعال ، أو بدون انفعال على الإطلاق . وهذه طريقة مثلى للتصرف فى المواقف الانفعالية التى يقيض للطفل بل وللكبير أن يلاقيها .

وعلينا بإزاء الخوف فى الأطفال مهمة مزدوجة : أولا أن نمنع انفعالات الخوف من أن تنمو نمواً مبعثراً لا نظام فيه، دون أن يكون لها مثير صحيح أو سبب مناسب ، وثانياً أن نصون العناصر البنائية للخوف حتى نحفظ الطفل من الخطر الجسمى أو من سخط المجتمع ونبذه إياه .

ويلعب التقليد دوراً هاماً فى مخاوف الطفولة : فالأطفال لا يقلدون الكلام والأخلاق والآداب العامة لآبائهم فحسب ، بل إن الموقف العقلى الذى يتخذه الطفل حيال أى موقف يغلب أن يكون موقفاً من المواقف التى رآها من أهله . فالأم التى تذعر ذعراً واضحاً من الحيوانات ، أو الأماكن المظلمة ، أو العواصف الهوجاء ، أو الأماكن العالية ، والتى تنتفض ذعراً من الأصوات الحقيقية أو الوهمية يغلب أن تخلف هذه الميول فى ولدها ، لا عن طريق الوراثة ، ولكن على شكل نموذج من السلوك يحاكيه الطفل محاكاة غريزية . ومن ثم كان من الأهمية بمكان أن يقوم الآباء الذين يثقلهم الخوف الذى لانفع فيه بكل ما وسعهم حتى لا تظهر مخاوفهم أمام الطفل ، لأنها سوف تنعكس أبداً فى تصرف الطفل حيال المواقف المماثلة .

ولا يكاد يلزمنا أن نحذر الآباء من التظاهر بموقف الخوف ـــ الذى لا أصل له فى الواقع ـــ حين يجديهم ذلك كثيراً فى التأثير على الطفل . إذ ليست إثارة الخوف وحشية وقسوة فحسب ، بل هى معدومة النفع من الناحية العملية لأنه إذا كان هذا وسيلة تحقق غرضاً نافعاً للتو ، وتتخذ طريقة لضبط النشاط

الزائد وحد فضول الصغير ، ومنعه من المخاطرة بعيداً عن عين أمه الساهرة ، فإن النتائج النهائية لا تبرر بتاتاً استخدام مثل هذه المهارب ، كما يتضح لنا من الحالة التالية :

أحضرت إلى العيادة طفلة صغيرة تبلغ من العمر ثلاث سنوات ونصف السنة ، بسبب ما يفد عليها من الأحلام المرعبة ، وخوفها الزائد من الكلاب ، وشدة خجلها واستحيائها . ولم نستطع أن نقف على سبب ذلك إلا بعد الزيارة الثالثة للعيادة حيث ألقت الأم بكثير من الضوء على علة خوف الطفلة من الكلاب فذكرت الأم أنها عند ما كانت فى الثامنة عشرة من عمرها تعرضت لتجربة مزعجة : إذا طاردها أحد الكلاب ، ولازمها هذا الخوف وقتاً طويلا . فلما ارتد إلى ذاكرتها خوفها هى من الكلاب ، رأت أن ليس من بأس فى بث هذه الفكرة فى ابنتها ، فصارت فى الشهور الماضية تخيف الطفلة إذا بدا منها العصيان وتهددها بالذهاب لإحضار الكلب ، وشرعت كلما كانت الصغيرة بصحبتها خارج الدار تتظاهر أبداً بالخوف كلما وقع بصرها على أحد الكلاب رغم أن الأم كانت قد تغلبت من قبل على خوفها تماماً . فلما أرشدنا الأم إلى ما ينبغى ، وساعدنا الطفلة على اتخاذ الموقف الصحيح بإزاء الحيوانات ، اختفى هذا الخوف على الأثر ، وانقطعت الأحلام المزعجة دون أى علاج آخر . ومع أن الطفلة لا زالت خجولة هيابة إلا أنها شرعت تختلط بغيرها من الأطفال ، وحالها يدعو إلى الاطمئنان فى المستقبل .

وكثير من المخاوف التى لا بد أن يلقاها الطفل هى من النوع الهدام المعجز ، لا تجديه نفعاً بل تشتت نشاطه الذى يجب أن يهدف وأن يستخدم فى تحقيق رفاهية الصغير . ويلعب التقليد والخيال وكذلك الإيحاء دوراً هامًّا فى تكوين هذه المخاوف ، فكثيراً ما يكون مصدرها قائماً فى علاقة الطفل بأبيه أو أمه ، حين يجد الآباء أن الخوف طريقة نافعة فى فرض الطاعة والامتثال للأوامر . ومما

يؤسف له فى هذا الموقف : هو أن الطفل لا يحكم عليه بإحدى التجارب الانفعالية القاسية فحسب ، بل إن هذه التجربة تخلف وراءها ندوباً نفسية تقوم عليها نماذج السلوك فى المستقبل فالجبان الرعديد من الجنود لا ينشأ فى ميدان القتال بل فى أحضان أمه .

ومع أن كثيراً من أشكال الخوف ليست فطرية ، إلا أنها تكتسب فى سن مبكرة ، وهى عظيمة النفع للطفل . وهذا النوع من الخوف لازم لحفظ الذات ، وعامل هام فى تكوين السلوك الذى يرضى عنه المجتمع . ولو أن هذه الأشكال المعدلة من الخوف يجب ألا تستأصل ، غير أنه من اللازم ألا نبالغ فى استثارتها ، حتى لا يتسع انتشارها ، ولا تبلغ من الشدة حداً تصير معه عاملا معجزاً فى حياة الطفل .

ومن الميسور أن يصير الخوف فكرة طاغية متمكنة من عقل الطفل إذا داومنا الإيحاء إليه باحتمال تعرضه للخطر . فمن الآباء من لا ينقطعون عن تحذير أطفالهم من الامتناع عن هذا اللون من النشاط أو ذاك ، حتى لا يلحقهم الأذى ؛ وما أكثر ما يسمع الطفل مثل هذه العبارات : « لا تجر وإلا عثرت » ، « لا تتسلق وإلا وقعت » ، « سوف يعقرك الكلب » ، « سوف يخطفك الرجل الغريب إذا خرجت من الفناء » ، « إذا لم تكن مهذباً أخذك العسكرى » ، « سوف تتركك ماما وحدك إذا كنت شقياً » ، « لا يحب الله الأولاد السيئين » ، « بابا لا يحبهم إذا علت منهم الجلبة » « ستجعلك الحلوى مريضاً » . وما هذه إلا بعض التحذيرات التى لا حصر لها مما يفرض سماعها على كثير من الأطفال يوماً بعد يوم . ولا بأس بالتحذير فى ذاته ، ولكن هناك أذى كبيراً فى خلق جو من الخطر الجاثم الدائم يعيش فيه الأطفال ، بتحذيرهم أبداً إلى توقع كارثة تنزل بهم فى أى وقت على غير توقع أو انتظار .

وقد يكون لهذا التحذير من الخطر أثر مؤقت كوسيلة للتهذيب ، غير أنه

ليس طريقة باقية الأثر فى غرس السلوك الحميد . فرغم أن كثيراً من الأطفال لحسن الحظ سرعان ما يقفون على كذب هذه التحذيرات الأبوية وسخفها ، ثم يتصرفون إزاءها على أنها كذلك ، إلا أن من تزيد قابليتهم للاستهواء يتأثرون كثيراً بهذا التوقع الدائم للخطر ، حتى يصبح جانباً طاغياً فى شخصيتهم لا يمكن التخلص منه بسهولة حتى عند بلوغهم السن التى تسمح لهم بتحكيم عقولهم فيها بأنفسهم . ومن ثم كانت البيئة سبباً فى إعجاز كلا الفئتين من الأطفال : الأولى لضياع ثقتها فى الآباء والثانية من حالة القلق التى تقوم على الشعور بعدم الأمن الذى بدأ مبكراً فى مقتبل العمر . إن البالغ الذى اعتاد فى طفولته توقع الخطر أو العناء الذى قد ينزل به فى أى وقت ، يكون دائم التملص من حقائق الحياة بحجة أو أخرى يدفعها الخوف . وهو غالباً ما يكون شعوراً غامضاً خفى العلة مثل الهلع من خطر قريب جاثم . ثم يمتد الخوف إلى الناس والمواقف حتى يؤثر فى القدرة على العمل وفى الكفاية وفى سداد الحكم . وإذا بهؤلاء الناس وقد أفعمت نفوسهم شكاً وتردداً ، تعوزهم الثقة وتنقصهم الشجاعة ، يشعرون بالعجز عن مواجهة الحياة ، ولا يستطيعون العيش إلا فى البيئة التى تحنو عليهم وتحوطهم بالرعاية .

ويخاف كثير من الأطفال خوفاً شاذ ا من الألم البدنى ، فيعملون جهدهم على تجنب المواقف التى تؤدى إلى أذى الجسم . وتنتج هذه الحالة العقلية من الإلحاح فى تنبيه الطفل إلى أن الشىء المحرم سوف يخلف ألماً موجعاً ، حتى يصير الألم وحده أهم شىء يجب تجنبه فى الحياة ؛ بل إن هؤلاء الأطفال ليعجزون مثلا عن الاشتراك فى مباريات الرياضة الخشنة الشديدة ، لأنهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم بإزاء الفتية الذين يزيدون عنهم إقداماً ، إذ سرعان ما يكشف هؤلاء مواطن الضعف فى أولئك ؛ ويغلب أن يشتد نفور أولئك الأطفال من الألم ، حتى يضيع جل وقتهم فى العمل على تجنبه ، فيعتبرهم أترابهم جبناء

« بنات » وتصبح حياتهم مليئة بالبؤس والمرارة .

ويعود كثير من المخاوف المعجزة فى حياة البالغين إلى فكرة أو تجربة فى حياة الطفولة . وسوف نتحدث فى موضع آخر عن المخاوف التى تتصل بالمعارف العادات الجنسية التى يعانيها من الناس من لا حصر لهم طوال العمر .

والخوف طريقة كثيراً ما يسوء استغلالها للحصول على السلوك الحميد فى الأطفال ، ولما كان التخويف يؤدى إلى أسرع النتائج بأقل جهد ممكن يبذله الآباء ، كان هذا مما يدفع إلى انتشار استخدامه كطريقة لتهذيب الطفل فى السنوات الأولى .

وكثيراً ما يكون الخوف قوة هدامة فى تكوين الشخصية ، لهذا يجب ألا نلجأ إلى استخدامه إذا كانت هناك طرق أخرى يمكن اصطناعها لتحقيق الهدف المطلوب . وكثيراً جداً ما يلجأ الآباء إلى التهديد والوعيد كطريقة سهلة مضمونة لإجبار الطفل على القيام بأمر معين ، أو منع الطفل من الاستمرار فى طريق من السلوك الذميم . فبدلا من أن يبينوا لطفل فى الرابعة من عمره أن ضوضاءه سوف توقظ أمه المتعبة التى تملكها الصداع ، وأن يطلبوا إليه أن يبذل معونته ، يأخذ أبوه أو مربيته فى إنذاره : بأنه إذا لم يصمت وقع به عقاب صارم شديد ، ووضع فى الغرفة المظلمة . تلك محاولة لتحقيق السلوك الحميد عن طريق الخوف ، وقد يكف الصغير عن الضوضاء ، لكنه ليس من المستبعد عند ذلك أن يرى فى أمه عجوزاً متعبة ترغب دائماً فى النوم أو الهدوء عند ما يود هو أن يلهو ويمرح ، وأن يرى فى أبيه أو مربيته اللذين يصدران الأوامر قوماً ظلمة مستبدين ، لا يستطيعون إخضاع الصغار إلا لأنهم أكبر منهم . أما إذا أمكن من الناحية الأخرى أن يهتم الطفل بتوعك أمه ، فإنه قد يحلو له أن يقوم بما يعتبر منه تضحية كبيرة فى الظروف العادية . ومن ثم كان من اللازم أن نلجأ إلى أسمى الدوافع لإقامة السلوك الحميد ، لكن الخوف نوع منحط من الدوافع التى

تؤثر فى أكثر أنواع السلوك لهذا يجب أن نعمل على تجنبه .

ومع أن الخوف طريقة ناجعة فى ضبط الطفل ضبطاً مؤقتاً . فمن الخير أن يوقن الآباء أن الطفل يستطيع أن يكشف بخبرته أن الخداع والتهديد من جانبهم ليس إلا دليلا على ضعفهم وقلة حيلتهم فى معالجة الموقف بما ينبغى من صراحة وعمل إيجابى نافع . والوالدان إذا ربطا عنصر الخوف بالمواقف أو بالناس أو الأشياء رغبة فى إرهاب الطفل ، لا يلحقان به ظلماً كبيراً فحسب ، بل هما يحطمان ثقته فى كل منهما .

فلا يجب أن تكون انفعالات الأطفال مجالا للاستغلال والاستخفاف ، لأن ذلك لا يقل خطورة عن العبث بأعين الطفل أو آذانه أو التى لا يخطر ببال أى والد عاقل أن يعبث بها ألبتة . والخوف انفعال يمكن استثارته بطرق شتى ، وله آ ثار بعيدة المدى تتطلب من الآباء أن يكونوا على حذر منها وانتباه لها فى كل الأحايين . والعيادات النفسية تواتينا كل يوم بالأدلة على ما تتركه مخاوف الطفولة من أثر سيئ هدام فى سعادة الناس وكفاياتهم بعد ذلك فى حياة الكبر .

وكثيراً ما يلتى المعلمون والمعلمات ، والمربيات ، والمرشدون والمرشدات الاجتماعيات ، من الأطفال من أفعمت نفوسهم استحياء وتهيباً ، ومن يشعرون بعجزهم عن مواجهة المسائل المألوفة فى الحياة اليومية وعن التنافس والتعاون مع غيرهم من الأطفال ، لأن غريزة الخوف عندهم قد بولغ فى استثارتها فطغت عليهم وتحكمت فى نفوسهم : فرجل البوليس الذى ينبغى أن يلتمس الطفل عنده الحماية صار مصدراً للفزع ؛ وذلك الرجل الفقير المهلهل الثياب ، وذلك السنان الذى يمر فى الشارع بدلا من أن يكونا مثاراً للذكريات الممتعة — أصبحا مثاراً للرعب ؛ بل الطبيب الذى كثيراً ما يعتمد عليه الطفل وأهله فى حالات الخطر ، قد وضع للطفل فى صورة تجعل عمله أمراً عسيراً كل العسر ، بل تؤدى بجهوده أحياناً إلى الضياع هباء منثوراً .

وقد تبدو كل هذه التحذيرات أموراً لا لزوم لها فى هذا الزمن الذى استثار فيه الناس ، لكن الواقع أن هذه الطرق ما زالت تستخدم إلى درجة تبلغ من الخطورة حداً نستطيع أن نتركه دون تعليق .

فمن العسير كل العسر فى تربية الأطفال أن نفصل الخوف عن العقاب وعن سخط الآباء . وكثيراً ما نتساءل : إلى أى حد ينبغى أن يكون الخوف عاملا فى قياد الخلق وفى دفعنا إلى القيام بالالتزامات الخلقية ؟ وعن هذا يمكن القول فى يقين : إن موقف الطفل بإزاء العقاب لا يجب أن يكون موقفاً يقوم على عدم المبالاة ولا موقفاً كله هلع وذعر ، بل يجب أن يكون موقفاً فيه احتفال واهتمام ويعنى هذا أن يكون مصطبغاً بعنصر الخوف .

والطفل الذى لا يشتشعر أى اضطراب إذا ارتكب فعلة تنافى أصول المجتمع ، والصغير الذى لا يحفل بسخط أهله أو عقابهم إنما هو شخص من العسير كل العسر أن نكون فيه من العادات ما يؤدى به إلى التوافق فى الحياة مع الناس . ويبدو هذا الاستخفاف أول ما يبدو فى الدار : فيكون موجهاً إلى الآباء والأجداد والإخوة والأخوات ، ثم لا يطول به الوقت حتى يوجه نحو المعلمين ومن بيدهم الأمر خارج المنزل . وفى مطالع المراهقة قد يؤدى هـــذا التبجح والاستخفاف إلى تميز الطفل بين أفراد عصابته وقد يؤدى كثيراً إلى تقوية هذا الاستهتار المصطنع بآراء الآخرين . الواقع أن هذا الاستخفاف ، سواء كان صحيحاً أم مصطنعاً ، هو الذى يكسب الفتى إعجاب عصبته به ، إذ سرعان ما يصبح الفتيان من هذا الطراز قادة يبجلهم أقرانهم ، كما أنهم يداومون السعى الحثيث لاكتساب رضا رفاقهم عن أفعالهم التى تتنافى وأوضاع الجماعة .

وكثيراً ما يكون ارتكاب الاثم وسيلة يلجأ إليها الطفل حتى يدفع عن نفسه السقوط فى هوة الإهمال ، وكلما ازداد الهتاف له زاد استمتاعاً ولذة بنشوزه عن السواء . وهو فى سورة هذه النشوة كفيل بأن يرتكب من الآثام ما يؤدى به

آخر الأمر إلى الوقوع تحت طائلة القانون ، والحق أن مثل هذا الفتى لم يتعلم منذ مقتبل عمره أن الطاعة وحسن السلوك سوف يؤديان أخيراً إلى ما فيه نفعه ؛ بل إنه كان يتقى النتائج الطبيعية لأفعاله بفضل حدب أهله وإغراقهم فى رعايته ، وبقى يستمتع بإعجاب أولئك الذين كانوا يرحبون بعصيانه ويعجبون بنشوزه .

ومن الخير أن نذكر أن الحذر نوع من الخوف لازم للنجاح . فكلما أقبل الطفل على خبرة جديدة لم تسبق له لازمة على الأغلب كثير من ألوان الشك والحيطة . غير أن هذه الشكوك ، مثلها فى ذلك مثل توقع الكبار للإخفاق ، تقوم على الخوف ، وقد تكون هى العلة الأصلية التى تمنع التوفيق وتؤدى إلى الخيبة . ومع هذا فإن أولئك الذين لا يساورهم قليل من الخوف ، ولا يلازمهم كثير من الحرص والحيطة سرعان ما يقعون صرعى للقوى المادية فى البيئة ويصل الأمر بهم إلى نبذ المجتمع إياهم وإقصائهم عنه .

وكثرة المخاوف التى يستشعرها الصغار ليست من النوع الموضوعى ؛ أو هى بمعنى آخر ليست متصلة بالأشياء التى ترى أو تسمع بالفعل ، بل هى تنتج على الأرجح من خيال الطفل .

وهذه المخاوف الذاتية أمور غير محسوسة ، كثيراً ما لا يمكن تحديد أسبابها إلا بعد وقت طويل ودراسة دقيقة . ومن ذلك أن الأفكار الغامضة غير المحدودة عن الموت تكون أساساً لقدر كبير من القلق العقلى عند الأطفال يفوق ما نسلم به عادة . ومن أمثلة ذلك طفل صغير خيل إليه — فى الرابعة من عمره — أن الموت يعنى أن يدفن المرء فى حفرة ويهال عليه التراب ، فامتلأت نفسه حقداً مريراً على أمه لأنه عدها مسئولة عن وفاة جدته التى كان يحبها حباً شديداً . وذلك الطفل الآخر الذى كان فى الرابعة أيضاً يعتريه الهم ويقاسى الأسى والجزع ساعات ، لأنه كان يخشى أن يدفن فى بطن الأرض حياً وكان مصدر هذا الخوف قصة سمعها عن لصوص للمقابر شرعوا فى بتر أصابع سيدة دفنت حديثاً كى

يحصلوا على جواهرها ، فإذا بها تعود إلى الحياة وقد ظن القوم من قبل أن قد انتهى أجلها . . . ونادراً ما يذكر الخوف عند إحضار الطفل إلى العيادة لكنه كثيراً ما يوجد أنه هو العامل الأساسى فى مشاكل الأطفال .

وكثيراً ما يرى الطفل فى بعض الأمور المألوفة من العناصر ما يدعو إلى الخوف . وهذا هو النوع الذى يخفى على إدراك الكبار . فالخوف من الظلام يشيع فى حياة أكثر الصغار حيناً ما . غير أن هذا ليس غريزيًّا ، لأن الظلام فى الواقع لا يبعث الخوف فى الطفل ، بل إن ما يثيره هو الأمور التى ينسجها خياله ويدفعه إلى الظن باحتمال وقوعها فى الظلام ، حين لا يستطيع أن ينازلها ويقضى عليها قضاءه عليها لو كانت فى وضح النهار .

والطفل الخيالى قد يخرج من عقله المضطرب كل أنواع المواقف المفزعة فتبدو له حقيقة لا شك فيها مع أنها من نسيج خياله ، فإذا به يفزع منها ويهلع هلعه من الواقع المحسوس . ويقع كثير من الأقاصيص المفزعة التى يسمعها الأطفال فى الأماكن الساكنة التى يحوطها الغموض والظلام ، وسرعان ما يربط الطفل الظلمة بالكوارث والغرائب والمعجزات ، فإذا كان الليل والطفل فى فراشه ، أو إذا كان محبوساً وحده فى غرفة مظلمة ، شط خياله ، وجمح عقله وعادت به الوحدة والظلمة إلى تلك الأقاصيص التى كان ينتشى عند سماعها نهاراً ، وهو فى حمى الكبار ؛ لكنها تملؤه خشية ورعباً إذا كان وحيداً لا حمى له فى هدأة فى غرفته .

والمألوف ألا يبدو من الطفل أى خوف من الظلام حتى يبلغ الثالثة من عمره ، إلا إذا كان قد تعرض لخبرة مفزعة ارتبطت بالظلام ، أو هُدِّد بمثل هذه الخبرة ، أو عوقب بالبقاء وحيداً فى الظلام . غير أنه يحتمل أن يمر أغلب الأطفال رغم جهود الآباء وحصافتهم بأطوار يفزعون فيها من الظلام ، وذلك خلال سنيهم الأولى . على أنا إذا أحسنا تدبير حياة الطفل ، كان هذا الطور

قصيراً دون شك لا يترك بعده ندوباً فى حياة المرء الانفعالية فى مقبل الحياة .

فإذا ذكر الآباء أن الظلام فى الواقع لا يخيف الأطفال ، لكن ما يخيفهم هو ما يصدر عن أخيلتهم التى لا يستطيعون ضبطها ، ولا يملكون من الأساليب ما يعينهم على التغلب عليها ، سواء استعانوا بالعقل أو بالحواس ، إذا ذكر الآباء ذلك وجب أن يكونوا أكثر تسامحاً بإزاء هذه الخبرة عند الأطفال . ولسنا نعنى بالتساهل هنا أن يندفع الآباء إلى تلبية رغبات الطفل فى بقاء الضوء ، أو الأشخاص الذين يؤنسونه ، لأن ذلك الأمر عينه لن يؤدى إلا إلى تأييد اعتقاد الطفل فى خطر الظلمة أو الوحدة ، ذلك لأن الأطفال قد يرون فى تلك الامتيازات دلالات على وجود صحيح للخطر . لهذا يجب القضاء على الخوف فى أقرب فرصة ممكنة : بأن يؤكد الآباء — ما أمكنهم ذلك — بُعد أوهام الطفل عن الصواب ، وأن يكشفوا له عن عبث ظنونه واحتيال مخيلته . فخير ما يجدى فى القضاء على تلك المخاوف الأولى : اصطناع الصبر والعطف والحصافة ، والإسراع فى ذلك قبل أن يكون الصغير قد أقام عليها الحواشى وقبل أن يزيد انفعاله. لكن الخوف إذا تُرك أياماً أو أسابيع — أملا من الآباء فى نسيان الطفل إياه — غلب أن يستقر فى عقل الصغير ، وأن يصبغ كثيراً من مواقفه فى الحياة بعد ذلك .

أما الأوهام التى تبعث الخوف من الظلام ، فالأرجح أن تكون من الأشياء المألوفة تماماً للطفل فى حياته اليومية . فاللصوص ورجال البوليس ، والحيوانات ، والعفاريت من الموضوعات التى تبعث انفعالا ونشوة عنيفة عند الحديث عنها ، لأن فيهـــا من عنصر الخطر ما يكفى لإثارة الشعور . لذلك كانت لأوهام الأطفال أهمية خاصة لأنها تتصل بكثير من المواقف المألوفة فى حياته اليومية .

ويلعب الخوف أدواراً شتى فى سلوك الكبار اليومى : فهو فى بعض الأفعال يبعث فينا الحذر وإعمال الفكر ، وهو يستحث الناس على إحكام خططهم

ويدفعهم إلى إغفال اللذات العاجلة حتى يتجنبوا الاضطراب والقلق الذى يبعثه فيهم الخوف من الجزاء . والخوف على ضمان الحياة فى المستقبل هو الذى يدفعنا إلى الحرص وجمع المال . والخوف من نبذ المجتمع وغضبه كثيراً ما يلعب دوراً هاماً فى تحديد المستويات الخلقية التى نتبعها . كذلك الخوف يجدى فى تعيين العادات التى يتخذها كل منا ، ومع هذا فإن كثيراً من الناس تسيطر عليهم ألوان من المخاوف فتدور حياة الواحد منهم حول خوف شاذ ، قد يكون خوفاً من الأماكن المرتفعة ، أو من المرض ، أو من الأماكن المغلقة ، أو الحرائق ، أو قرع النواقيس ، أو الموت ، أو الخيبة ، أو المسئولية . وقد لا تكون هذه المخاوف أحياناً سوى مبعث للسخط أو الضيق ، لكنها قد تؤدى أحياناً أخرى إلى إعجاز الفرد عجزاً تاماً عن الحياة حياة موفقة سوية . ويعود كثير من المخاوف الغامضة الخفية إلى خبرة واقعية نزلت بالمرء فى الطفولة ، فلا يكون الشىء أو الموقف الذى يبعث الهلع عند الكبير هو مصدر خوفه ، بل إن ما يبعث هلعه ما اقترن بذلك الشىء من خوف مر به فى مطلع أيامه .

ومن المحال أن يقف الآباء على كل خبرة قد تكون مصدراً أثار الخوف عند صغارهم ، غير أنه لا يبعد عن الصواب أن نقول : إن الآباء الذين يثق بهم أبناؤهم تواتيهم الفرصة للوقوف على مخاوف صغارهم حالما يشعرون بها تقريباً ، فيستطيعون بذلك أن يقدموا لهم ما ينبغى من توجيه ومعونة . وكثيراً ما يجدى قليل من الشرح والإيضاح على الخوف الذى يبعثه أى موقف أو خبرة يمر بها الطفل . وكل ما يستطيعه الأب الحصيف أن يتطلع إليه : هو وقاية الطفل — ما أمكنه ذلك — من التجارب التى تبعث الخوف فى نفسه ؛ على أنها إذا وقعت وجب عليه أن يحاول القضاء على تلك المخاوف فى أقرب وقت مستطاع . ولا يمكن القيام بهذا إلا إذا شعر الطفل بأن متاعبه سوف تكون محلا للعطف

والتقدير الصحيح ، ويعنى هذا أن تكون ثقته تامة فى تفهم أهله للمشكلات التى تعرض له .

لهذا لا ينبغى أن نستهين ، أو أن ننقد ، أو أن نهزأ بمخاوف الطفولة : لأنها تتطلب منا الاهتمام والعطف وحسن التقدير .

الفصل الحادى عشر

الغيرة

تسبب الغيرة فى مقتبل العمر كثيراً من أشكال الصراع الخفية ، وهى أمر كبير الخطر من الناحية الاجتماعية . إذ أنها لا تثير فى الطفل الغضب والحقد والشعور بالقصور فحسب ، بل إنها تؤثر فى مقبل الحياة أثراً مقيماً يدفع إلى دوام الخلاف بين الفرد وبيئته .

ونعنى بالغيرة ذلك الشعور المكدر الكريه الذى ينتج عن أى اعتراض أو محاولة لإحباط ما نبذله من جهد للحصول على شىء مرغوب حبيب ، شخصاً كان أو قوة أو ملكاً أو مكانة . ومن طبيعة هذا الانفعال أن يلازمه جرح وحطٌ لعزة النفس ، وأن يتبعه الذلة والاستخفاء والعار .

والغيرة بين السنة الأولى والخامسة من العمر انفعال سوى شائع بين كثرة الأطفال ، غير أنه كثيراً ما يتطرف هذا الانفعال ويطغى على الشخصية طغياناً يؤدى إلى عسر شديد فى توافق الفرد والمجتمع الذى يعيش فيه .

وليس هناك من هو أكثر شقاء من الطفل الغيور . فقد أخفق أو هو قد ظن أنه أخفق فى الحصول على الوقت والرعاية والعطف من شخص هو مولع به ولعاً كبيراً . وهذا النوع من الإخفاق — حقيقيًّا كان أم غير حقيقى — هو كغيره من أنواع الإخفاق يحط من عزة النفس . فإذا بالصغير يستشعر القصور ، وتملؤه الشكوك والريبة ، وتعوزه الثقة . ويظن نفسه عاجزاً عن مواجهة أى موقف يتطلب جانباً من الثقة بالنفس . فإذا به يتخبط فى بحثه عن طريقة يجمع بها شمل نفسه ، فيتراجع متقهقراً عن المعركة التى قامت عليها الغيرة . ومن ثم

يصبح خجولا هياباً ، أو غضوباً محنقاً ثائراً . ومن الراجح أنه لا يدرى ألبتة علة ضيقه لأنه يشعر بالتهيب والغم والنفور والضعف والإجهاد ، لكنه من المحال عليه أن يعلل ذلك بينما سلوكه يتأثر طبعاً بالمشاعر التى تدور فى نفسه .

وإذا الفرد أدرك ما يعتمل بنفسه من غيرة كرهها فى نفسه إلى حد يدفعه إما إلى كبتها وإنكار وجودها ، أو إلى تبريرها تبريراً يقوم على التماس المعاذير أو خداع النفس . وقد يلتمس الصغار بل الكبار جانباً من الفخر فى الحديث عن أمر أثار فيهم الغضب من قبل ، حتى لقد يتملكهم الحنق فعلا عند ذلك ، بل قد يؤدى بهم هذا إلى سلوك كريه مذموم ؛ لكنه من النادر أن نجد شخصاً يعترف بالغيرة ، بله أن يلجأ إلى المباهاة بها . ذلك لأن الكبرياء — عند الغيرة — تكون قد جرحت ، وعندئذ يتحتم ألا يقف على ذلك أحد من الناس .

والغيرة أساس لمعظم السلوك الذى يتسم بالغرابة والشذوذ والخروج عن المألوف . فالطفل الغيور لا يستقر على حال . ولا يشعر بالهناء ، لا يأخذ من الحياة أو يعطى سوى القليل ، يختزن أحزانه ويبالغ فيها ، حتى يؤدى به شعوره إلى الظن بأن الدنيا بأجمعها تعمل ضده ، فيكون مصدراً لنكد أهله ، وينبوعاً لخطر كامن مقيم لأن الغضب والحنق الذى ينبعث عن الغيرة قلما يكون قصير الأمد أو محدود الوقت . هذا إلى ما هناك من خطر فى إغفال بعض العوامل الأساسية فى هذه المشكلة الانفعالية ، وما ذلك إلا لأنها تتشكل بأشكال مختلفة متباينة ، فلا ينبغى أن يفوتنا أن الدافع الغريزى الواحد إذا كبح أو عطل أو كف أثار عين الانفعال الكريه رغم أنه قد يبدو على عدة أشكال مختلفة ، وفيما يلى أمثلة لبعض المشاكل التى تبدو من أربعة أطفال مختلفين :

مشكلة ح . . . هى الشجار فهو شكس محب للاعتداء . أما س . . فهو يتطلب انتباه أمه أبداً ، ويصر على أن تكرس كل وقتها له . بينما ز . . . كئيبة

محنقة تميل إلى العبوس والانفراد بنفسها . و ب . . . خجول هياب يتراجع إذا واجهته المشكلات المألوفة فى الحياة اليومية . كان سلوك الطفل فى كل حالة من هذه الحالات الأربع مختلفاً تمام الاختلاف فى الواحدة عنه فى الأخرى ، حتى إنه ليبدو من الناحية الموضوعية أنه لا يمكن أن نجد قاعدة عامة نبنى عليها تعليلنا للأنواع الأربعة من الانفعالات التى ظهرت لنا . غير أنه بالبحث الدقيق فى تاريخ حياة الأطفال وجدنا أن السبب الكامن فى كل حالة كان هو انفعال الغيرة .

على الطفل أن يواجه فى خبرته اليومية كثيراً من المواقف التى تثير هذه الغيرة ، فإن مطلع حياة الطفل خاضعة لرغبته الأنانية التى تدفعه إلى جمع كل شىء يستطيع الوصول إليه ، وإلى مطالبة الآخرين بالانتباه إليه . فليس من الغريب إذن أن تترى عليه الخيبة والزجر والتجاهل والنسيان فى جهاده للحصول على هذا الانتباه ، ولعل هذا الإخفاق فى ذاته — إلى جانب اضطراره إلى رؤية الآخرين ينجحون — هو السبب الأساسى فى مصاعبه .

وكثيراً ما يكون سوء العلاقات العائلية راجعاً إلى أشكال الغيرة التى نشأت بين أفرادها فى مطالع الحياة . ولعل هذا الشعور كان موجهاً إلى أخ أو أخت كان أثيراً عند الأسرة استحوذ من أبويه على كثير من الوقت والرعاية . وقد تكون هذه الغيرة موجهة إلى أحد الأبوين ، وخاصة عندما يكون تعلق الطفل بالآخر تعلقاً قوياً عميقاً .

ظهر من ح . . . حين كان فى الرابعة من عمره غيرة فظيعة من أخته التى تبلغ من العمر سنة واحدة . فكان يكره أن يراها موضعاً للرعاية ، ولا يلبث أن يضربها ، أو يختطف منها أى شىء . وقد تبين أن موقف الطفل حيال أخته الصغيرة لم يكن سوى جانب من شدته وحدته وشقائه عقب موت جدته التى كان يخلص لها الحب .

وتتكون الأسرة من أب مريض مستضعف لا ضلع له فى شئون الدار ، ومن أم لا تنى عن تأديب الأطفال ولا تكف عن المبالغة فى مصاعبهم ، تثير فيهم الخوف ، وتواصل تهديد صاحبنا الصغير ، تؤثر عليه شقيقته الصغيرة إيثاراً واضحاً ولا تخفى عداءها نحو الطفل حتى إنه ليبدو خائفاً وجلا دائم الحذر فى حضورها . وفى البيت – إلى جانب أولئك – عمة وعم يزيد الطين بلة بمواصلة إغاظة الطفل وتسميته « بنـوته » .

تبين من دراسة الحالة أن الطفل كان شديد التعلق بجدته التى كان يقضى معها كثيراً من وقته . وأنها قد توفيت خلال العام الماضى . وأن الطفل كان وقت وفاتها مقيماً مع الأسرة فى الطابق العلوى . فبكاها بكاء مرًّا ، وأخذ يصيح قائلا « لقد ذهبت جدتى » فقالت له أمه إن جدته قد ذهبت إلى المدينة . ومع هذا فإنه لم يذكر لأمه إلا بعد شهرين أن جدته ماتت وأنها « نزلت إلى حفرة عميقة فى الأرض » ولم ينقطع خلال العام عن ذكر جدته ، وكان كلما وجد قلماً كتب لها خطاباً ، وكثيراً ما كان يقول إنه « يسمع جدته تناديه » وكان إذا عوقب قال : سأذهب إلى جدتى ؛ كما كان يناديها فى نومه . وكانت أمه تجده أحياناً محدقاً فى صورتها يحدثها أحاديث وهمية ، فإذا قاطعته صاح بها غاضباً محنقاً ، ويقول إنه يكرهها فعليها أن تخرج وتتركه ثم يحاول أن يضربها .

وقد ذكرت الأم أن موقفه قد تغير تماماً منذ وفاة جدته ، فقد كان عادياً قبل ذلك ، لكنه الآن يبكى لأتفه الأسباب ، وأصبح بذيئاً متبجحاً ، لا يعطف عليها بل يبعث فيها الضيق .

ولقد تبين من حديث الأم أنه كان يبدو على الطفل أعراض خبيثة سيئة كل السوء من الناحية النفسية ، وأنه كان فى حاجة إلى فحص دقيق ورقابة خاصة.

والطفل سوّى تمام السواء من الناحية البدنية ، لكن فى تكوين شخصيته وجوه نقص كثيرة : فهو يغار من أخته الصغيرة غيرة شديدة ، كبير الأثرة

إزاءها ، وقد يعزى ذلك إلى أن أمه تؤثرها عليه إيثاراً ظاهراً ، وهو يحمل لأمه شعوراً عدائيًّا مريراً، ويقول إنه يمقتها ؛ بينما هى تفسر كل شىء يفعله بأنه « فنزحة وتبجح » . وفوق ذلك فإن إغاظة عمه إياه تجعله يشعر بأنه أدنى من غيره ، وهو يحنق من تسميته « بنوته » . ولما كان الطفل يفضل اللعب بالعرائس فى أنحاء الدار فلم يكن من المستغرب أن يكون وثيق الصلة بالبيت لا يؤذن له باللعب مع غيره من الأطفال . يخاف الظلام ، ويصرخ فى الليل قائلا إن الحمام يعضه . والأم تعترف بأنها كانت تخيفه كى تدفعه إلى الطاعة أحياناً . وهو يبول على ملابسه وتفد عليه نوبات من حدة الطبع .

وفى علاج مثل هذه الحالة يجب العمل على إصلاح عدة عوامل أهمها : الأم التى يجب أن نعلمها من جديد كيف تغير موقفها بإزاء المريض ، وكيف تغير طرائقها فى التربية ، وأن ندفع الأب إلى إدراك تبعاته ، وأن ندرب الطفل أخيراً على مواجهة مشكلاته على منوال أكثر سواء .

قام العلاج على زيارات متواترة للعيادة . وأحاديث طويلة مع الطبيب المعالج . حتى تغير موقف الأم ، وتوقف الطفل عن العادة السرية عن طريق التحويل والاستعاضة عنها بميول أخرى ، وألف الظلام عن طريق التعليم وميله إلى كسب الرضا . وانقطع البوال بعد اتباع الطرق المألوفة ، وسمح للطفل باللعب خارج الدار مع غيره من الأطفال . ولم يعد عمه يكيده أو يدعوه « بنوته » فلم ينقض سوى بضعة أشهر حتى تكيف الطفل تكيفاً مرضيًّا كل الرضا فى بيته وفى صحبة رفاقه .

ومن المواقف الشائعة التى تثير الغيرة فى الطفل : ولادة طفل جديد فى الدار . وليس من العسير أن ندرك شعور الطفل فى سن الثالثة أو الرابعة حين يجد أمه فجأة وعلى حين غرة توجه عنايتها فى الواقع إلى دخيل صغير ، وإذا به يمر فى فترة مليئة بالهم والقلق ، فكثيراً ما يبعدون الطفل الأكبر أثناء وضع

الأم وقد تكون هذه هى المرة الأولى التى يترك فيها الدار أياماً طوالا ، ونحن لا نستطيع أى نقدر ولو قليلا أثر ذلك فى نفسه ، رغم ما يحاط به فى هذه الفترة من رعاية الأصدقاء والأقارب ، فقد اهتزت الدنيا التى يعيش فيها وهو لا يدرك أن أوضاع عالمه سوف تعود إلى مجاريها مرة أخرى . وبينا هو يجهد رأسه الصغير فى هذا الشأن يكررون عليه أنه سوف يعود عما قريب إلى أحضان أمه وأبيه ، لكن الأيام تطول وتتعاقب حتى يلازمه اليأس ، فإذا عاد آخر الأمر وجد أن غيره قد حل محله وبدا له أن إنساناً آخر قد اختلس منه وقت أمه وانتباهها ، بل كثيراً من رعايتها وحبها إياه . ولا يقتصر ذلك على الأبوين فحسب ، بل إن كل فرد ليبدو كذلك مهتماً بالمقبل الجديد . . . وقد بقى بالمنزل بينما تؤخذ أمه إلى المستشفى ، دون أن يفوز الطفل إلا بالقليل من التعليل والإيضاح إن فاز بشىء على الإطلاق . وهو فى هذه الحالة أمام موقف جديد مبهم : لم تتركه أمه ؟ أحقاً أنها سوف تعود ثانية إلى البيت ؟ لماذا كل هذا الوقت ؟ ثم تفد عليه خلال ذلك ذكرى مبهمة مخيفة ، ذكرى أم صاحبه التى ذهبت يوماً ولم تعد بعد ذلك . لكن أمه هو تعود أخيراً وقد فقد حبها ورعايتها إياه من بعد ، فليس من الغريب أن تثور مشاعره ، وأن يمتلئ حقداً وكراهية للوليد الجديد .

مع هذا كله فإنه من الممكن أن نمنع نشوء هذا الموقف تجاه الوليد الجديد إذا سمحنا للطفل الكبير بجانب من ثقة العائلة ، بأن نصارحه بأن عليه أن يتوقع أختاً أو أخاً جديداً . وأن نحدثه عن الميزات والمتعة التى سوف يجدها مع صديقه أو زميله المقبل حين يعلبان ويمرحان ؛ لكن علينا أن ندلى إليه فى صراحة بما سوف يلقى عليه من تبعات ينبغى عليه القيام بها . وعندئذ فقط نجده يتطلع إلى هذه المفاجأة فى صبر نافد ، وشغف ملموس واضح . فإذا نحن أحسنا التصرف — بصدد ما قد يكون أسوأ خبرة تمر بالطفل — صارت هذه الخبرة مدعاة

لسروره الحق . وأخذ هو يتطلع إلى صحبة زميله الجديد فى اللعب أو إلى هذا المخلوق الذى سوف يكون عليه أن يحميه ويعنى به . ومن ثم يؤدى هذا الشعور بالمسئولية إلى منفعة الطفلين على السواء . وإذا حدث أن أصبح الطفل الكبير غيوراً من الصغير فلا ينبغى أن نزيد غيرته بالإغاظة . أو بالنظر إليها على أنها مبعث للفكاهة والتندر ، لأن للأطفال حساسية مرهفة فمن الخطر أن نعبث بانفعالاتهم على هذا النحو المستخف المستهتر . بل هناك عدة أساليب مليئة بالرفق واللباقة ينبغى أن يصطنعها الآباء فى إقناع الطفل بأنه ما زال محلا للعطف والرعاية ، وأنه لا يزال عضواً فى العائلة له مكانته التى لم يغتصبها هذا الدخيل الجديد . وهذا أمر يسير لا يتعدى إعطاء الطفل جانباً من الوقت والانتباه ، وقليلا من التأكيد الذى يضمن اه بأنه لا يزال يحظى بعطف أولئك الذين يحبهم .

وكثيراً ما تبدو الغيرة الواضحة على الطفل عندما يظهر الآباء عطفهم الواحد على الآخر . أو يبدونه على الأطفال الأغراب عن العائلة . ومن سوء الحظ أن الآباء لعدم تقديرهم خطورة مثل هذه المظاهر كثيراً ما يرتاحون إلى حنق الطفل وغضبه ، ويستمتعون بهذا الانفعال الجديد ويرونه « لطيفاً » فيعملون على الإبقاء عليه والمبالغة فيه ، بل هم يثيرونه للزهو به فى محضر الزوار والأصدقاء .

ومع أنا نعرض الحالة الآتية على منوال يبعث الأسى على غير ما ألفنا فإن هذه الحالة مثل طيب لما نقول :

ل . . . طفلة تخطت السنة الثانية من عمرها ، لها طبع حاد طاغ ينفجر كلما عرقلت ، بل كثيراً ما ينفجر لغير سبب ظاهر . شديدة العداء لأختها التى تكبرها بعامين والتى كانت طفلة خجولة معتزلة هادئة شديدة الحساسية لأى احتكاك فى البيت . وأدى هذا المسلك الثأرى المرير الذى كانت توجهه

الصغيرة نحو الكبيرة إلى عدة مواقف كانت الكبيرة فيها ضحية لا حول لها بإزاء طبع أختها الطاغى الحاد . ومع أن الأم أحضرت الطفلتين إلى العيادة إلا أنها كانت تميل إلى إيقاع اللوم على الكبيرة لأنها لم تكن ترد على أذى أختها ، كما بدا على الأم جانب من الفخر بابنتها الصغيرة التى كانت تتحكم فى الناس جميعاً . وعند بحث الموقف وجدنا سبباً واحداً على الأقل يعلل موقفها إزاء الكبيرة . ذلك أن الأب حين لاحظ أن البنت الصغيرة كانت تبدو مغيظة محنقة كلما لعب مع الكبيرة رأى أن انفعالها ممتع فأخذ يكيدها بتدليل الكبيرة كلما عاد فى المساء ، بل لقد كان يعمل على إثارة غيرة الصغيرة أمام من يأتى إلى الدار من الزوار . فكانت الصغيرة تأكلها الغيرة ، فتكظمها حتى تسنح لها أول فرصة للاعتداء على شقيقتها الكبرى وضربها . هكذا نجد مثلا ساطعاً لنشوء الغيرة ونموها ، شأنها فى ذلك شأن الطفيليات لو عملنا على استنباتها فى المعمل . ومع أن انفعال الطفلة كان من النوع الساذج الغريزى الذى كان يدفعها إلى الاعتداء على من وقفت حجر عثرة دونها وعطف أبيها ، فإن هذا الموقف أقل خطورة مما لو أنها كانت قد كبتت شعورها نحو أختها . لأن الانفعال المكبوت فى مثل هذه الظروف قد يتحول إلى أعراض بدنية أو خلقية من الأعسر تفسيرها وعلاجها . وليس هناك من صلة لازمة بين عمق الصراع العقلى وشدته وبين ما ينتج عنه من سلوك . فإن أنواع الصراع العقلية التافهة السطحية قد تؤدى فى طفل إلى سلوك مضطرب مهوش ، بينما يمكن أن تكبت أخطر أنواع الصراع وأعمقها فى طفل آخر كبتاً مؤقتاً .

كذلك نجد أن الغيرة كثيراً ما تنهش الطفل إذا واصلنا المديح والثناء على أخ أو أخت ، وأخذنا نتحدث عن إخوته كأنهم نماذج تحتذى ، أو أغرقنا فى الإشارة إلى عجز الطفل الغيور وعيوبه ، إذ ليس هناك ما هو أكثر إيذاء وتدميراً من السخرية والعبث بمقدرة الطفل وموازنتها بمقدرة طفل آخر ، لأن

ذلك يبعث فيه شعوراً بالمرارة والحقد والقصور والعجز .

ولكى نتحاشى قدر ما نستطيع نشوء الغيرة فى الطفل يجب علينا أن نتدبر تلك الخاصة الشائعة فى الطفولة ألا وهى الأنانية . فيجب أن يتعلم الطفل أن عليه واجبات معينة إزاء عائلته ، ثم بعد ذلك إزاء الجماعة التى يعيش فيها . يجب عليه أن يبدأ فى التفكير مبكراً — ما أمكن التبكير — فى ما يفعله وما يقوله ، وفى علاقة هذا بالآخرين ، وأن يدرك أثر أفعاله وأقواله فيهم . وينبغى أن نكرر عليه القول بأن هذا المسلك أو ذاك فى هذه الظروف أو تلك إنما هو مسلك خاطئ أو مصيب . وينبغى أن يلمس فى بيئته أن كل فرد فى الأسرة إذا كان يعمل على إشباع رغباته فإنه يتجنب المساس برغبات غيره وهكذا يكتسب الطفل ، قبل أن ينضج تفكيره ، جانباً من العادات الطيبة تغرس فيه عن طريق الإيحاء والتقليد .

ويرجح أن يكون الطفل الغيور فرداً لم تواته الفرصة فى مقتبل عمره للاهتمام بغير نفسه . وأن ما يسمى « بالطفل الوحيد » ليوجد فى ظروف تدعوه إلى التركز حول نفسه ، ويحدث هذا خاصة إذا نشأ الطفل فى حى مزدحم كان يخشى عليه من طرقاته ، فالتزم داره دون صحبة سوى صحبة أمه . فهو سيد ، ولا شك ، يتحكم فيما حوله ؛ غير أن ميدان سلطته ضيق محدود ، لأنه لا يدرى شيئاً عن ميول غيره من الأطفال أو وجوه نشاطهم وليس لديه من الفرصة ما يهيئ له الوقوف على ذلك .

ومهما تفاوتت الظروف فتلك هى عين الحالة التى تعرض للطفل إذا منعه مرض أو إصابة من إقامة الصلات المبكرة مع غيره من الأطفال ، فلم يعرف سوى صحبة أمه الوالهة المضطربة ، فهو يصبح بدوره مؤمناً بقدره ومكانته . ولا يندر أن نجد طفلا معيناً فى إحدى الأسر موضعاً لعناية خاصة من أحد أبويه يحميه لا من الخبرة والتجارب ، بل من العواقب الطبيعية التى لابد أن تتبع

هذه الخبرة . فإذا شب هؤلاء الأطفال لم يطيقوا فى كبرهم الاعتراف بتفوق غيرهم ، وصار أى شكل من أشكال الرياسة مبعثاً عندهم للضيق والحقد .

وإذا اشتدت الغيرة عند المرء فى صغره لازمته فى كبره . فإذا كان طفلا تعسر عليه كثيراً أن يوفق فى صلاته مع أترابه ، وهو لهذا يشعر بالخيبة والخجل ؛ وفى هذا نفسه ما يعوقه عن التوفيق . وهو يشعر بأنه مهيض الجانب مهمل مظلوم فهو يتركز حول ذاته ، ويزيد هذا التركز حتى يدفعه إلى تجنب أترابه والابتعاد عن غمرة الحياة وقد تملكه اليأس وملك عليه القنوط ؛ أو هو قد يغدو عاتياً معتدياً حتى يجتذب الأنظار إليه . فإذا مرت الأعوام أدى هذا الانفعال إلى عجزه عن مشاطرة غيره فى ما يشعرون به من متعة وهناءة ، وصار مستحيلا عليه أن يشهد نجاح الآخرين دون أن يبدو منه لذلك سخط واضح مكشوف . ومن ثم كان الإنسان الغيور الحاسد موضعاً لكراهية الناس ونفورهم ، وهو كثيراً ما يعتقد أن القوم يضطهدونه ويسيئون إليه ، وكثيراً جداً ما تنتهى الغيرة إلى حقد طاغ ينزل به أسوأ العواقب .

فإذا أمكن تعليم الطفل عادات الإيثار فى المنزل حيث تكون صلاته بأفراد الأسرة قوية حارة تبعث فيه الغيرة وتدعوه إليها ، لم يلق حين يخرج إلى العالم عناء كبيراً أو صغيراً من هذا الانفعال المعجز السيء .

وإذا كان الطفل وحيداً فى الدار وجب العمل على تهيئة الفرصة له للاختلاط بغيره من الأطفال ، ولو أدى ذلك إلى تعرضه لمخاطر الطريق أو اصطناعه بعضاً من ألفاظ « الحارة » ولهجة صِغارها .

يجب أن نعلم الطفل مشاطرة لعبه وحلواه وكتبه ونقوده مع غيره من الأطفال ويجب أن يتعلم فى ألعابه كيف يعمل فى سبيل المجموع ، لا ابتغاء منفعته الخاصة فقط . فإذا أخفق فيجب أن يتعلم الاعتراف بتفوق غيره ، وأن يقابل ذلك باسماً بشوشاً . كما ينبغى لذلك أن يعرف الأطفال أن عدة ألعاب يقومون بها

على وجه ما خير لهم من الامتياز فى لعبة واحدة . فهناك ميل يغلب لا على الأطفال فحسب بل على الكبار أيضاً يدفعهم إلى التعلق بما يتقنون من أشياء وأن يتجنبوا ميادين النشاط التى لا يتفوقون فيها . وينبغى مكافأة سلوك الإيثار بالثناء عليه ، بل بإثابته أحياناً ببعض الثواب الملموس . فلا ضير فى أن يعرف الطفل بخبرته أن الإيثار أمر نافع يؤدى إلى خيره .

فليدرس كل منكم طفله . وليحاول الوقوف على علة سلوكه على هذا النحو . أهو معتد محارب متبجح ؟ أهو كئيب حانق أم ينفجر فى نوبات للطبع يهدأ بعدها ؟ أو لعله حيٌّ هادئ وهو أبداً نموذج للسلوك الحسن ، يدع الحياة تمر به دون أن يقوم بدور فعال ؟ أنعم النظر فى المسألة ، وتفهم كيف يعمل عقله ، واذكر أن المسلك الذى يبدو منه قد يكون تعبيراً عن شعوره على منوال بعيد غير مباشر ، ذلك لأن الاعتداء والتبجح قد يكون قناعاً يختفى تحته الشعور بالإخفاق واليأس ، بينما الاستسلام وعدم المبالاة قد لا يكون سوى غطاء لجراح نفسية دفينة . وقد يكون سلوك الطفل من ناحية أخرى تقليداً حاول أن يحاكى به سلوك شخص كبير هو محل إعجابه أو سلوك طفل هو على صلة به . ابذل من وقتك ما تتفهم فيه ابنك أو ابنتك ، فلسوف يثبت لك فيما يقبل من السنين أنك لم تصرف ذلك الوقت عبثاً مضاعاً .

وليست الغيرة أمراً وراثياً ، بل هى ثمة نتيجة للأنانية التى تنتج من التربية السيئة الخاطئة ، فإذا تعلم الطفل مشاطرة لعبه ، واقتسام محبة أبويه مع غيره ، وإذا عرف أن على أمه فى الحياة واجبات أخرى غير كل رغبة أو أمنية تبدو منه ، أقول إن هذا الطفل لن تلازمه الغيرة أن تطغى عليه . لكن الآباء الذين يرون فى الغيرة أمراً ظريفاً فيحاولون ابتعاثها أبداً فى الطفل : كأن يقارنوه بغيره من الأطفال ، أو يواصلوا كيده للمتعة بما يبدو منه ، إن أولئك الآباء يضعون الأساس لكثير من المصاعب العسيرة فى حياة ولدهم المقبلة .

اذكروا أن الطفل الغيور سوف يكون رجلا غيوراً ، وأنه سوف يكون امرأ يحسد أصدقاءه على ما يواتيهم من نجاح وتوفيق، وأنه قلما يستطيع العمل مع غيره ، وأنه سوف يكون دائم الشكاية من عدم تقدير الناس إياه، وأنه سوف يكون بالاختصار فرداً بعيداً كل البعد عن الانسجام مع البيئة التى يعيش فيها خلواً من التوافق مع غيره من الناس .

الفصل الثانى عشر

التدمير

من النادر أن نجد طفلا مدمراً عن قصد أو عن عبث وخلاعة ، مع أن الواقع أن الأطفال أثناء نموهم كثيراً ما يعمدون إلى إيقاع التلف ، لا بما يملكون هم فحسب ، بل بكل ما يحيط بهم أو يصلون إليه ، وهو تلف يبدو غريباً لا مبرر له غير أن النتائج السيئة لأفعال الأطفال ليست سوى أمور عارضة ، تقع أثناء محاولة الطفل تحقيق غرضه ، والعمل على تحقيق الفكرة التى نشأت فى رأسه الصغير ، دون أن يصدر فى هذا عن خبث أو سبق إصرار . فالنشاط والحركة أمر لازم للأطفال ، إذ يتعلم الطفل السوى بتقليد الناس وفحص الأشياء . ومن أهم ما يبعث الطفل فى حياته عمله على إرضاء حبه للاستطلاع ، وإشباع رغبته إلى تعرف الأشياء ، ولولا ذلك لما كان فى الإنسان ما يبعثه إلى المعرفة أو يدفعه إلى التعلم .

والطفل فى سنيه الأولى لا يدرك قيم الأشياء ، فطاسه الصغيرة الباهتة خير عنده من صحاف القيشانى الغالية النفيسة ، ولا يمكن للسجادة العجمية الرائعة أن تبلغ من نفسه مبلغ المشمع الزاهى الألوان الذى يراه فى مطبخ المنزل ، ومع هذا فما أكبر الجلبة التى تصدر عن الكبار إذا أوقع الصغير شيئاً فى حجرة الاستقبال ، وما أفدح المصاب إذا حدث أن أفلت من يده قطعة من طقم الصينى الذى تعتز به الأسرة .

ونشاط الطفل — على قلة تناسقه وشدة غموضه فى بعض الأحايين — لا يخلو من غرض معين ، ذلك لأن وراءه خطة تحركه ، وأمامه غرضاً يرمى إليه . فإذا

لجأ أحياناً إلى الجذب أو اللى أو التشويه أو الكسر أو التمزيق أو القطع ، فإنه قلما يفعل ذلك عن خبث وسوء نية ، بل إن ذلك يصدر عنه قصداً فى بعض الأحايين ، وعفواً فى بعضها الآخر . فهو يجذب غطاء المائدة كى يستعين به على النهوض ؛ وهو يلوى ذيل القطة لأن ذلك يدفعها إلى مواء بعد صمت ، وإلى حركة بعد سكون ؛ وهو يقطع جوربه حتى يظهر قدرته على استعمال المقص المعدنى العجيب ؛ وهو يهشم الأزهار كى يعبر عن سروره بها ؛ وهو يستخدم الطباشير أو الأقلام إذا كشف أنه يستطيع أن يترك بها أثره على الحوائط أو على قطع الأثاث . يثير فيه كل هذا شعوراً بالقوة يتظاهر به ، ويستمد منه متعة كبيرة موفورة . ولا يبدو له أن ما وصل إليه من نتائج جديدة يلحق ضرراً أو بسبب خسارة يغضب البالغين . ويتملكه العجب بل الحزن أحياناً إذا ألفى أن القوم لا يرضون عن فعاله . ويأسى لما ينزل به من لوم وتعنيف ، ويشعر شعوراً مرهفاً بظلم العقاب وحيفه . ومهما يكن من ضرورة فى حماية الطفل من اندفاعه إلى تعود الإتلاف فإن ما يفوق ذلك خطراً وأهمية أن نفحص كل الظروف والأحوال التى أدت به إلى ذلك ، وأن ندركها تمام الإدراك . ويمكن أن يتفادى الآباء كثيراً مما يحنقهم — فيما نسميه بالميل إلى التدمير — إذا هم خصصوا للطفل غرفة أو مكاناً يلعب به ويعبث بما فيه كيفما شاء .

يهيىء المحيط الذى يعيش فيه البالغون كثيراً من المغريات التى تجذب الطفل . فهو لا يستطيع أن يقاوم ما يجتذبه إلى التناول والفحص وسرعان ما يؤدى إلحاح الآباء على الطفل بالكف عن نشاطه إلى إدمان التقريع الذى يتأتى عنه التهيج والغضب عند الآباء ، والتبجح والعصيان الصريح عند الطفل . ومع ذلك فإنه يمكن أن نتجنب كثيراً من هذا الاحتكاك لو أمكن أن يكون للطفل ميدان خاص به ، سواء أكان ذلك حجرة الألعاب ، أم ركناً يستطيع

أن يلهو فيه بعيداً عن تدخل الآخرين .

وقد يرجع التحطيم إلى الغيرة ، أو الغضب ، أو إلى صراع عقلى مبهم طاغ عميق ، أو إلى موقف جديد فى البيئة أقرب إلى التفاهة اشتد فيه الانفعال . لهذا يجب أن نرى إلى هذه المواقف الانفعالية وأن نعنى بعلاجها قدر عنايتنا بعلاج الحمى أو الصداع . أى أن نبذل كل جهد للوقوف على السبب والقضاء عليه ما استطعنا ذلك .

س . . . صبية فى الثامنة من عمرها ، دأبت منذ ثلاث سنوات على أخذ ثأرها من الحياة على منوال فيه من الطرافة قدر ما فيه من الأذى والحنق . عند ما بلغ أخوها من العمر مبلغاً يمكنه من تلقى دروس الموسيقى على « البيان » ، اشتدت غيرة البنت ، فلم تكن تتحدث إلا قليلا ، غير أن أفعالها كانت تنم على شعورها الجريح من أن أخاها هو الذى استمتع بتلك الفرصة . وسرعان ما أدى ذلك الموقف إلى تحطيم مفاتيح البيان وليها ونزعها من أمكنتها . كما حدث مرة عند مرض أختها : أن انصرفت أمها طبعاً إلى العناية بالمريضة ، فأخذت صاحبتنا حقها بتقليع كافة أشجار الزهر فى الحديقة . وكانت إذا رأت عند أطفال الجيران لعباً تحسدهم عليها ، لجأت إلى إتلاف لعبها الخاصة بحجة عدم صلاحيتها وأنها لا تساوى الاحتفاظ بها .

ومن عثار حظ هذه البنت أن أحداً لم ينسب سلوكها هذا إلى الغيرة ، بل كانوا ينسبون ذلك أحياناً إلى ميلها إلى ارتكاب الاثم ، فينزلون بها العقاب ، ويحرمونها من اللعب ، فتزداد سخطاً وحنقاً . بل كان أبواها يريان فى مسلكها أحياناً ما يدل « على أن بعقلها خللا » وبذلك يصرفان النظر تماماً عن ميولها إلى التدمير ؛ مع أن المشكلة كانت فى صميمها مشكلة انفعالية ، تستلزم عون الطفلة على تفهم ما يدفعها إلى سلوكها السيىء ، ومنحها جانباً أكبر من الانتباه بدلا من الانتقاص منه .

يحتاج بعض الأطفال أكثر من غيرهم إلى زيادة العطف والانتباه إشباعاً لحياتهم الوجدانية ، وهم يتفاوتون فى ذلك قدر تفاوتهم فى ما يلزمهم من مقادير الطعام . ولذا يجب علينا أن نقف على طرز الأطفال المختلفة ، وأن نسد حاجات كل طراز منهم .

وفى بعض الأحايين يتأتى الميل إلى التحطيم عن صراع نفسى شديد العمق ، لا يدرى الطفل ولا أبواه شيئاً عنه ؛ وكثيراً ما يستلزم الكشف عن الأفكار الملتوية المشوهة التى يتضمنها هذا الصراع قدراً كبيراً من المهارة والحذق ، ومن الوقت والصبر ، لكنه لا يؤدى إلى أية نتيجة فى مثل هذه الحالات سوى البحث الشامل الدقيق ، والحالة التالية مثل طيب لما نقول :

ل . . . صبية صغيرة شديدة الجاذبية ، تبلغ من العمر عشر سنوات . لا يبدو من تاريخها الصحى ما يسترعى النظر . وهى فى الفرقة الرابعة بالمدرسة ، وتسير فى دراستها سيراً حسناً يمكن أن نأخذه معياراً يدل على قدرتها العقلية . أحضرها أبوها إلى العيادة قائلا « إنها مدمرة خبيثة الطوية » وإنها « عنيدة تتعمد العصيان » وأدلى إلينا بالتفاصيل التالية عما ارتكبته منذ قريب .

دأبت طول الشتاء على النزول إلى « بدروم » المنزل تفتح صنبور الماء البارد الذى يصب فى غلاية البخار حتى تنشر البرد والقر فى أنحاء الدار كلها . فكان ينزل بها التعنيف الشديد إلى جانب التهديد والضرب ، بل كانت توضع يداها العاريتان على الموقد الملتهب حتى تحرق حروقاً مؤلمة يتطلب تضميدها عدة أيام . وما يكاد يفض عنها الضماد دقائق معدودات حتى تعيد ارتكاب فعلتها من جديد .

قبل زيارة العيادة بأربعة أيام ، ولسبب خاف ، أخذت دبوساً وراحت تخدش به البيان ، وتبع ذلك الحادث فى اليوم التالى أن راحت تشوه سطح مائدة الطعام بغطاء علبة من الصفيح . وعقاباً على هاتين الفعلتين خدش أبوها

كف يدها اليمنى وذراعها بدبوس حتى ترك بهما جروحاً ظاهرة قبيحة .

وفقد أبوها أخيراً عدة أسطوانات للحاكى ، ولما سألها صرحت بأنها أخذتها إلى المدرسة ، ومع ذلك لم ترجعها رغم رجاء أبيها إياها بأن تعيدها . فذهب أبوها إلى المدرسة وقابل المعلمة والناظرة اللتين ادعت البنت أنها أعطتهما الأسطوانات ، فلم يؤد ذلك إلا إلى اعترافها بأنها قد كذبته الحق . فتناولها بالضرب ضرباً موجعاً فى طريقهما عائدين إلى البيت ، لكنها التزمت صمتاً مطلقاً كئيباً حتى اليوم التالى ، حين أدلت إلى مدبرة المنزل بأنها قد وضعت الأسطوانات فى شقوق الشرفة الكبيرة ، فاستدعوا أحد النجارين وخلع النجار عدة من ألواح الشرفة الخشبية لكن الأسطوانات لم تظهر . وبعد ذلك بأيام وبمحض رغبتها أظهرت الأسطوانات التى كانت قد أخفتها فى حجرتها الخاصة . وهى إلى هذا كله تدمن الكتابة على ورق الحائط وتحطم الجدران وتتلف أثاث المنزل .

هى كبرى خمسة أطفال ماتت أمهم منذ ثلاث سنوات . ويقول أبوها إنه قد أحضر أكثر من عشرين مدبرة للمنزل منذ ذلك الحين . والقائمة بالعمل الآن سيدة لها من العمر ثلاثة وستون عاماً ، وهى تحنو على هذه البنت وتحبها . والطفلة بدورها مولعة بها . والولد رجل صارم متحفظ سريع الغضب يعمل جاهداً لخير العائلة ، ورغم ما يبدو عليه من شدة وصلف فهو طيب القلب عارف بواجبه .

وتعتبر المريضة فى المدرسة طفلة ممتازة صادقة طيبة السلوك ، وهى فى البيت كذوبة عاصية مدمرة أثرة ، تغار حتى من الأشياء الجامدة ، حقود عنيدة لا تعطف على أحد . يقول أبوها إنها لترضى أن تتحمل أى ألم حتى تزيده غماً وكمداً .

بدت لنا فى العيادة طفلة مرحة لطيفة ، واعترفت اعترافاً صريحاً بغيرتها من أختها الصغيرة وأخذت تتحدث فى غبطة بالغة عن تجارب اليوم المدرسى ،

ولكن الحزن تملكها وجرت دموعها سخينة عند ذكر أمها فجأة . وزعمت أنها تحمل على أكتافها تبعة « العيال الآخرين » كما كانت تدعو إخوتها . وهى تحب أترابها فى المدرسة ، مولعة بالملابس الأنيقة ، تحب معلماتها كما تحب مدبرة المنزل وتحب أباها . ولا تظهر سخطها على ما ينزل بها من عقاب صارم ، ولا تدلى بأى اعتذار أو تفسير لسوء سلوكها .

وهى تلوح رقيقة الحاشية أهلا للصداقة ، حتى ليشعر المرء بأن قد قامت بينه وبينها علاقة من العطف الوثيق سوف تساعده على إصلاح الأمور . . . أفهمنا الوالد أن العقاب لا يجدى نفعاً ، وآمن هو بهذا القول وقتاً ما . وسألناه أن يبدى لصغاره جانباً أكبر من عطفه . فلما كان أحد الأيام بدا حسن طويته عندما مر على العيادة وثلاثة من أبنائه فى طريقهم إلى السينما ، وكان تقريره فى هذه الزيارة الثانية باعثاً جدًّا على الأمل ، فقد سارت المريضة سيراً قويماً منذ أسبوع ولم يبد منها أى ميل إلى التدمير ، وشاع عليها المرح والهناء وانطلقت الصغيرة فى حديث كله مرح وجذل لذهابها إلى السينما .

ثم عاد بعد السينما إلى المنزل ، ولاح أن كل شىء يسير على ما يرام ، وإذا بها تجمع فجأة ودون سبب ظاهر عدة إسطوانات للحاكى فتحطمها جميعاً ، ولم يكن هناك من انفعال معين يدفعها إلى ارتكاب هذه الفعلة التى كان من الواضح أنها اندفعت إلى إتيانها اندفاعاً لا قبل لها بدفعه . فلم ينزل بها عقاب هذه المرة ، وسارت الأمور هادئة يومين اثنين لم يفتأ أبوها خلالهما يعلل النفس بأنه قد يمر أسبوع آخر لا تفد عليها خلاله ميولها إلى الهدم والتحطيم . فابتاع لها الوالد فى مساء اليوم الثالث حذاء أبيض كانت تتوق إليه منذ زمن طويل ، وسعدت بالهدية حقًّا ؛ لكن لم يمض على عودة أبيها أكثر من ساعة حتى راحت تمزق وسائد مقعد من أحسن مقاعدهم فى حجرة الاستقبال وتعمل فيه تقطيعاً بالمقص . وافانى الرجل المسكين بهذه الأخبار بالتليفون ، وصرح لى بأن صبره قد نفد ،

وأنه ينبغي التفكير فى طريقة لإبعاد هذه الصبية عن الدار .

فاتفقنا على الفكرة وأرسل الأطفال جميعاً إلى الريف خلال أشهر الصيف ، ولم يكن ذلك بطبيعة الحال سوى حل مؤقت ، سوف تلاحقنا المشكلة بعده عند عودة الأطفال إلى الدار عقب العطلة .

لم يسنح لى ما يكفى من الوقت لملاحظة هذه الحالة ودراستها دراسة تمكننى من الوقوف على ما يكمن تحت هذه المظاهر من عمليات نفسية تدفع الطفلة إلى الإسراف الشاذ فى الهدم والتدمير . ومع ذلك فإن هناك من العوامل البارزة فى قصتها ما يشير إلى ما ينبغي اتخاذه فى خطة العلاج . وأول هذه العوامل وأكثرها أهمية هو حب البنت لأمها حبًّا شديداً ، وعجزها عن أن تتقبل وفاتها وأن تدبر حياتها على قبول هذه النازلة التى ملأتها مرارة وسخطاً لحرمانها من الأم ورعايتها .

وإذا نحن فحصنا هذه الوقائع فحصاً سطحيًّا وجدنا أن ميول الطفلة إلى التخريب موجهة نحو المنزل الذي تعيش فيه ، ونحو الأثاث الذى يحتويه . أما فى المدرسة ، أو خلال زيارتها للناس ، أو فى أية ظروف أو أحوال لا تشابه ما فى بيتها هى ، فإنه لا يصدر عنها شيء من هذه الروح الهدامة . لهذا يبدو أن ما يرتبط بدارهم الخاصة هو الذى يثير فيها تلك الميول السيئة ؛ كما يجد المرء أيضاً من قصة هذه الحالة : أنه قبل وفاة الأم بعدة سنوات طوال كانت أمنية الوالدين معاً توفير المال اللازم لتشييد دار يتيهون بها ، ويفاخرون سكان الحى الذى يقيمون فيه . فأخذ الأبوان يكدحان يوماً بعد يوم كدحاً لا راحة ولا هوادة فيه ، بل لقد كانا يحرمان نفسيهما من ضرورات الحياة — إلى أن انقضى أجل الأم — حتى يجمعا ما يلزم لبناء الدار من مال . ومع هذا فلم يتيسر بناء

المنزل إلا بعد وفاة الأم ، فشيد الوالد منزلا كلفه بضعة آلاف ، حتى لكأنه أقام أثراً يتحدث عن طموحه ودأبه . غير أن المرء لا يستطيع إلا أن يشعر على وجه ما : أن ذلك البيت لم يكن فى نظر البنت — على شعور منها أو لا شعور — إلا نصباً تذكارياً لتضحية الأم وكدها ، تلك الأم التى كانت الطفلة دائماً شديدة التعلق بها . وقد يرى البعض فى هذا القول رأياً يقوم على التأمل ولا يعتمد على الواقع ، نظراً لقصر المدة التى أتيحت للمؤلف فى دراسة هذه الحالة بالذات ، غير أنه ليس مما يبعد عن الصواب فيما يتعلق بهذه الأفعال الهدامة السيئة التى تبدو أموراً متعمدة مقصودة ، أن نلتمس تفسيرها وأن نجد علتها فى شكل من أشكال الصراع النفسى العميق ، لا قبل للصبية بالتغلب عليه .

ويجب ألا يفوتنا أن كثيراً من أنواع النشاط التى يعتبرها الكبار نشاطاً هداماً إنما هى عند الطفل بناء وتعمير حقاً ، فهى تمثل جهداً يبذله للوقوف على القوانين الطبيعية التى تقوم عليها الأشياء التى تعرض له . فالأرجح أن الصغير الذى لا يثير استطلاعه دقات الساعة أو رنين الجرس الكهربائى أو الموقد وكل الأجهزة الآلية التى يقع عليها بصره فى حياته اليومية ، الأغلب أن يكون مثل هذا الصغير مستغلق الذهن غبياً لا يستخف له ظل رغم سهولة قياده والعناية بأمره .

وكثيراً ما يجد الصغار ، سعياً وراء الوقوف على تركيب بعض الأشياء أن من اللازم تفكيكها . وينبغى بالطبع أن نمنع الأطفال من التجريب فى الأشياء الثمينة التى يسهل إتلافها دون أن يكون للطفل فى ذلك من المتعة أكثر مما فى لعبة رخيصة الثمن . ويمكن أن تنصرف ميول الأطفال إلى التحطيم نحو أمور لا يضيق بها الآباء لو اصطنع هؤلاء قليلا من المهارة فى انتقاء اللعب لهم . ومن الخير أن نذكر أن اللعب التى يمكن تنظيمها وإعادة تنظيمها على عدة

وجوه – مثل القوالب التى تبنى ثم تهدم – لعب جزيلة النفع كمنصرف تسير فيه ميول الطفل إلى البناء والتشييد . ولا ينبغى أن يضيق الآباء كثيراً إذا لجأ الطفل أحياناً إلى البناء ، فليس الهدم عنده سوى وسيلة نحو غاية . لهذا يجب علينا أن نفرق بين ميول الهدم التى تعرض خلال عمل الطفل على إشباع ميله إلى الاستطلاع ، وبين ميول الهدم التي تبدو أحياناً دون أن يبتغى منها الصغير غرضاً معيناً ، بل تصدر عن عدم المبالاة والاستخفاف بقيمة الأشياء . ويغلب أن تظهر هذه الميول فى الطفل إذا أغدقت عليه اللعب ووسائل التسلية زيادة عن الحد المعقول .

وكثيراً ما نلقى آباء – رغم ما هم عليه من فقر – يغرقون أبناءهم باللعب الغالية الآلية المعقدة التركيب التى لا تؤدى غرضاً نافعاً . وهم بذلك لا يشبعون استطلاعهم ولا يشجعونهم على الابتكار . لأن هذه اللعب من النوع الذى يشتغل « بالزمبلك » ، بل كثيراً ما يقوم أحد الأبوين بما يلزم لدفع تلك اللعب إلى الحركة بينما يجلس الصغير كسولا يشاهد العملية ولا يشاطر فيها . يتنقل مثل هؤلاء الأطفال من لعبة إلى أخرى فى ملل وتبرم ، مع أن ترك الطفل وشأنه يدفعه إلى التماس الوسائل واختراع الحيل لتسلية نفسه .

وفى انتقاء اللعب – كما فى كل الشئون الأخرى – يصدق القول بأن خير الأمور الوسط ، والوسط هنا تزويد الطفل بلعب بسيطة متقنة الصنع ، يمكن تفكيكها وتركيبها دون أن يلحقها التلف . كما يجب توفير المكان الذى يستطيع أن يقوم فيه الصغير بعملياته وأن ينصرف إلى لعبه ، دون أن يتابعه الكبار توجيهاً أو كفاً . إذ سرعان ما يجد الأطفال من الوسائل ما يسليهم ، وما يكسبهم أيضاً ذلك التوفيق العضلى الذى يلزمهم عند تناول الأشياء والعمل بها فيما بعد .

أما ما نود أن نقوله هنا خاصًّا بتحذير كل أب وأم فيما يتصل بهذا الموضوع فهى : احذر فى تربية أبنائك على الطاعة والأدب وحب النظام أن تهدم فيهم التجديد والابتكار ، واحذر إذا حاولت القضاء على ميولهم الهدامة أن تقضى أو تكف تلك الدوافع التى لابد منها لاكتساب المعرفة ، مع ما قد يكون فيها من بعض العناصر الهدمية ، فالاستطلاع والرغبة فى الوقوف على عمل الأشياء، وكيفية صنعها ، وطرق استخدامها ، هو علة أكثر الميول الهدمية فى الأطفال .

الفصل الثالث عشر

القصور [1]

إن ما يدعى « عقدة القصور » عبارة قد شاه استعمالها وساء ، كثيراً ما يستخدمها الجمهور فى غير دقة أو عناية . ومع هذا فإن الشعور بالقصور حقًّا يوجد بعض الأحيان فى الأطفال كافة ، وكثيراً ما يلعب دوراً هامًّا فى موقفهم العام إزاء الحياة . فلو أنا نظرنا إلى الحدود والقيود التى يحاط بها الطفل العادى لما عجبنا إذا أدرك ضيق الميدان الذى فرض عليه أن يعيش فيه . ولما كان الصغير يعتمد إلى حد كبير جدًّا على آراء الآخرين فى تقدير قيمته تقديراً صحيحاً كان من الطبيعى أن يتقبل تلك التقديرات التى يضعها الكبار عن عجزه . والآباء يلحون أبداً فى إقناع الطفل بفجاجته وحجمه وقلة خبرته حتى « يعرف مركزه » ، والقول بأن « الأطفال ينبغى أن يشاهدوا ولا يسمعوا » يرمز بوضوح إلى الموقف الذى يتخذه كثير من الآباء عن الدور الذى ينبغى أن يقوم به الأطفال فى حياة الأسرة .

وموقف الترفع الذى يتخذه لا الآباء فحسب ، بل الخدم أيضاً وخاصة المراضع والمربيات منهم بإزاء الأطفال عامل مهم فى بعث الشعور بالعجز فى

---

(١) أقام ألفرد أدلر (١٨٧٠ – ١٩٣٧) على الشعور بالقصور وما يتبعه من تعويض فى الحياة البدنية والنفسية مذهبه المعروف « بعلم النفس الفردى » وقد لقيت كتبه ذيوعاً كبيراً وانتشرت طريقته فى العلاج وخاصة فى العيادات السيكلوجية ، كما أثرت أثراً كبيراً فى التربية . وهو يعيب على فرويد إغراقه فى الإيمان بأثر الميول الجنسية ، ويرى أن الدوافع فى الحياة هو التماس القوة والتفوق . وتقوم فلسفته إلى جانب هذا على أن نشاط المرء يتجه نحو غاية ويقوم على وجوده فى مجتمع يتفاعل وإياه . راجع كتابنا «علم النفس الفردى» ، دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٥٢ . (المترجم)

نفوس الصغار وكثيراً ما يؤدى تغافل الآباء وقلة مبالاتهم إلى السخرية بالطفل وتحقير شأنه ، وإن الآباء ليتورعون عن تجاهل الخدم وإغفال أسئلتهم قدر ما يتجاهلون الطفل ويغفلون وجوده . بل إن الكبار الذين يعرف عنهم عادة حسن الأدب ورقة الحاشية ورعاية مشاعر غيرهم ممن يقربونهم فى السن كثيراً ما لا يحفلون أو يبالون أى مبالاة بوجود الطفل . حتى ليبدو أن ما فى مثل هذه المعاملة من إذلال وإحناق وتحقير للطفل أمر يسمو على مدارك الكبار ، وحتى ليبدو أن إيمان الطفل بتفاهة قدره وشعوره بالاعتداء على عاطفة اعتبار الذات (١) مسألة لا تمر ألبتة لهم بخاطر . ولو أننا عنينا بالنظر إلى الأمر أى عناية لكان من الواضح كل الوضوح أن مثل هذا الموقف الذى يقفه الكبار بإزاء الصغار يبعث الشعور بالقصور فى نفس الطفل . على أن شدة بعد تلك الصلات عن التحديد ، بين الكثيرين جداً من الناس ، ودوام تحولها وتغيرها ، تهيء لها المرور عابرة لا يحفل بها أحد ؛ غير أن غموضها وعدم تحديدها تحديداً دقيقاً لا يهونان من خطرها أو يخفضان من أهميتها على أى وجه من الوجوه . والحالة الآتية مثل طيب ، لكنه يبعث الأسف عن حرب أهلية اشتعلت نارها فى أحد البيوت :

ا . . . فتى صغير فى الثانية والنصف من عمره أرسل من مدرسة الحضانة إلى العيادة للأسباب الآتية « سيئ الطبع ، دائم العراك ، يضرب غيره من الأطفال ويكيل لهم الصفع دون استفزاز ، يود أبداً الحصول على ما عند أخيه ويكافح من أجل ذلك » .

فوجدنا حياة الطفلين المنزلية فوضى ومدعاة للشقاء . فالأب والأم فى شجار مقيم ، قيل عن كل منهما إنه حاد الطبع سريع الغضب .

---

(١) Self-regarding Sentiment هى أهم العواطف الإنسانية قوة وشمولا تلازم الإنسان منذ طفولته إلى شيخوخته. وتبدأ عند الطفل حين يدرك أن له بدناً ، ثم يشعر أنه عضو فى جماعة ، وهكذا تتسع هذه العاطفة مع الخبرة والزمن حتى تصل إلى أوسع مدى لها حين يتجمع ماضى الفرد وحاضره ومستقبله فى هذه العاطفة الشخصية التى تدور حول فكره بالذات . (المترجم)

ويظهر أن ا . . . وهو أصغر الطفلين كان أبداً محظيًّا عند أمه بينما أخوه الأكبر كان أثير أبيه . وفى مدرسة الحضانة كان الأخ الأكبر يبدو دقيق الحس بالغ الهدوء ، وهو مطيع كل الطاعة أكثر أدباً من الأطفال الآخرين . وفى بعض الأحيان يصيبه البوال وعقلة اللسان[١] ؛ ورغم هذا فالأم ترى ما يخالف ذلك تماماً ، فهى تزعم أنه محب للرياسة والتسلط ، وأنه عنيد أبداً ، وأنه يغار من أخيه الصغير ، وأن له طبعاً حادًّا شديداً ، وأنه يعض غيره من الأطفال أحياناً . كما ذكرت أنه يهابها ويخشاها كل الخشية . وأنها إذا « انفجرت غاضبة » أو هددته بالعقاب « ارتعدت فرائصه ارتعاداً » .

ولما استرعينا نظر الأم إلى تناقض الحديث عن شخصية الطفل ، قالت إن الصورة التى قدمتها لنا « صحيحة فقط حين تعرض له نوبات سيئة » ، لكنه فى العادة هياب جدًّا ، لايدافع عن حقوقه بتاتاً ، وأن « أخاه الصغير قد يطرحه أرضاً ويدوسه بأقدامه دوساً دون أن تبدو منه أية مقاومة » ، كما ذكرت أيضاً أنه لطيف جدًّا يحب التدليل ، وأنه يخشى الظلام حيث « يتوهم فيه كثيراً من الأشياء والأشخاص » .

وفى غرفة الفحص بدا الطفل كثير الهدوء . وكان ظاهراً عليه احمرار حُمَّى واضح وكان يتنفس من فمه لكثرة الإفرازات المخاطية من كلا منخريه . وكان عنده تضخم فى الزوائد الأنفية واللوز وفى غددالرقبة . وكان الصبى ناقص النمو سيىء التغذية . فأحلناه فى الحال إلى العيادة الطبية ، وطلبنا إلى أمه أن تعود إلينا بعد عشرة أيام .

وكانت الأسرة تعيش مع الجدة للأم ، لأن الوالد كان لا يستطيع أن يعولهم . وعرفنا من الجدة أن فى الدار حزبين متقابلين ، فالطفل الأصغر

---

(١) Stammering العقلة — اعتقل لسانه بالبناء للفاعل والمفعول إذا حبس عن الكلام أى منع فلم يقدر عليه .

المشاكس يقف إلى جانب أمه ضد أبيه وأخيه الهياب ؛ ولما كان الأب يصرف النهار فى العمل وشطراً من الليل فى اللهو ، لم يكن ما يقضيه من وقت بالمنزل سوى جانب ضئيل ، فكان على الطفل الأكبر وقد ترك بمفرده أن يقوم بالمعركة وحيداً . ولما كانت الأم تحمى الصغير فقد عرف بخبرته أنه يستطيع أن يعاكس أخاه الأكبر وأن يتابعه بالأذى دون خشية من العقاب . وعرف الأكبر دون شك أن أبسل الشجاعة هو أن يرتضى ما لا بد منه من عسف أخيه ، خيراً من أن يثير سخط أمه أيضاً . وهكذا ازداد الصغير يوماً بعد يوم سطوة واعتداء ، بينما ازداد الأكبر ذلك خنوعاً ، لا يثور فى وجه أخيه إلا لماماً ، فيتناوله عضاً وخدشاً على شكل غريزى خطير . وليس هذا رأياً وصلنا إليه عن طريق التفكير والتأمل فحسب ، بل إن الواقع كان يؤيده ، إذ أن الطفل الأصغر كان قد تحسن سريعاً منذ دخوله المدرسة ، حيث ضاقت أمامه الفرصة التى كانت تهيئ له أن ينصرف إلى الاعتداء والبطش دون أن يلقى جزاء أو عقاباً .

وهذه الحالة تبرز لنا ناحيتين لهما خطرهما : الأولى تتصل بأثر البيئة فى تكوين الشخصية ونموها ، والأخرى تتصل بأهمية أشكال معينة من الأعراض فى التنبؤ بسير الحالة .

فمما يدعو إلى دوام التساؤل : أنه إذا كانت البيئة عاملا له هذا القدر الجليل من الفعل فى تكوين الشخصية ، فلم يتأتى أن يكون فردان قد نشآ فى عين البيئة متناقضين تمام التناقض فى الخلق وفى الاستعداد ؟ تثبت لنا هذه الحالة أن المهم ليست البيئة فى نفسها ، بل إن الجو العقلى فى هذه البيئة هو ذو الخطر الكبير . فنحن هنا بصدد شقيقين تراثهما الاجتماعى واحد ، غير أن الجو العقلى لكل منهما فى المنزل متباين كل التباين . فأحدهما يعيش حياة تملؤها الرعاية ، يستدفئ فيها بألوان العطف من أمه التى تغمره بحنانها ، بينما الصبى الآخر يعيش فى عذاب متصل يلاقى الأمرين من أذى أخيه الأصغر ، ومن تقريع أمه الذى

لا ينقطع . ومن ثم فليس من العسير أن نفهم العلة فى أن تتكون لكل منهما شخصية تناقض شخصية أخيه وتختلف عنها كل الاختلاف ، وبينا تتميز إحداهما بالاعتداء والتسلط تتميز الأخرى بالخنوع والشعور بالقصور .

وفيما يتصل بالمسألة الثانية نجد أن التنبؤ بسير الحالة يدعو أبداً إلى قلة الرجاء فيها إذا كان عيب الشخصية من النوع الذى يدفع الفرد إلى التقاعس عن صلاته بالناس ، لأنه يحرم الفرد من الفرصة التى تتيح له أن يقيم لنفسه ميولا جديدة لا تختص بنفسه . كما أن ذلك العيب يمحو ضرورة العمل على التكيف وفق أوضاع المجتمع ، ويهيىء له من الوقت ما يتيح له أن يقيم حياته فى الوهم ، بعد أن انقطعت صلته بالواقع . أما إذا كان بالشخص من الميل إلى الاعتداء قدر ما عند الأسوياء من الناس وبقيت صلاته بالجماعة قائمة أتيحت له بذلك الفرصة لتعلم دروس الحياة ، مما يلقاه فيها من خبرة ومن ضرورة تكييف نفسه وفقاً لأحكام المجتمع الذى يعيش فيه .

وهناك غير هذا كثير من الظروف والمواقف التى تقوم بدور هام فى تكوين الشعور بالقصور الذى يعرض لكثيرين جداً من الأطفال . فالطفل المصاب بعاهة فى بدنه ، كأن بقى فيه مثلا من آثار شلل الأطفال ما تركه بذراع ضامرة أو سقيمة الحركة ، أو الصغير الذى يقال إن قلبه ضعيف فيفرض عليه أن يحد من حركته ونشاطه ، أو ضعيف البصر الذى لابد من استعمال النظارات ، أو الصبى السيىء التغذية الناقص الوزن الصغير الحجم ، أو المصاب بأية عاهة بدنية أخرى — أى واحد من هؤلاء كثيراً ما يجد نفسه فى وضع يزيد شعوره بهذا العجز أو ذاك . والحق أنه قد يكون صحيحاً أن أى غلام من هؤلاء لا يبلغ فى الكفاية من الناحية البدنية مبلغ الطفل الوسيط ، غير أن جانباً كبيراً من عجزه ينتج لا من المرض أو العاهة فى نفسها ، بل من الموقف الذى يتخذه غيره من الناس بإزاء تلك العلة ويدفعه إلى التسليم بعجزه وقصوره .

ولأشكال العجز العقلى عين الأثر ، مع أن العجز العقلى قد يكون نقصاً ظاهراً لا حقيقة له فى الواقع ، كأن تجد بنت نفسها فى العاشرة من عمرها متخلفة عن قريناتها فى المدرسة بفرقة أو فرقتين ، أى أنها فى مرتبة من يصغرنها سناً ، الأمر الذى يؤدى إلى كثير من التعريض بها والتعليق على حالها . فإذا تتبعنا حياة الطفلة وأكملنا ذلك الفحص السيكلوجى فكثيراً ما نجد أننا بصدد طفلة سوية كل السواء ، غير أنه بسبب المرض أو لكثرة تنقل أهلها وما استلزمه ذلك من كثرة تنقلها من مدرسة إلى مدرسة تخلفت عن غيرها . فإذا اعتقدت مثل تلك الطفلة أن خيبتها فى القيام بما يناسب عمرها العقلى تعود إلى قصور عقلها ، فسرعان ما تثبط همتها ، ويضيع اهتمامها بعملها ، حتى تيأس أخيراً من قدرتها على القيام بأى عمل عقلى . أما إذا حاولنا من الناحية الأخرى أن نقنعها بحسن استعدادها الذى لم تسنح لها الفرصة من قبل لاستغلاله على خير وجه ، فإن موقفها بإزاء الأعمال العقلية يصير مليئاً بالاهتمام والحماسة ، فإذا هيئ لها ما ينبغى من ظروف البيئة فسرعان ما تعوض ما فقدته من قبل .

فإذا قيض الحظ العاثر لطفل وسيط الذكاء أن ينافس أخاً ممتازاً أو أختاً فائقة وألفى نفسه أبداً غير راجح الكفة فى الموازنة بينه وبين من يفوقه من إخوته تعسّر عليه أن يعرف قدر نفسه وأهميته . وكثيراً ما يشعر الآباء أنهم بالمقابلة بين طفل وطفل يوقظون غيرة كل من الطفلين ، ويثيرون همتهما إلى الجد والنشاط ، غير أن ما يتأتى أبداً هو أن الطفل الممتاز يبالغ فى فكرته عن قدره ، بينما تبعث الغيرة فى نفس الآخر فيضاً من المرارة والحقد ، ولا يبعثه شعوره بالقصور على الإساءة إلى نفسه فحسب ، بل يبعثه إلى ما تكره الأسرة أيضاً .

وإذا رزق الطفل أباً جافاً صارماً دائم التأنيب الذى يشيع فيه الحيف على الدوام ، غلب كثيراً أن يستشعر هذا الطفل فى نفسه العجز والقصور .

ومن العادات التى يتخذها الأطفال ما يحتمل أن يكون تأثيره يسيراً على نمو الطفل البدنى أو العقلى ، لكن هذه العادات تبلغ قدراً بالغ الأهمية تبعاً للموقف الذى يتخذه الطفل إزاءها . وأهم هذه العادات البوال والعادة السرية . فإن الآباء حين يحاولون القضاء على العادة السرية عند الطفل بما ينزلون به من مروع التهديد وقاسى العقاب ، وبالصورة التى يرسمونها له عن تداعى بدنه ، وانحطاط خلقه ، وضعف عقله ، وشذوذه الجنسى تلك الصورة التى يحتمل أن يصير إليها إذا أدمن تلك العادة قد يلحقون بصحة ذلك الطفل العقلية من الأذى ما لا يمكن إصلاحه . لهذا فليس من غير المألوف أن نلقى من الناس فى شبابهم وكبرهم يرجعون كل ضروب خيبتهم إلى هذه العادة .

والحب والاهتمام والعزة والخوف كلها من المشاعر السوية التى تشيع فى نفوس الآباء بإزاء أبنائهم ، غير أن الإسراف والمبالغة فى أية ناحية من تلك الأمور الوجدانية يؤدى إلى عجز الآباء عن الوصول إلى الغاية التى يهدفون إليها ، وهى أن ينشئوا باصطناع التهذيب والتربية والقدوة الحسنة فرداً متزن البدن والعقل ، له من كفاياته ما يهيئه للمباراة والكفاح فى كافة نواحى الحياة ، لا يتطلع إلى إيثاره بعطف خاص ولا يلاحقه شبح الخيبة والإخفاق . لابد لمثل هذا الشخص أن يكون له فى التفكير وفى الفعل عدة تبعث فيه الثقة بالنفس والاعتماد عليها ، أو أن يكون لديه بعبارة أخرى شعور بالأمن . ولابد لتكوين هذه القدرة أن يكون قد وصل فى نموه البيولوجى إلى المرحلة التى لم يعد فيها عالة على أهله يلتمس عندهم المحبة أو الحماية ، لا يحد من نشاطه ما يغشى نفوسهم من جزع وقلق ومخاوف . وقد يتطلب الوصول لمرتبة التحرر الكامل من الآباء أن يدفع الآباء أنفسهم بالطفل بعيداً عنهم ، ومع هذا فإن الآباء يميلون إلى الإمساك بالطفل والإغراق فى حمايته ، مما يؤدى إلى أن يكون استقلاله وتحرره أصعب وأشد عسراً . ومن ثم كان تعويل الأبناء على الآباء ، وعجزهم عن التخلص من

الأصفاد الوجدانية التى تربطهم وإياهم أحد الأسباب الهامة لعقدة القصور عند المراهقين . لهذا وجب أن يبدأ تحرير الطفل منذ وقت مبكر ، كما أنه لا يمكن استكماله إلا بمعونة الآباء . وخير ما يوقفنا على عمر الطفل الوجدانى وقدر متابعة هذا العمر لنموه العقلى هو أن نرى إلى نمو شعوره بالاستقلال والاعتماد على النفس .

ولو أن إحدى الأمهات بقيت تطعم طفلها حتى سن الثالثة ، وتلبسه حتى سن الخامسة ، وتأخذه إلى المدرسة وتعود به منها حتى الثامنة ، فالأرجح أنه سوف يكون من العسير عليها أن تدفع الطفل إلى الابتعاد عنها يوماً فى رحلة ، أو إلى الاشتراك فى معسكر مع إخوته حين يبلغ الثانية عشرة . وفى كل هذا ما يدل على أن الطفل لم يبلغ بعد من الناحية الوجدانية مبلغ سنه العقلى . وهناك كثير من المواقف الأخرى فى البيئة تقوم بدور كبير فى ما يلحق الطفل من عجز وخيبة فى الحياة ، مثل كثرة عمل أهله ، وانشغالهم ، أو شدة كسلهم ، أو عدم استقرارهم الوجدانى ، مما يؤدى إلى قلة عونهم لولدهم ، والطفل إذا لم يجد أمامه سوى القدوة السيئة أخذ يرقبها ويحاكيها .

وقد يظهر القصور فى الأطفال على أشكال عدة شتى ، غير أن الطفل مع ذلك يتخذ أربعة مناهج هامة لمواجهة ما يلقاه من مصاعب . فهو قد يصطنع مظهر الاستخفاف وعدم الاكتراث ، ويحاول أن يستخفى وراء ما يسميه باضطهاد الآخرين وظلمهم إياه . فيعود إلى المنزل من المدرسة يحكى لأهله مختلف الأسباب لتخلفه عن أقرانه فى الدراسة ، فتكون كل الأسباب دائرة حول الحيف الذى وقع به وحول كره المعلم إياه ومحاباته لغيره من الأطفال . وهو فى الألعاب والرياضة يتخذ الموقف عينه ، فإذا به يرجع عجزه عن منافسة إخوانه إلى الظلم ، وهو يزعم أنه كان لابد من تفوقه لو أن الفرصة أتيحت له . وليس

هذا الضرب من أوهام « البارانويا »[1] نادراً فى الكبار . فهناك فى كل ديوان ومتجر ومصنع ومعهد للعلم أناس ينسبون خيبتهم إلى الحظ والدنيا . وليس هذا سوى لون من خداع النفس يخفف عنهم ما يكرهون إذا هم واجهوا الحقيقة .

والمرض أو العجز طريقة أخرى كثيراً ما يستخدمها من يشعر بالقصور ، وسوف نعرض لهذا بالتفصيل فى مكان آخر . غير أنه يكفى هنا أن نقول إنا كثيراً ما نلقى من الأطفال من إذا عجزوا عن مواجهة مشكلات الحياة اليومية أصيبوا بأعراض مرضية شتى ليس لها أى أساس عضوى .

وكثيراً ما نلقى طريقة التراجع عن الواقع بالإغراق فى أحلام اليقظة والأوهام سعياً وراء المتعة وابتغاء للرضا . وهذا هو ما يطلق عليه أحد المؤلفين ، ولعله كيركباتريك ، « استمتاعاً سلبياً لا جهد فاعلياً » . إذ أن الطفل فى أوهامه يتخيل نفسه فى المواقف الغريبة الرائعة التى لا يقف استمتاعه بما فيها من أشكال اللذة وألوان النجاح عند حد . مع أن حرمانها الفرد من بذل الجهد الخالص ومن مواجهة المشكلات والتغلب عليها أمر هو فى نفسه باعث على انحطاط قواه المعنوية .

ت . . . غلام أحضرته إلى الطبيب أم بلغ منها الاضطراب والهم كل مبلغ ، لعقلة فى لسانه كانت مبعث قلقها هى وأبيه . ومن المظاهر الهامة ذات الدلالة فى حالة هذا الصبى ما بدا عليه من اعتداده بنفسه ، ومن تعصبه إزاء من كان يعتبرهم أدنى منه ، وما كان له من ميول عقلية سابقة لأوانها .

يلوح أن الطفل كان سوياً حتى سن الخامسة والنصف . أصيب بما يصاب به الأطفال من أمراض مألوفة ، واتخذ من العادات الطيبة ما ينبغى ،

---

(١) Paranoia مرض عقلى يتميز بهذيان منتظم يؤمن فيه المريض بما يتوهمه فى نفسه من عظمة وما يلحقه من اضطهاد لا أساس له فى الواقع ولا يمكن إقناعه ألبتة ببطلان أوهامه عن طريق الحجة أو المنطق . (المترجم)

وكان لطيف المعشر ، لا يبدو عليه شدة التمركز حول ذاته ، كما كان أترابه يرون فيه زميلا يميلون إلى اللعب وإياه . ثم أصيب بمرض حاد ترك بعض العلة فى قلبه مما استلزم منه أن يبقى ساكناً أو شبه ساكن ثمانية عشر شهراً . كان خلالها تحت رعاية أمه ورقابتها أبداً ، وهى سيدة مثقفة انتهزت هذه الفرصة لتعليم الولد . حتى إنه بما أوتى من استعداد عقلى ممتاز ، وبعون أحد المعلمين الأكفاء ، وبكثرة توافر الصبى وبعده عما يلهيه أو يشغله ، تقدم تقدماً سريعاً جداً بل إنه فاق أولئك الصبيان الذين ساروا فى الدراسة على المنوال المألوف . فإذا ما بلغ السابعة أبل من مرضه ، وخول له أن يفعل ما يريد دون قيد على نشاطه ، وسرعان ما تميز فى فرقته بالمدرسة بالجد وإتقان العمل . حتى إنه نقل على التو تقريباً إلى فرقة أعلى منها .

على أنه فى الملعب ، وفى المباراة فى الألعاب وضروب النشاط خارج الفصل ، وفى اتخاذ الأصدقاء والمعاملة مع غيره من الأطفال كان يلقى عناء ، وهو ما كان منتظراً بعد أن انقطع عن إقامة هذه الصلات عامين . غير أنه فى هذه السن المبكرة كان يستطيع أن يتغلب على هذه الصعوبة لو أن أبويه أقلعا عن شدة الخشية عليه التى تعوداها منذ مرضه ، فكان الصبى إذا عجز عن المباراة مع غيره فى اللعب هرول إلى الدار حيث يلقى كل مواساة وحدب من أمه التى كانت تفهم وتقدر شأنه ، وإذا بها تحدثه أنه خير للمرء أن يكون ممتازاً فى عقليته من أن يكون قوى البدن شديد الجسم ، وهكذا كانت تبعثه إلى تنمية مداركه ، حتى يعوض عن عجزه فى الناحية البدنية . ومن الطبيعى ألا تقف مطامع مثل هذا الطفل فى الناحية العقلية عند حد ، مع أنها والحق كانت مبعثاً يخفف عنه حين يعجز فى ضروب النشاط الأخرى التى هى أقرب إلى المألوف من صبى فى سنه . ومن ثم واصل الكفاح جاهداً للرفع من مكانته ، فأنشأ نادياً مرة ابتغى منه أن يجمع حوله فئة من الصبيان الذين يميلون إلى دراسة

الفلك والدين والتاريخ ، لكنهم — كما قال والأسى يقطر من عباراته — سرعان ما انصرفوا إلى الألعاب الخشنة والرياضة والملاكمة أكثر من انصرافهم إلى النادى ، وانقطعوا عنه واحداً إثر واحد حتى بقى وحيداً . ومع هذا فقد أسر إلينا الصبى بأنه كان ينوى إلحاق أخته بالنادى ، إذ كان يستطيع أن يلزمها على الائتمار بأمره والسير وفق هواه .

ولما كان الصبى فيما بين الثامنة والعاشرة اشتد خوفه من الصبيان ، وصار لا يلعب إلا مع من يصغرونه ، ومن يستطيع أن « يدقهم » . وكان إذا رأى صبياً غريباً ، وسنحت له الفرصة لتجنبه ، عبر الشارع أو استدار على عقبيه وسار فى الجهة المقابلة ، على أنه بهذا الموقف الذى اتخذه إزاء من هم فى مثل سنه لم يكن هانئاً بما وصل إليه من تعويض من الناحية الفكرية . فلم يسعد إلا قليلا من أنه قرأ التوراة مرتين وأنه كان يرفه عن نفسه بقراءة التاريخ وعلم الحياة . وهكذا لم يكن صاحبنا فى سن العاشرة عزوفاً فحسب عما يهتم به الأولاد فى سنه ويولعون به ، بل كان صارماً لا يتسامح معهم ولا يرى أية علة تدفع إلى الاهتمام بالأمور التى يهتمون بها ؛ حتى صار يعتبر شاذاً غريباً محباً للظهور فى الناحية الفكرية يعمل كى يرضى طموح أهله . ومن الممكن أن نتنبأ بأنه من المحتمل فيما بعد أن يكون واحداً من أولئك الناس المعتزلين الذين يبعدهم شذوذهم عن الحياة الاجتماعية ، ومن يسخطون أبداً على أوضاع الدنيا ونظمها المألوفة . وهذا هو طراز الناس الذين يرون أبداً أنهم مصيبون ، وأن الدنيا كلها مغرقة فى الخطأ والضلال . لكن صاحبنا الصغير إن هو إلا ضحية عاثرة الجد فى بيئته ، لا يستطيع أن يفعل بإزائها شيئاً .

وآخر الطرق التى يستخدمها الطفل — لكنها ليست أقل الطرق شيوعاً — أن يثور فى وجه المجتمع إذا خاب ، وأن ينحرف نحو ارتكاب الإثم عسى أن يجد هنا فرصة يستمد فيها بعض الرضا فى التفوق على أقرانه ، ويقود

فئة من الأطفال يشعرون هم الآخرون بمثل ما يشعر به من قصور . ومما يهم الآباء أن يقفوا عليه : هو أنه بقدر كثرة الأسباب التى تبعث الشعور بالقصور عند الأطفال فهناك كثير من الأشكال المختلفة التى يظهر بها هذا الشعور ، وأن هذه الحالة العقلية قد لا تكون سوى حالة عابرة هى رد فعل على إخفاق قد يبدو تافهاً يسيراً .

ومهما تكن الأسباب التى تثير شعور الأطفال بالقصور فهى تستلزم منا أن نبذل خير الجهود للتغلب عليها . ذلك لأن كثيراً من ألوان الشقاء والإخفاق فى الحياة تعود إلى مشاعر العجز التى يحسها الأطفال فى سن مبكرة جداً ، والتى يزيدها بقاء أحد البالغين من أفراد الأسرة أو أحد المعلمين أو أحد الرفاق المتسلطين . وكلما بكر الوالد فى الوقوف على إحدى الخصائص الممقوتة التى أخذت تنمو فى الطفل كان أسهل عليه أن يعينه فى القضاء عليها ؛ ذلك لأن مرونة عقل الطفل هى التى تهيىء لنا تشكيل شخصيته ، ولأن هذه المرونة تتناقص بسرعة كلما تقدم فى السن .

الفصل الرابع عشر

تغيرات الشخصية التى تعقب المرض

ردود الفرد على بيئته هي ما نعبر عنه بالسلوك ، فإذا وقع أى تغير سواء أكان فى الفرد أم فى البيئة انتظرنا أن يتغير سلوك الفرد ، لهذا تلعب الأمراض والإصابات دوراً عجيباً بشخصية المرء .

إذا طال أمد المرض فى حياة الكبار فقد ينتج عنه فى نفس المريض مرارة وسخط ، ويصبح عبئاً على من عليهم العناية بأمره ، سريع الغضب ثقيل الظل ، يتلمس أخطاء الناس . وقد يكون الأمر مع فرد آخر أصيب بنفس العلة على نقيض ذلك تماماً من حيث أثرها على شخصيته ، فليس يندر أن ينتج عن المرض من الخصائص الرفيعة السامية كالصبر والعطف ورعاية الغير ما لم يتصف به المرء ألبتة من قبل .

أما الأمراض والحوادث التى يكثر انتشارها بين الصغار ، فإنها فى العادة تغير موقف الطفل بإزاء الحياة . ومع أن هذه التغيرات قصيرة الأمد فى العادة ، إلا أن هناك خطراً من بقاء الخصائص المرذولة ثابتة عقب هذه الفترة .

ومن المألوف أن ينسب الآباء سرعة الغضب فى الطفل وأثرته وولعه بالسيطرة إلى المرض فى ذاته . ولا ينتبهون إلى الدور الذى تلعبه التغيرات التى طرأت على البيئة .

أما أن شعور الفرد واستجابته للحياة عامة تتأثر بحالته البدنية ، وما هو عليه من صحة وعافية فأمر شائع متعارف لا حاجة بنا إلى الحديث عنه . ومع هذا فإن الكثرة منا لا يدركون أثر أحوال البيئة على موقفنا العقلى بإزاء الحياة .

وليس مما يبعث على العجب أن تتغير استجابة الطفل للبيئة إذا تغيرت هذه البيئة عينها .

فلنعرض الآن قليلا من التغيرات التى تلحق علاقة الطفل بغيره من أفراد الأسرة إذا ما ساءت صحته وقلق عليه أهله .

كان الصبى أبداً قبل مرضه صحيحاً معافى ، هانئاً خلى البال ، يناضل فى الحياة كما يناضل فيها غيره ، لا يعنى كثيراً بما حوله ولا يعنى به كثيراً من حوله . لم يكد يدرك بعد أنه ذات مستقلة متميزة ، كان عضواً فى مجتمع وفرداً من عائلة . ومع أنه كان فى علاقته بهؤلاء القوم بعض المتاعب حقًّا ، إلا أنها كانت أمراً لا مفر منه ؛ فقد كان القوم يمنعونه عن تنفيذ كثير من نزعاته الطبيعية ، وكانت تلك الصلة تتطلب منه أن يتسق مع النظم والأوضاع المتعارفة ، وكان الأبوان يسيطران على الدار ويتحكمان فيها تحكماً يبدو بعيداً عن الحكمة والحق . كان على المرء أن يكون نظيفاً ، مؤدباً ، مواظباً ، منظماً ، مجدًّا وإلى غير ذلك من الأمور الكثيرة التى تبدو للبالغين كبيرة الأهمية بينا يعتبرها الأطفال تافهة مقيتة . وكان يتحتم على المرء ألا يفتر له نشاط وإلا اتهموه بما يدعونه الكسل والبلادة ؛ وكان عليه من الناحية الأخرى أن يلتزم صراطاً مستقيما لا يحيد عنه ، فإذا هو أسرف فى النشاط وأغرق فى ذلك الأمر الشنيع الذى يسمونه جلبة وضوضاء كرهوا منه ذلك وأنبوه عليه . وكانت الأشياء التى يشتهى أكلها محرمة عليه بينما هم يكيلون المدائح من مزايا الجزر واللبن « والسبانخ » . وكان عليه أبداً أن يقوم بالمهام والمشاوير يكلفونه بها فى أشد الأوقات بعداً عن المناسبة . ولسبب ما ، يجهله الصبى ، كان يرى أن العمل والدأب والطاعة موضع عناية الناس جميعاً واحترامهم . كان إخوته الكبار يوكلون بأحسن المهام وأمتعها بينما كان من نصيب صاحبنا بالذات أن يقوم على رقابة إخوته الصغار ومسامرتهم حين تؤدى الأم عملها فى المنزل قائلة إنه كد وعناء . ورغماً عن كل هذه المنغصات

وكثير غيرها لا يقع تحت حصر عاش صاحبنا الصغير دون أن يحقد على الدنيا ، فمن حسن الحظ أن الأطفال لا يفلسفون طويلا فى الحياة ، بل هم يتقبلون ما فيها من أفراح وأشجان تقبلهم للواقع الذى لا محيص عنه . ولم يخطر له يوماً أنه قد يشغل مكانة أرفع من المكانة التى ألفها ، ولم يعرض لذهنه أنه سوف يسيطر على تلك الدار يوماً . يأمر فيها فيطيعون .

وإذا به على غير توقع يخر فى أحد الأيام مريضاً أو تصدمه سيارة . ويحمل إلى المنزل أو إلى المستشفى على عجل ؛ ويصحو فيجد نفسه سيداً يسيطر على كل ما يقع تحت بصره . لم يعد بعد مجرد طفل من الأطفال ، بل هو الطفل المريض ؛ لا يركز أبواه انتباههم على ما يحققهم منه ويسىء ، بل هم ينسبون إليه فضائل الأولياء الصالحين ؛ وهم فى حزنهم لأوجاعه وجزعهم لمرضه وتوقعهم مضاعفات حالته يترقبون شفاءه صابرين . وإذا كان علاجه فى مستشفى أخذوا ينتظرون خروجه منه بصبر نافد ، لأنهم كثيراً ما يشعرون أن الأطباء والممرضات والخدم لا يعنون بفلذة كبدهم ، وهم ينكرون على هؤلاء الناس موقفهم الهادىء المتزن حياله ، فهم لذلك يتلهفون إلى اليوم الذى يستطيعون فيه نقله إلى المنزل حيث يأتى ما هو جدير به من العناية والسهر والرعاية .

هكذا أتى يوم يعيش فيه الطفل فى عالم يختلف كل الاختلاف عن ذلك الذى ألفه من قبل ، هو عالم يستطيع أن يتحكم فيه وأن يسيطر عليه إذا لم نحسن التصرف إزاءه . ولعله من الطبيعى أن يعنى الآباء حق العناية بخير أبنائهم ، ومع ذلك فإن الجزع كثيراً ما يزيد جداً على ما تستلزمه خطورة الموقف .

وسواء أكان علاج الطفل فى البيت أم فى المستشفى فإن فترة النقاهة فى كلا الحالين هى الفترة التى يحوطه فيها بالعناية كل من فى الدار ، حين يطلب إلى غيره من الأطفال أن يستجيبوا لرغبات أخيهم العليل . وكافة أهله يتوقعون

كل طلباته على تعددها وكثرتها ويعملون على الإسراع بإجابته إليها . بهذا يستطيع أن يتحكم فى كل الأمور ما يقع منها بين يديه ، وما يتسع له عنها أفق خياله ولا يسأل عن شىء مقابل هذا كله ، فهو غير مسئول بحال عن ثورته وحدة طبعه وأثرته . وهو فى هذا لا يتحتم عليه أن يقدم الأعذار عن سلوكه الذميم لأن أهله ينوبون عنه فى القيام بهذا كله . وهو لم يستمتع من قبل قط بمثل هذه السطوة ولم يجد نفسه مرة فى مثل هذا الموقف الجذاب ، إذ لم يعرض له ألبتة من قبل أن ترك وشأنه يتخفف من كل أشكال النهر وألوان الكف . فليس مما يبعث على العجب إذن أن يتشبث حقًّا بموقفه الجديد الذى استمتع فيه بالسطوة ، وأن لا يقلع إلا فى شىء كبير من البطء والإحجام عن هذه الطرق والوسائل التى كانت تجدى عليه فى نيل ما يرغب وتحقيق ما يود ويهوى .

ولعل ف . . . مثل طيب لما لتغير علاقة الطفل بأسرته من أثر فى شخصيته : فهو صبى له من العمر تسع سنوات أحضر إلى العيادة ، لأنه فى الثلاثة الأشهر الماضية أصبح كثير التقلقل ، يبكى لأتفه الأسباب ، ويشكو من تصلب يعترى ذراعيه وعضلات جسمه ، سريع الغضب حاد الطبع ، لا ينام بالليل إلا غراراً . . . ظهرت هذه الأعراض بعد رجوع الولد من المستشفى حيث مكث أسبوعين تحت العلاج إثر صدمة أصابته من سيارة . قالت أمه إنه شديد الحدة يبدو عليه العبوس أبداً وقلما يبسم . يظهر عليه الهم والضيق وتبدو فى سلوكه رغبة فى الانفراد بنفسه . وأدى هذا كله إلى أن أطلق عليه الأولاد اسم « أبو راس فارغة » . وكانت المسألة العاجلة التى تشغل الأم هى التفكير فى اتباع نصيحة المحامى بالمطالبة بتعويض عن إصابة ولدها ، ومع هذا فقد كان من حسن الحظ أن أهم ما كانت تتوق إليه هو علاج الصبى .

وظهر من البحث أنه على أثر الحادثة أخذ دولاب الحياة فى الأسرة

التى تضم سبعة أطفال يدور بأجمعه حول هذا الصبى . فكانوا يحققون له أية نزوة عن الطعام ، وطلبوا إلى إخوته كافة أن يحققوا له كل رغباته ، وكانت كل اللعب تحت تصرفه يستخدمها أو يقذف بها كما يشاء ؛ وهكذا ألفى الصبى نفسه لأول مرة محط الأبصار ، فكان هذا بالطبع موقفاً محبباً إلى نفسه دفعه إلى أن يتوق إلى مواصلة الاستمتاع بعواقب الحادثة التى أصيب فيها .

وبعد فحص بدنه وأعصابه فحصاً دقيقاً ، رأينا أن نستعين بالأم على تغيير تلك الخطة فى معاماته تغييراً تامًّا ، وأن يعود الصبى إلى نظام الحياة التى ألفها من قبل : يأخذ ويعطى ، ويكافح فى سبيل الحصول على ما يود من إخوته . وبعد شهر واحد أخبرتنا الأم بأن الطفل أصبح سعيداً راضياً ، يلعب مع غيره ، وقد فارقته الكآبة ، وبدأ يتقدم تقدماً محسوساً فى المدرسة ، ولم تعد تظهر فى شخصيته تلك الخصائص التى كانت تلازمه عند إقباله على العيادة أول الأمر .

ونحن لا نعرف موقفاً أشد عسراً من ذلك الذى يلقاه الوالد فى الموازنة بين خير ما ينفع الطفل وخير ما ينفع فى القضاء على مرضه ، وخاصة عند ما يتبين الأب فى جلاء ووضوح أن الطريقة التى تنجع مع طفل قد تؤذى طفلا آخر . فإذا كنا مثلا بصدد طفل متعب لحب ، يتأفف من طعامه ، ويندر نومه ، ونصح الطبيب أمه بوجوب تغذيته ونومه نوماً كافياً ، كان عليها ألا تلتزم رغبات الطفل فحسب ، بل مشورة الطبيب كذلك فهى تدلله حتى يأكل وتؤرجحه كى ينام ، بل هى تنام إلى جانبه حتى يغلبه النعاس . وهناك من الأطفال من إذا كان فى فترة النقاهة أغرق فى رفض رغباته الشاذة على أبويه ، فإذا لم يجيبوه إليها انفجر باكياً أو أصابته نوبات من حدة الطبع كثيراً ما تؤدى إلى ارتفاع درجه حرارته . وطبيعى أن يختلط الأمر على الأم فلا تدرى أتؤدب

الطفل فتزيد من شدة مرضه . أم أن تعمل على علاج مرضه فتضحى بأدب الطفل وحسن خلقه .

وللأطفال الحق فى أن يكونوا أثناء مرضهم أو فى نقاهتهم موضع عناية ورعاية خاصة . لأن حياتهم الانفعالية تكون حينداك أقل استقراراً . ويكونون أسرع إلى الغضب والثورة وإرهاف الحس ، يجرح شعورهم أتفه الأسباب . ورغم ذلك فيجب ألا يغمض المرء عينه عن أن من أشق الأمور على الطفل فى دور النقاهة أن يفرط فى المزايا الخاصة التى يراها تفلت من يده الواحدة تلو الأخرى ، وأن يخسر ما يستمتع به من مكانة وقدر ، وأن يشعر بأن الاهتمام بأمره قد بدأ يزول إلى غير عودة . وبعد أن كان يلقى الرعاية والحدب من أهله صاروا الآن يدفعونه إلى حمل أعبائه بنفسه بعد أن ألف إلقاءها عليهم ، وأن يغدو رجلا معتمداً على نفسه . ومن ثم يقوم فى أعماقه صراع عنيف بين الرغبة فى الشفاء والعودة إلى معترك الحياة وتحمل المسئولية ، وبين البقاء عالة يستمتع بالرعاية التى يهيئها له مرضه .

واعل فى الحالة الآتية صورة صادقة لما نقول :

ح . . . طفل فى الثالثة من عمره أحضره ذووه إلى العيادة لما لاحظوه من تغير واضح فى شخصيته بدا عليه عقب عودته من المستشفى ، حيث بقى هناك أمداً لإصابته بمرض الدفتيريا . صار محبًّا للشجار ، كثيراً ما تصيبه نوبات من حدة الطبع يلقى بنفسه خلالها على الأرض ويرفس ويصرخ طويلا . يأبى إذا أمسى الليل أن يذهب إلى فراشه إلا إذا رافقته أمه ، ويعتريه فى بعض الليالى كابوس يهلع منه . كما أصبحت له نزوات عجيبة فى الطعام ؛ بل إنه إلى ذلك كله قد تعود أن يتبرز على نفسه يومياً .

لم تكن فى ولادة الطفل أو فى نشأته المبكرة ما يستحق الذكر إلا إصابته بالدفتيريا التى أشرنا إليها من قبل ، وإصابة خفيفة بمرض الإسقربوط .

ومع أن الأب كان يثور غاضباً فى بعض الأحايين ، إلا أنه كان على العموم رجلا كريماً بارًّا بأبنائه . وكانت الأم امرأة طيبة غير أنها عصبية جداًّ لا تستقر على حال ، وكانت تؤمن كثيراً فى الخرافات . إذ كانت قد فقدت من قبل ولداً أكبر من هذا بسبب الدفتيريا ولم يجف دمعها عليه بعد ، الأمر الذى كان له أثره الكبير فى حالتها الراهنة . وكان له فى البيت أخ صغير وجدة كانت تتدخل كثيراً فى تأديب الصغار ، فقد كانت الجدة على حد قول الأم « تقلب الدار رأساً على عقب فى سبيل مرضاة العيال الذين تكره أن تراهم يبكون » .

لم تلاحظ أم الولد قبل مرضه أية غرابة فى سلوكه ، غير أنها لمست منذ عودته تغيراً واضحاً فى خلقه : فقد أصبح كئيباً ثائراً ، محبًّا للعزلة شاذًّا ، يود أبداً أن يحصل على أكثر مما يستحقه من الانتباه . يغرق فى حدة الطبع إذا لم تنفذ مشيئته . دأب كلما أمسى الليل أن يذهب إلى النافذة يصعد بصره نحو السماء كى يلقى بتحية المساء إلى أخيه الأكبر الذى ذهب إلى جوار ربه من قبل . وكان هذا أمراً عجيباً مبهماً يروع الأم ويشهدها . ولم يكن يؤذن له باللعب مع أبناء الجيران لغرابته وشذوذه ولأن واحداً منهم لم يكن فى مثل سنه . وكانت الأم تشكو أنه يستحيل عليها أن تتركه وحيداً فى غرفة النوم حتى يغلبه النعاس ، إذ كان يضرع إليها أن تبقى إلى جانبه حتى تدفع عنه الذئاب التى تجثم على مقربة من الغرفة ، وإلا أقبلت فالتهمته .

رفض الطفل فى زيارته الأولى للعيادة أن يترك أمه أو أن يسمح لها بدخول حجرة الفحص دون أن يصحبها . ولما تخلصت منه ألقى بنفسه على الأرض ، وبقى كذلك جامداً متخشباً بدنه ، حتى عادت ورفعته من الأرض وهيأت له أن يدفن رأسه فى صدرها كما لو كان طفلا رضيعاً ، ومن ثم بدأ يتجهم ويتكلم على طريقة صغار الأطفال وأصر على الامتناع عن الكلام مع الطبيب

الفاحص . وكانت قدرة هذا الطفل العقلية تقرب من المتوسط ، إذ كانت نسبة ذكائه ٨٨ .

وهذه الحالة قد تبعث على الظن بأن بالطفل كل دلائل الخلل العقلى المبكر لو أن المرء اعتمد فى تفسيره لهذه الحالة على أقوال الأم فحسب دون أن يحسن تحليل الموقف ودراسة عناصره . لأن الدلائل التى كانت تبعث الطيرة واليأس فى الأم لم تكن فى الواقع أموراً يبعد أن تبدو من طفل له مثل هذا التكوين ، يعيش فى مثل هذا المحيط ، ويتأثر بمثل هذه العوامل .

كانت الأم التى هدها الحزن والأسى على وفاة ابنها – بينما كان المريض يتماثل للشفاء – تحاول أن تستعيض عن مصابها بالإغراق فى رعاية العليل إغراقاً متطرفاً . بدأ كل شىء يدور حول العناية به ، وصار هو محور الانتباه فى المنزل ، وأخذ كل أفراد الأسرة يبدون فرحهم لشفائه ، وهكذا ألفى الطفل نفسه فى هذه المكانة الرفيعة الممتعة . ولم يطل الأمر به حتى استغل هذه الفرصة السانحة لفرض مطالبه التى لا تنتهى فتجيبها العائلة على جناح السرعة .

كان للأسره من قبل خادمة دأبت على تهديد الطفل ليلا بقصة الذئب قبل ذهابه إلى مخدعه . وكانت تستخدم تلك القصة كى تعجل ذهابه إلى الفراش وتنبهه أبداً إلى وجوب البقاء فى غرفة النوم وإلا اختطفه الذئب . وهكذا كشفت هذه المعلومات سر خوفه من الذئاب .

أما مهمة الجدة فكانت إعداد الطفل للذهاب إلى الفراش . فكانت تقوم بخلع ملابسه . ثم تأخذه إلى النافذة – قبل وضعه فى الفراش – كى يقرئ السلام أخاه المتوفى الذى كان يرقبه من العالم الآخر ، على حذ قولها ! ولما شرحنا للأم سر نشوء هذه العادة فى الطفل ذهب عنها ما فيها من خفاء كان يروعها . . .

وقد اعتمد نجاح العلاج فى هذه الحالة على قبول الأم استخدام الوسائل

المستحدثة فى مواجهة مشكلة الطفل . فبعد حديث نفسى علاجى قصير بدت منها رغبة شديدة فى تنفيذ تعليمات العلاج بالتفصيل . فأعطيناها لوحة تسجل عليها نزواته من ناحية الطعام ، وأرشدناها إلى ما ينبغى عمله للقضاء على مخاوفه . وطلبنا إليها أن تمتنع وكافة أهله عن تشجيعه على ادعاء المرض وأن يعاملوه على قدم المساواة مع أخيه .

وقد أخبرتنا الأم بعد بضعة أسابيع أنه صار يذهب إلى الفراش دون أن يصحبه أحد ، وأنه قد انقطع عن ذكر الذئاب ، وأنه قد نال فى اللوحة كل النجوم المطلوبة منه ، وتغلب على كراهيته للبن الذى بدأ يشربه دون احتجاج فى كل وجبة من وجبات الطعام . ثم أزمعت العائلة السفر إلى أحد المصايف حيث كان يرجى أن يأتى الطفل أفقاً أرحب لنشاطه وفرصة أكبر تتيح له الاتصال بأتراب فى مثل سنه .

إن أول الخطوات وأكبرها خطراً فى سبيل الحصول على الصحة والسعادة والكفاية هى مواجهة الحقائق وقبول الحياة على علاتها ؛ فإذا لم يكن بد من تخطى العقبات ومواجهة المشكلات والتغلب على الصعاب والفصل فى جسيم المهمات ، فليكن ذلك فى جلاء وصراحة . أما التقليل أو المبالغة فى صعوبة المهام التى على المرء أن يقوم بها ، فهما وجهان شائعان فى خداع النفس وعادة يشرع فى ممارستها كثير من الناس منذ مطالع العمر فتؤدى إلى ضرهم طوال الحياة .

وتسنح مع المرض فرصة التخلص من كل التبعات ، فكثيراً ما يتعلم الأطفال من صلاتهم بالكبار أن الصداع والقىء وما إلى ذلك أسباب تسترعى النظر والرعاية ، ومن ثم يتخذ الصغار تلك الأعراض عن شعور منهم أو لا شعور . وقد يكون هذا تقليداً خالصاً ، أو وسيلة تلفت الأنظار ، أو طريقة للتخلص من مهمة كريهة وهذا هو أكثر الأسباب شيوعاً .

وإذا استلزمت الضرورة أعذاراً عن الخيبة فى المنزل أو فى الملعب أو فى المدرسة فقد يؤدى هذا إلى نشوء الأعراض العصابية التى تزيد وتبقى بما يبدو من إسراف الآباء فى القلق والرعاية .

إن الأطفال ينزعون جداً إلى تقليد مسلك الكبار الذى يتخذه هؤلاء إذا مرضوا ، فلو أن الأم تكون محنقة سريعة الغضب دائمة التجهم « والنقار » إذا مرضت ، اكان من الطبيعى جداً أن يرفق الطفل مرضه بالغضب وحدة الطبع . وإذا عرف أن أباه يكون مغيظاً حانقاً إذا حل به التعب ، توقعنا عين السلوك من الأطفال فى الأحوال المماثلة .

وعند النظر فى الخصائص المرذولة التى تلحق الشخصية عقب الأمراض الحادة أو الإصابات الشديدة ، ينبغي أن ينصرف الذهن إلى أن تغير الشخصية راجع إلى المرض أو الإصابة . وينبغى أن يكون ارتفاع الحرارة أو كسر الجمجمة مقدماً أبداً على الأساليب النفسية ، لهذا ينبغى أن نستبعد الأسباب البدنية من الحالة بعد الفحص الطبى الدقيق . ورغم ذلك ينبغى أن نذكر أبداً أن قليلا جداً من تغيرات الشخصية يعود إلى المرض ذاته ، وأن شدة التغير الذى يلحق بالبيئة ويعرض لمسلك أولئك الذين يتصلون بالطفل أثناء مرضه وخلال فترة نقاهته ، هو العامل الذى ينبغى الانتباه إليه . فمع أنه يجب أن يلقى الطفل المريض عناية خاصة ، فإن هناك خطراً كبيراً فى أن يحبب الآباء المرض إلى الطفل حتى يؤدى ذلك إلى رغبته فى عدم الشفاء ؛ فلا يجب الحديث عن مرض الطفل على محضر منه ، أو فى أصوات خافتة قد تصل إلى مسمعه . ولا يجب أن نهيئه للشعور بأن المرض يخوله حق السيطرة على كل الأسرة ، فإذا تركنا الطفل يخرج عن جادة الأدب كان هذا متلفة لحسن سجيته ، وكان فى هذا من الأذى والخطر قدر أكبر فى الأسرة مما فى مضاعفة مرضه لو أنا طالبناه بالتزام النظم والأصول التى تسير عليها الحياة .

يستطيع الآباء بالقدوة الحسنة أن يعلموا أبناءهم كيف يحملون أعباءهم فى روح رياضى صحيح ، وكيف يقابلون الإخفاق فى شجاعة ، ويواجهون المهمات الخطيرة رغم ما يثقلهم من إشفاق وخشية إذ لا يتحتم أن يكون الإنسان الذى توافق توافقاً طيباً مع أوضاع الحياة هو ذاك الذى تحميه مناعته من كل معضلات العالم العويصة ، أو ذاك الذى لا يستشعر الخوف مرة ، أو يلحقه الإخفاق أو تعضه الفاقة على أى وجه من وجوهها ، بل هو ذاك الذى اتخذ من العادات ومن خصائص الخلق ما يهيئه لملاقاة صروف الحياة فى علانية وجلاء وإقدام ، دون زيغ أو تردد أو خداع للنفس . فالحق أن هناك كثيراً من معضلات الحياة عسيرة الحل ، لأن فيها من الظروف والأحوال ما يفوق قدرة الإنسان . وليست هذه الأشكال من الصراع أموراً لاشعورية ، بل إنها أمور تواجهنا وتقطع علينا السبيل فى وضح النهار ، فيجب علينا إذن أن نعيش بين أكتافها وأن نجعلها جزءاً من الحياة نهضمه ونعمل على تمثيله . فالمرض والموت وخيبة الأمل والعقم والعنوس أمور لا قبل لطبيب أو واعظ بعلاجها ، فهى جزء من كيان أولئك الذين قسم لهم أن يحملوا أعباءها . ويعتمد تحمل هذه الهموم فى شجاعة وإيمان على الطرائق التى اكتسبها المرء فى مطلع حياته المبكرة .

الفصل الخامس عشر

عادات التقلص والتشنج [1]

توجد حياة التقلص بكثرة فى الأطفال . وهى حركات انقباضية فى العضلات تؤثر على أى عضو فى الجسم ، وتشمل على الأغلب مجموعة معينة من العضلات فى أحد الأطراف العلوية أو فى الوجه . ولعل اختلاج العيون ، ورفع الجفون ، وتغضين الجبهة ، وزم الشفاه ومصها ، وحركات الأنف اللاإرادية المختلفة هى بعض عادات التقلص التى يغلب شيوعها وهى ما ندعوه « بالحركات العصبية الملازمة [2] » وقد تصاب عضلات الرقبة والأكتاف والأذرع فى بعض الأحايين ، غير أن قلب السحنة وتقطيب الوجه هو أكثرها شيوعاً وأشدها إحناقاً للآباء . ومما يشاهد أحياناً البصق والسعال والتنفس الغريب الذى يرجع إلى الانقباض التقلصى فى الحجاب الحاجز .

وهذه الحركات الملازمة [3] عسير علاجها كل العسر . ومما يؤيد هذا الزعم ما نشاهده من قدر انتشارها بين الكبار البالغين . وليس هناك من طرائق العلاج المعينة ما يؤثر أثراً فعالا فى التغلب عليها إذا ما أشتد رسوخها وزاد تأصلها. وهناك بعض ما يبعثنا على الاعتقاد بأن النقص أو المرض إذا لحق ذلك الجزء من المخ الذى يقوم بتآزر العضلات . كان ذلك على الأقل سبباً من الأسباب التى تؤدى إلى إزمان هذه العادات . وكيفما يكون الحال فإننا نعرف أن الإجهاد الانفعالى والتعب البدنى يزيد هذه العادات ويقويها كثيراً . كما نعرف أيضاً أن

---

(١) Habit Spasms and Convulsions   (٢) Tics

(٣) Mannerisms

أحد هذين العاملين أو كليهما معاً يكون موجوداً أبداً عند ظهور أول أعراض تلك العادات . وهى تنتشر بين التلاميذ الذين نعرف من تاريخهم طول إقبالهم على الأعمال العقلية والإسراف فيها ، وفى الأطفال الذين لا بد لهم من الكدح والجد حتّى يستطيعوا مجرد المرور فى الامتحان ، وفى أولئك الذين قد يكون عليهم خارج المدرسة أعباء تثقلهم وتبهظ كواهلهم ؛ كدروس الموسيقى أو الدروس الخصوصية ، إلى ما قد يضاف إلى ذلك من مسافة طويلة بين المنزل والمدرسة يستخدم فى قطعها الترام أو السيارة الحافلة الأمر الذى يستلزم من المسكين أن ينهض مع صياح الديكة وألا يذهب إلى فراشه إلا إذا تأخر الليل . . . وهذا كله ، فى إيجاز ، وتيرة فى الحياة تسبب الإجهاد العقلى والبدنى الذى يفوق احتمال الطفل ويهدد صحته .

وتمثل الحالة الآتية آثار الانفعال والجهد معاً كعوامل تسبب نشوء تلك الحركات العصبية الملازمة :

كان د . . . صبيًّا وافر النمو يدل بناؤه العظمى والعضلى على أن نموه يزيد بعامين على الأقل عن عمره الذى بلغه وهو عشر سنوات . ودفعه حجمه وتكوينه العام إلى التسابق فى الألعاب وضروب النشاط الخارجية مع أولاد يزيدون عنه فى العمر عامين أو ثلاثة ، فكان صبيًّا من أولئك المتعوسين الذين يتلقفهم كبار الفتيان يمثلون بهم ويستخفون بشأنهم ، إلا أنه كان يبذل جهود الجبابرة لكى يحتفظ بمكانته ويرفع من شأنه إزاءهم . ولقد لاح من جهازه العصبى فى مطلع حياته عدم الاستقرار إذ وفدت عليه نوبات تشنجية ثلاث مرات : كانت الأولى فى فترة التسنين وكانت الأخريان أثناء مرضه بالسعال الديكى . ومع أن نوبات التشنج هذه ليست مهمة فى ذاتها ، لأنها لم تعاوده منذ ذلك الحين ، إلا أنها أمر يدل على عدم استقراره العصبى . وقد أصابه بعد دخوله المدرسة مباشرة — وكان عندئذ فى السادسة من عمره — ما يحتمل أن يكون إصابة خفيفة بمرض

الاهتزاز ، فحجزوه عن المدرسة أسبوعين فى المنزل شفى بعدهما تماماً . وكان فى السنوات الأربعة الماضية جيد الصحة ، ولم يكن يشكو إلا من أنه كان يغلب عليه أن يصاب بالعقلة فى لسانه إذا أنهكت قواه إنهاكاً شديداً . وقد كان عليه عبء كبير فى العام الماضى يثقل على الصبى فى مثل سنه لم يكن له من الاستعداد العقلى إلا قدراً وسيطاً : فبجانب عمله فى المدرسة ، كان يأخذ درساً فى الموسيقى مرتين فى الأسبوع ، ودرساً إضافيا مرة كل أسبوع . وكان يقوم فى نهاية الأسبوع ببيع الصحف كى يكسب من ذلك مصروف يده الخاص . وإلى هذا كان يحضر كل أسبوع جمعية الصبيان ، ويواظب على حضور اجتماع يوم الأحد حيث يستذكر دروسه ويعد واجباته المدرسية . وإلى جانب هذا كله كان شديد الرغبة فى إتقان لعبة البيسبول التى كان مولعاً بها ولعاً بالغاً ، ومن ثم كان يقضى كل دقيقة من فراغه فى التمرين . وكانت حماسته تدفعه إلى النهوض فى الصباح الباكر ، ولم يكن رغم هذا يذهب إلى الفراش إلا فى ساعة متأخرة من الليل .

بدأ لسانه يعتقل منذ وقت قريب وأخذت هذه العقلة تلازمه وتستبد به عن ذى قبل ، ويعقبها نتشات(١) فى الوجه واختلاج فى الأعين وتهيج واضح لم يكن مألوفاً منه .

وقد كان من حسن حظ الطفل أن جاء للفحص قبل حلول عطلة الربيع . ومن ثم كان من السهل أن نضع له برنامجاً خاصاً يسير عليه دون أن يكون فى ذلك ما يقف عثرة فى سبيل عمله المدرسى . أشرنا بأن يوضع فى الفراش فى الحال حتى يستريح راحة تامة مدة ستة أيام ، تزاد بعدها ساعات نومه من تسع إلى ثلاث عشرة . وأن توقف دروس الموسيقى والدروس الإضافية ، وأن يقتصد فى نشاطه الرياضى دون أن ينقطع عنه تماماً . فكان من جراء هذا أن

(١) Twitching

سار الطفل وفق هذه القيود وحسنت حاله .

ويجب أن ينظر إلى مثل هذه الحالات – كما ذكرنا من قبل – على أنها مسائل طبية ، ومن ثم يجب أن توكل إلى رعاية الطبيب . ذلك لأن كثيراً من الحالات التى تبدو أنها من أمثال هذا النوع يرجع إلى أسباب تختلف تماماً عن الإجهاد والتعب فعساها ترجع مثلا إلى مرض يستلزم علاجاً .والأطفال فى بعض الأحايين يكون لهم من جهازهم العضلى ومن القوة الدافعة فى حياتهم ما يفرض على الجهاز العصبى كثيراً من المطالب الباهظة المسرفة . وقد كان هذا دون شك هو السبب فى علة صاحبنا هذا .

أما فى الحالة التالية فنحن نرى أن الانفعال كان هو العامل المهم .

كانت ن . . . فى السادسة من عمرها ، وكانت تعتبر طفلة سوية . اعتراها منذ شهور قلائل ذعر شديد عند ما شاهدت لأول مرة فى حفلة عيد الميلاد « قديس العيد » حقيقيًّا حيًّا يمشى ويتكلم . فراحت تبكى بكاء تواصل ليلتين أو ثلاث عقب الحفلة وقل نومها حتى انقلب كل البيت رأساً على عقب ، ومع أنها لم تكن تأتى سوى قليل من الأسئلة إلا أنها كانت تبدو مهمومة مضطربة . وبعد حفلة عيد الميلاد بأسبوع واحد بدأت تظهر عليها نتشات ملموسة فى عضلات الكتف الظاهرة لم تستمر إلا ثلاثة أيام أو أربعة . بعد أن شاعت الطمأنينة فى نفس الطفلة بما استعملناه من لباقة . وبعد أن استقامت فى رأسها أسطورة القديس نقولا .

كانت ا . . . بنتاً صغيرة تبلغ من العمر عشر سنوات عند ما مرت ، لعثار حظها ، بتجربة جنسية مع صبى فى الرابعة عشرة من عمره كان هو الذى قام بالاعتداء عليها فى الواقع ، وتلا تلك الحادثة نتشات تقلصية حادة فى أرجل الفتاة لم تستغرق سوى أيام قلائل بعد أن عرضت على الطبيب .

ولقد أوردنا تلك الحالات فى إيجاز كى نبين بعضاً من مواقف البيئة

التى لا نتوقعها ، تلك المواقف التى لا تكون فى بعض الأحايين عاملا يعجل تكوين مثل هذه النتشات العضلية أو الحركات العصبية الملازمة التى إذا بكرنا فى علاجها وأحسنا العلاج لم تمكث إلا وقتاً قصيراً ، وقد يستمر بعضها فيتحول إلى عادات تستعصى على العلاج وكثيراً ما يرجع هذا إلى أن الطفل يستخدمها عن قصد يبتغى منها الوصول إلى غاية معينة يهدف إليها فى الخطة التى انتهجها فى حياته .

ويجب أن تعتبر هذه التقلصات مسألة طبية . لأن هناك خطراً فى أن يخلط الآباء بين عادات التقلص وبين الأعراض الأخرى التى تدل على عدل الاستقرار العصبى الذى يكون نتيجة لأسباب عضوية خالصة . فإذا ما ظهرت الأعراض وجب أن يعطى الطفل راحة تامة كاملة يلزم فيها الفراش ، وأن يقدم له خلالها فيض من الطعام والشراب، وأن يكون إخراجه طبيعيًّا ، وأن يأخذ كل يوم حمامين ساخنين أو ثلاثة . كما ينبغى أن نبذل كل جهد فى التحقق من أن الطفل لا يعانى إعياء انفعاليا ، ذلك لأن الصراع العقلى من الأهمية قدر ما للإعياء الجسمانى . ومن اللازم بعد القضاء على الأعراض الفعالة ، أن نعيد تنظيم وتيرة [1] الطفل اليومية ، حتى يمكن أن نبقى على سلامته فى نطاق قدرته العقلية والبدنية ، ومن ثم نقدره على الاحتفاظ بقدر احتياطى من الطاقة العصبية يستطيع به أن يواجه المواقف العسيرة التى سوف تعرض له فى الحياة من بعد .

وكثيراً ما تبدو تلك العادة للآباء أمراً يستطيع الطفل أن يتحكم فيه ، ومن الطبيعى أن يزيد هذا فى ضيقهم به ، وليس من النادر فى شىء أن نجدهم يقابلون هذا المسلك من أبنائهم بمواصلة التقريع وتوجيه اللوم والتعنيف بل

(١) Routine والوتيرة الطريقة ، يقال ما زال على وتيرة واحدة (الصحاح) ويقصد بها هنا نظام حياة الطفل اليومية .

بالعقاب الصارم فى بعض الأحايين ، وهم يخالفون أنهم بذلك إنما يعملون لصالح الطفل ، على أن هذه الوسائل ليست غير مجدية فحسب ، بل إن فيها إلى ذلك غبناً وتحيفاً وهى تؤدى أبداً إلى زيادة المسألة سوءاً وعسراً لأن ما ينبغى علاجه هو الطفل وليست الأعراض .

ومع أن التشنجات فى الأطفال قلما تعتبر عادة من العادات ، إلا أن الواقع أن الطفل إذا اعتراه التشنج مرة أو أكثر ، فإنه كثيراً ما يلقى من أبويه اهتماماً خاصاً يؤدى فى ذاته إلى مشكلة جديدة ، وغالباً ما يكون هو الخطوة الأولى فى سبيل تكوين علاقة بين الوالدين والطفل لها صبغة معينة تجعل من التربية بعد ذلك أمراً عسيراً غاية العسر .

والتشنج أبداً من الأعراض التى تروع الآباء ، فهو عرض مسرحى أخاذ لنشاط عضلى لا هدف له ، تصحبه التواءات فى الوجه وفقدان للشعور ، ثم يعقب هذا كله فترة من الغيبوبة يهلع منها الآباء ويشتد ذعرهم عند مشاهدتها للمرة الأولى ، ويصعب عندئذ إقناعهم أن الطفل ليس فى خطر من الموت الداهم . ومن ثم لم يكن من الغريب أن ينزلق كثرة الآباء عقب ذلك إلى إهمال أصول التهذيب وطرائقه إهمالا قد يؤدى إلى عودة نوبات التشنج ؛ ذلك لأن الامتيازات التى يظفر بها الطفل ، ولأن عدم إرغامه على التزام القواعد والأصول التى يلتزمها غيره من أعضاء الأسرة هو الأمر الذى يبعث فى الناشئ الظن بأنه شخص أثير له ميزاته الخاصة . وهنا يكمن الخطر : لأن الأطفال إذا ما تلمسوا أن الأهل ينظرون إليهم نظرة تختلف عن نظرتهم إلى غيرهم ، بدأوا يستغلون هذا الاختلاف وسيلة يحققون بها مقاصدهم ويتحاشون بها المصاعب التى تعرض لهم .

كانت الطفلة أ . . . تعانى السعال الديكى منذ ثلاثة شهور ، وكانت نوبات السعال حادة كثيراً ما يعقبها القىء . وفى مرة من المرات وفدت عليها

نوبة خفيفة من التشنج فروعت هذه الأعراض أبويها ترويعاً شديداً . فلقيت الصغيرة كل رعاية ممكنة أثناء مرضها ، وأوقف العمل على تهذيبها وتركت وشأنها تتبع هواها فى كل شيء . ثم زالت الأعراض الحادة ، وقرر الأطباء أن الطفلة قد عوفيت وتم شفاؤها . ومع هذا كانت تعاودها نوبات السعال فيزيد ذلك فى قلق الآباء ويغرقون فى الحدب عليها . غير أن الأم أدركت أن النوبات لم تكن تعاود ابنتها إلا إذا غضبت الطفلة ، أو حرمت من شيء ترغب فيه ، أو تهددها فى بعض الأحايين خطر العقاب . ولما كانت الوالدة لا تزال تخشى أن تصاب صغيرتها ثانية بنوبات التشنج استمرت ترضخ لأوامر الطفلة وتشبع لها رغائبها . وقد دعتنا سلامة صحتها فى السبعة الشهور التى مرت بعد زوال مرضها ثم إصرارها على استخدام نوبات التشنج وسيلة لتحقيق أهوائها ، إلى الاعتقاد بأنه من الأوفق للأم أن تهمل بعضاً من هذه النوبات ، وأن تعمل بعد انقضاء كل نوبة على عزل الطفلة وعلى حرمانها من الاشتراك فيما يمتعها من أوجه النشاط . ولم يستلزم الحال أكثر من أن أهملت الأم أول نوبة وفدت على البنت ، فى اليوم التالى لزيارتها العيادة ، فكانت هى النوبة الأخيرة ، إذ أيقنت الطفلة أن النوبات لم تعد تجديها نفعاً فى الحصول على الانتباه أو فى الهروب من بعض المواقف المكدرة .

ولعل فى بعض الحقائق التى تتصل بالتشنجات المختلفة التى تعرض فى الطفولة ما يكون ذا قيمة كبيرة وما يساعد الأب أو الأم القلقة على تناول هذه المشكلة على منوال يؤدى إلى نفع الطفل وأبويه معاً .

فالتشنجات التى تحدث فى الأطفال قبل بلوغهم الرابعة شائعة إلى حد ما ، وقد أظهر البحث فى هذا الموضوع أن طفلا واحداً من كل عشرة ينتابه التشنج مرة واحدة أو أكثر من مرة خلال هذه الفترة . وقد يلحق التشنج الأطفال لغير ما سبب ملموس أو معجل ، ويعجز عن تحديده الطفل وأبواه . غير أن هذه

النوبات كثيراً ما تصاحب بعض الأمراض المعدية الحادة ، وخاصة تلك التى يصحبها ارتفاع فى درجة الحرارة ، أو الاضطراب فى الجهاز الهضمى ، أو التسنين ، أو ضربة الشمس ، أو الإصابات ، كما أنه كثيراً ما يعترى الأطفال المصابين بالكساح حالة من « التخشب » من خصائصها البارزة مظاهر التشنج . وأحياناً ما تكون الخبرات الانفعالية الشديدة بعد سن الثالثة هى السبب الذى يؤدى إلى حدوث أول نوبة . لكن الرعد هو أكثر الأسباب شيوعاً فى هذه المجموعة بالذات .

ويجب أن ننظر أبداً إلى التشنج – أثناء علاجنا إياه – على أنه عرض من الأعراض لا مرض من الأمراض . ويجب بذل كل الجهود الممكنة تحت رعاية طبية دقيقة للوقوف على ما قد يكون هنالك من حالة مرضية مخبوءة عساها أن تكون السبب فى تلك التشنجات . ثم إن كثيراً من ظاهرات التشنج التى يمكن أن ينجع علاجها – مثل تلك التى تصحب الكساح والإمساك المزمن – إذا تركت وأهملت بقيت وتحولت إلى أحد الأمراض التشنجية المزمنة التى نشاهدها فى الكبار . وعندئذ يصعب إيضاح سبب هذه العلة حتى على أولئك الذين توفروا على بحث هذا الموضوع .

وينبغى أن يذكر الآباء أن التشنج أمر خطير لا ينبغى الاستخفاف به ، ولا يجب أن نمر به غير عابئين إذ أنه يتطلب خير العناية الطبية . ويجب أن يعتبر دليلا على عدم استقرار الجهاز العصبى ومن ثم يجب علاجه على هذا الأساس .

والأطفال فى مجموعهم معرضون لأمراض وخبرات وظروف تتشابه كثيراً . وتسعون فى المائة من الأطفال يقابلون هذه المواقف دون أن يلحقهم التشنج ، أما العشرة فى المائة الباقون الذين يعجزون عن مواجهة القدر الوسيط من التوتر والجهد فهم الذين تجب رعايتهم فى الحال . وليس من اللازم أن يعنى التشنج

فى الطفل أن جهازه العصبى أدنى من المستوى العادى . بل إنه يدل على أن جهازه العصبى دقيق النظام أو أنه بعبارة أخرى أكثر حساسية يستجيب بسرعة أكبر لكل ما يثيره . وهناك من الأدلة ما يثبت أن الأطفال كلما تقدموا فى السن صاروا أكثر استقراراً ، لأن نسبة ضئيلة جداًّ منهم هم الذين تلازمهم التشنجات حتى حياة الكبر .

ورغم ذلك فإنه يجب علينا — إلى الوقت الذى تتم فيه حالة الاستقرار هذه — أن نتخذ من الاحتياطات وأن نبذل من الجهود ما نستطيع به أن نجنب أولئك الأطفال الانحطام على صخور نعرف خطرها . فيجب أن يكون الطفل تحت رعاية طبيب يستطيع التغلب — بالفحص والتحليل الدقيق — على أسباب المرض التى لم يكن التشنج إلا عرضاً من أعراضها . ويجب أن ينال غذاء الطفل ونومه وإخراجه انتباهاً خاصًّا . ولا يجب أن ندفع بالصغير إلى المدرسة دفعاً أو أن نسمح بقيامه خارجها بأمور تزيد عن طاقته .

ولنعتبر أولئك الأطفال مؤقتاً من الفئة التى يعوزها الاستقرار فى تكوينها ، ولنحدد فى شىء من الدقة قدر ما يمكن أن يتحملوه من الأعباء . وليس من العسير تنفيذ الاحتياطات السابقة ، على أنه من اللازم المحتم ، أثناء عملنا على وقاية الطفل ، ألا ندفعه بذلك إلى الإسراف فى الاهتمام بصحة بدنه . وقد تدعو الضرورة إلى أن ندلى له فى صراحة تامة بأنه لا بد من اتخاذ بعض الاحتياطات ، لكنه ينبغى أن نبذل كل ما نستطيع حتى نمنعه من الشعور باختلافه عن غيره شعوراً حادًّا طاغياً ، ومن إقامة حياته حول مرضه ، ويتطلب الأمر من الوالد الحكيم كل ما فى وسعه من المهارة والحذق والكياسة حين يمنح الطفل غير المستقر بعض الامتيازات من ناحية ، ثم يعمل على توجيه نموه من الناحية الأخرى فى حكمة وحزم وعدل توجيهاً لا يؤدى إلى المبالغة فى نزعاته الفطرية غير المستقرة . ولعل الأذى الذى يلحق الطفل من التشنجات ليس فى

التشنجات ذاتها ، بل من موقف الآباء بإزائها ، ذلك الموقف الذى يحاكيه الطفل أبداً ويعمل على تقليده .

لا ينبغى أن نضحى بشخصية الطفل كى نتجنب ما قد يعتريه من تشنج. بل يجب أن يخضع الطفل لأصول التهذيب عينها التى يخضع لها غيره من الأطفال . وينبغى أن يؤذن له بالاشتراك قدر ما يستطيع فى الألعاب والرياضة ، وأن نقيه بكل الوسائل من الشعور باختلافه عن غيره . أما قواعد الصحة العامة والقيود الخاصة التى يبدو من الحكمة اتباعها فينبغى أن ندفعها إليه بكل ما يمكن من اللباقة ، حتى لا ترتبط عنده بالمرض أو على الأقل بمرضه المعين الذى يعنى به أهله كل العناية .

الفصل السادس عشر

الجنوح[1]

السرقة

الأمانة أمر يكتسب ولا يورث ، وهى من خصائص الخلق التى يعلق عليها المجتمع أهمية كبيرة ، حتى إن الفرد إذا اعتدى على ما يملكه غيره عرض نفسه أبداً لحساب عسير ، وفى السنن الأخلاقية التى يؤمن بها كثرة الناس اتفاق على أن خرق قواعد السلوك وأوضاع القانون – التى تقرر أن الاستحواذ على أملاك الآخرين جريمة – إنما هو أمر لا خير فيه ولا جدوى منه ، وأنه مسلك وعر ملىء بالمخاطر مفعم بصنوف الجزاء والعقاب .

وبالرغم من أننا نقدر الخطر الكامن فى عدم تكوين هذه الخاصة الخلقية التى ندعوها بالأمانة ، ونعرف ما يتأتى من أذى فى إهمالنا العمل على غرسها فى نفوس الصغار ، فإننا كآباء كثيراً ما لا نحفل ببعض العادات والميول الخاصة التى تبدو فى سن مبكرة ، وتؤدى لا محالة إلى الخيانة فيما بعد. فالطفل إذا لم يدرب فى محيط العائلة على التفرقة بين ما يخصه وبين ما يخص غيره ، كان من الصعب أن نتوقع منه أن يكون أكثر تمييزاً بين ما يحق له وما لا يحق له خارج بيته . وليس من اليسير دائماً على الأطفال أن يعرفوا ما هو ملك خاص لهم فى المنزل ، لأن كثيراً من الأدوات فى الدار ملك مشاع يستخدمه كافة أفراد الأسرة ، حتى

---

(١) Delinquency والجنوح لفظ يجدر الأخذ به بدلا من إجرام الأحداث ، لما فى هذه العبارة من إساءة إلى الطفولة ومن عسف وخطأ فى الحكم عليها .

راجع كتاب « الشباب الجامح » وهو ترجمة للأبحاث الفذة الرائعة التى قام بها الأستاذ العلامة أيكهورن فى دراسة مشاكل السلوك وعلاجها ، نشر دار المعارف . (المترجم) .

ليختلط الأمر على الطفل اختلاطاً لا يبعث على العجب . ويصدق هذا القول خاصة إذا عرفنا أن غريزة الاقتناء قوية فى كثير من الأطفال ، وأن فى نفوسهم ميلا مقيما أبداً إلى ادعاء ملكية ما يجد هوى عندهم .

وسرعان ما يتعلم الطفل بخبرته أن كثيراً من الأشياء محرم عليه ؛ غير أن علة تحريم هذه الأشياء ، وسبب النتائج السيئة التى تلحقه لو أنه أطاع نوازعه الطبيعية فى الحصول على هذه المحرمات فأمر لا يدركه هو إلا قليلا قليلا فى بطء كثير . ومن ثم كانت خشية السخط ، والخوف من العقاب فى مطالع حياة الطفل هو العامل الوحيد الذى يردع صغار الأطفال عن السرقة .

على أنه لا ينبغى أن نغفل ذلك الميل الطبيعى الذى يدفع الطفل إلى عدم الاحتفال بحقوق الآخرين فيما يملكون ، وأن يبرر الآباء ذلك بأن يقولوا « نحن لا نعتبر أن من السرقة ما يأخذه الولد من أدواتى أو من أدوات غيرى من أفراد الأسرة » ، كما قالت لنا مرة أم صبى فى الثامنة من عمره ، وغضبت إحدى الأمهات مرة عند ما قلنا لها إن أخذ الطعام أو الفلوس حتى فى سن السادسة إنما يعتبر خلساً [١] أو سرقة . كما حاولت أم أخرى أن تبرئ صغيرها السارق بقولها ما ألطف طريقته فيما يرتكب وما أكثره إيثاراً وبعداً عن الأنانية . وعلى أى حال أيمكن أن نتوقع من طفل فى مثل هذه السن أن يدرك ما يرتكب ؟ بل إن من عثار حظ الطفل أن يترك الآباء أنفسهم فريسة للخداع ، إذ ينبغى أن يواجه الآباء الموقف فى جلاء وصراحة وأن يدركوا أنه إذا كان الطفل قد نما من الناحية العقلية والاجتماعية إلى الحد الذى يستطيع فيه التفرقة بين أملاكه وبين أملاك غيره . فإن اعتداءه على هذه الحقوق سوف يوصم باسم السرقة أمام الناس مهما كان من تسامح أهله بصدد ذلك الأمر . لهذا كان من اللازم لخير

---

(١) خلس الشيء من باب ضرب أى استلبه ، وهو كما يبدو لنا خير ما يقابل اللفظ الإنجليزى To pilfer أى السرقات التافهة اليسيرة . حتى نبعد بذلك عن الاختلاس لما له من معنى خاص .

الطفل أن تهيأ له الفرصة كي يتعلم أن خلس ما يشتهى ذنب أشد من العصيان وأنه يعود عليه بجزاء أقسى وأصرم .

وينبغى أن يدرك منذ أول فرصة ممكنه جانباً مما نعنيه بالسنة الاجتماعية التى نسميها الأمانة ؛ وليس أجدى فى تحقيق هذا من احترام حقوق الطفل فيما يملك من أدوات خاصة ، ومن تخويله حق التصرف المشروع فى ذلك ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . فلا ينبغى أن نتصرف فى ملابسه أو لعبه أو كتبه أو قروشه بل ولا فى وقته ، لا ينبغى أن نتصرف فى شىء من هذا دون رضاه وموافقته . وينبغى بالطبع أن نبعثه إلى مشاطرة لعبه مع الآخرين من الأطفال ، على أنه لا ينبغى أن يصادر كبار الأسرة تلك اللعب إذا طالب هو بحقه فى الاحتفاظ بها لنفسه . فإن مما يحير الطفل حقاً ويستغلق على ذهنه أن نطالبه بالتنازل عن لعبه ودماه لأحد إخوته الصغار أو لأحد الزائرين أو أن نبتزها منه إذا لم يجد من نفسه هوى للتنازل عنها فى هذا الوقت . ذلك لأنه يعتبر أن هذا الشىء خاص به هو ، فإذا نحن حاولنا أن نبث فى نفسه الإيثار وأن نقضى على الأثرة ، فقد نبلبل ذهنه فيما يعرف عن حقوق الملكية لو أنا أرغمناه إرغاماً على التنازل عما يملك . ولا يبعد بعد ذلك أن يبدأ هو بمطالبة من قد يتصل بهم بالتنازل عما يملكون .

ويعتمد الأطفال على البيئة التى يعيشون فيها فى تكوين موقفهم الخلقى بإزاء الحياة قدر اعتمادهم عليها فى اللغة التى يتكلمونها أو الملابس التى يتخذونها ، فحيثما وجدنا فى الآباء ميلا إلى التحيف على حقوق الآخرين ، أو إلى التخفف من الواجبات التى فرضت عليهم ، أو إلى تجنب مواجهة مواقف الحياة اليومية فى جلاء وصراحة ، وجدنا أبناءهم على هذا النحو ينشأون « ومن شابه أباه فما ظلم ».

وكثيراً ما يجد الآباء أنهم إن خفضوا من شأن الميول المنافية للمجتمع حين تبدو من أبنائهم ولم يحفلوا بها ، كان ذلك أيسر عليهم من العمل على تفهمها وبذل الوقت لإصلاحها . أو هم قد يتناولون السلوك المذموم بالطريقة التى يخيل

إليهم أنها سليمة مناسبة، لكنهم كثيراً جداً ما يغفلون ويعجزون عن استقصاء الأسباب المخبوءة التى تدفع إلى ذلك السلوك السيء ، ومن ثم يتركونها قائمة تثير المصاعب والمشكلات المماثلة لتلك فيما بعد .

وإذا نحن ذكرنا أن كل نزعات الطفل الأساسية فى مطالع الحياة تنحو نحو إشباع رغباته أى أنه يسعى فى الحصول على اللذة والقوة والمكانة — إذا نحن ذكرنا ذلك لزم أن نتوقع منه أن يشرع فى العمل على امتلاك كل ما يقع تحت متناول يده منذ سن مبكرة ، وأن يكون ذلك وجهاً من أكثر وجوه نشاطه منافاة لأوضاع المجتمع .

وقبل أن يستطيع الطفل بوقت طويل فهم العلة التى تمنعه من الحصول على كل ما يقع تحت متناول يده ، يمكن تدريبه على احترام الملكية عن طريق التعود . ويمكن تعليمه أن أى خرق لهذه القاعدة لا بد أن يعتبر مخالفة وعصياناً . فمن الحيف بالطفل ألا يفطن إلى أن « الخلس » عادة خطيرة ، رغم أنها كثيراً ما تنفعه نفعاً مؤقتاً على الأقل . وهو يلجأ إليها لإشباع كثير من الرغبات التى لا يمكن إشباعها إلا عن هذا السبيل . هذا إلى ما فى عملية « الخلس » نفسها من نشوة المخاطرة التى ترضى فى الطفل شعوره بالقوة وبالقدرة على « استغفال » غيره . ففى نجاح فعلته ما يبعث فى نفسه المتعة والرضا .

تجدى هذه الاعتبارات العامة فى غرس عادات الأمانة ؛ غير أن الآباء رغم توافرهم على تهذيب أبنائهم كثيراً ما يعجبون ، وكثيراً ما يحز فى نفوسهم الأسى والعار إذا عرفوا أن أحد أبنائهم قد ضبط متلبساً بوضع يده على ما يملك غيره . وكثيراً ما يبدأ مثل هذا السلوك فى البيت بأن يسطو الطفل على الطعام أو الحلوى أو مبالغ النقود التافهة ، أو بأن يذكر الجيران أن بعض الأشياء قد اختفت عقب خروج صغيرنا من دارهم . أما قمطرات المدرسة وأدراج بائع الحلوى فهى

مواطن خصبة للإغراء كثيراً ما تجتذب الطفل إذا زادت عنده قوة غريزة الاقتناء على الحد السوى .

ومع ذلك فبمجرد حدوث الذنب لأول مرة يضطرب كافة الآباء ويكربون كرباً شديداً . فإذا بهم يقولون «لقد أخرستنا المسألة » ، « لقد شُدهنا » ، « لقد لحق بنا من العار ما لا يمكن التخلص منه » ، وما إلى ذلك من العبارات التى يحاولون بها أن يعبروا عن شعورهم إزاء سوء سلوك الطفل . أما العلة فى حدوث هذه الانفعالات العنيفة فأمر يتعسر شرحه قليلا : فلعل فعلة الطفل تعيد بهم الذاكرة إلى بعض مما ارتكبوه هم فى مطالع أيامهم ، أو لعلهم اليوم لا يلتزمون الأمانة كل الالتزام أو يعفون كل العفة : مثلهم فى ذلك مثل الوالد الذى « طار عقله » من السرقة التى ارتكبها ولده حين كان هو لا يلتزم الذمة فى تجارته إلا بالقدر الذى يعفيه من الوقوع تحت طائلة القانون . ذلك أن ما تخشاه الكثرة منا هو مخافة العار والفضيحة التى تلوث سمعة العائلة من آثام أبنائها . ومهما يكن السبب فإن الانفعال كثيراً ما يعجز الوالد عن التصرف فى مشكلة السرقة عند أبنائه تصرفاً حصيفاً معقولا .

وهناك كثير من الطرق المعوجة التى يقابل بها هذا الموقف ، غير أن أكثرها شيوعاً هما الوجهان الآتيان : فإن فئة من الآباء يلوث شرفها الرفيع ما يوجه من اتهامات إلى الولد حتى إنهم ليقفون منه موقف الدفاع ينفون عنه التهمة رغم كل الأدله المنطقية التى تثبت ارتكابه إياها ، وهم لا يجرؤون على بحث المسألة بحثاً بعيداً عن التحيز ويبتغى منه الوصول إلى الحقيقة ، بل إن أسهل السبل لديهم هو إنكار وقوعها أصلا ، أما الفئة الثانية من الآباء فهم أولئك الذين يذهلهم ويطير رشدهم أن قد رزقوا ابناً أصبح لصاً فى سن السادسة أو السابعة ، حتى إنهم ليلجأون إلى أشد الأساليب عنفاً ، ويحاولون أن يضربوا الذلة والمهانة على الصغير جزاء على ما اقترف ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا — فهم يعاودون على الطفل

ذكر فعاته ، وهم لا يضيعون فرصة لتهويل ذنبه أمام عينيه ، وهم لا يأذنون له بنسيان خطيئته الواحدة الكبرى .

لكنه لا جدوى من التصرف فى مشكلة الخلس على هذا النحو أو ذاك سواء أكان ذلك بروح وكيل النيابة أم بلسان المحامى الذى يدافع عن موكله . فإن موقف الوالد لا ينبغى أن يقتصر على استقصاء الحقيقة والبحث عن وقائع الحال ، بل ينبغى أن يكون إلى ذلك موقف الاهتمام الحق بالأسباب والبواعث قدر الاهتمام بالواقعة نفسها.

فقد تكون السرقة غاية فى ذاتها . لأن الطفل قد يرى شيئاً معيناً يتوق إليه وقد يدرك إدراكاً تامًّا أنه ليس فى وسعه أو فى وسع أهله الحصول عليه ؛ أو يعرف أنه أمر محرم أو أنه شىء يلوح له أنه لا يمكن الوصول إليه إلا بالسرقة ؛ أو أنه يمكن الحصول عليه بعد التريث وطول الانتظار حتى يتجمع له من المال ما يبتاعه به ، لكن من العسير عليه أن يؤجل رغبة الساعة التى يتلهب شوقاً إلى إشباعها فهو لهذا يعمل ذهنه الصغير إعمالا ، وهو كثيراً ما يتقن تدبير خطته لاستراق الشىء المرغوب . وإذا هو فى محاولته الأولى لإشباع رغبته تيسر عليه ذلك ظن هذا السبيل ولم يفتضح أمره فقد يلجأ إلى استخدام تلك الطريقة بالذات لسد كثير من حاجاته . ومن ثم ينمو فيه على مر الزمن ميل إلى عدم الاحتفال بحقوق الآخرين فيما يملكون . لكنه لا ينتمى إلى هذه الفئة إلا نسبة ضئيلة من أحداث الآثمين .

غير أن السرقة ، على المألوف ، ليست إلا وسيلة لغاية ، والأشياء التى يسرقها الأطفال ليست فى الحقيقة هدفهم الذى يعملون للوصول إليه . بل إن الشىء المسروق ليس سوى أداة تستخدم فى إصابة الهدف المرغوب ، أو قد تكون السرقة نفسها وما يرتبط بها من موقف انفعالى غاية فى ذاتها . والسرقة فى هذه

الفئة من الحالات مشكلة سيكلوجية عويصة ، ذلك لأن الأسباب التى تقوم عليها كثيراً ما تكون خافية على الطفل كل الخفاء لأنها تعمل مخبوءة فى اللاشعور . ومع ذلك فإن هذا ليس هو الواقع فى كل الأحايين ، فكثيراً ما يستلزم نجاح فعلته خططاً محكمة الإعداد يعمل فيها فكره ويكدح ذهنه .

فلنعرض الآن بعضاً من الدوافع الشائعة إلى السرقة ، والغرض الذى قد تحققه فى حياة الطفل . وما هى الانفعالات التى قد تكبحها البيئة وتعوقها فلا تجد إشباعاً لها إلا فى هذا اللون من الإثم .

كانت و . . . بنتاً تبدو عليها البلادة ، ليس فى هيئتها ما يجذب ، يلوح عليها سوء التغذية ، واستعدادها العقلى وسيط ، وقد تعودت أن تأخذ الأدوات من أدراج التلميذات وجيوبهن ،وظهر من الأدلة أنها كانت تقترف ذلك منذ شهرين أو ثلاثة . وحين أقبلت على العيادة اندفعت تقول حتى قبل البدء فى مفاتحتها عن موضوع السرقة — بأنها لم تكن مذنبة . فأغفلنا التعرض لموضوع السرقة وقتذاك فبدأت هى تتحدث فى طلاقة وغبطة عن حياتها المنزلية والمدرسية ، وعن ميولها وعما تحب وما تكره ، وبذلنا جهدنا لتوثيق العلاقة مع هذه الطفلة وانتوينا ألا نشير إلى ذنبها فى الزيارة الأولى . لكنها حين كانت فى طريقها لمغادرة حجرة الفحص ، وقفت عن السير فجأة وقالت « لا يحبنى أحد ، ولست أدرى لماذا ، فالبنات لا يملن إلىّ ، بل يعتدين علىّ بالضرب والكيد ، لهذا لم أسرق إلا من اللواتى أغظننى وممن لا أحبهن » .

هكذا كانت السرقة فى هذه الحالة بالذات طريقة اتبعتها الطفلة لتأخذ بثأرها من غيرها ، فلجأت إليها كردٍّ فعل بدائى غريزى يقوم على الثورة والانتقام ممن اعتدين عليها ، فكانت تحطم أو تخفى ما تأخذه من الأشياء ، الأمر الذى يبين أنها رغم أنها لم تبلغ سوى السادسة من العمر كانت تدرك إدراكاً واضحاً معنى الأفعال التى ترتكبها ؛ إذ كانت تعرف ما يقع لغيرها من الناس الذين يسرقون ،

وكانت فكرة السرقة ترتبط فى ذهنها برجال البوليس والسجون . وكانت تخاف خوفاً واضحاً من كشف أمرها فكانت ماهرة حقاً فى إخفاء أفعالها . . . وهكذا كان الدافع إلى السرقة عند هذه الصغيرة هو الانتقام ، لأن السرقة كثيراً ما تستخدم كطريقة « لتسوية الحساب » عن ظلم حقيقى أو وهمى يلحق بالطفل أو يخيل إليه أنه لحق به .

وكان حل مشكلة هذه الصغيرة الذى أشرنا به هو زيادة العناية بها فى المنزل وزيادة تغذيتها ، والاهتمام بأناقة ملابسها ؛ ونقلها إلى مدرسة أخرى حتى تبدأ صفحة جديدة من حياتها فى بيئة لا تعيرها أو تعرف شيئاً عن إثمها . وبأن يقدم إليها قليل من المعونة فى أعمالها المدرسية .

وقد تدفع الغيرة إلى السرقة من طرق غير مباشرة كثيراً ما تخفى علينا ، إلا إذا توفرنا على فحص الموقف ودراسته . وهاكم حالة بنت لم تتعب أهلها فحسب بل أهل زميلاتها — لأنها كانت تسرق أشياء غيرها من الأطفال ؛ فكانت تلبس أية « مريلة » من حجرة الملابس فى المدرسة ، وتسرق الطرائف والحلى من الأدراج ، وإذا ما واتتها الفرصة سرقت أيضاً من بيوت صويحباتها . ومما له دلالة خاصة أنها كانت تقصر سرقاتها على ممتلكات الصغار دون الكبار ؛ وأنها لم تحاول مرة واحدة أن تنتفع بشىء تسرقه ، بل كانت تعمد أبداً إلى تحطيمه وإتلافه .

وقد كشفت دراسة هذه الحالة أنه كلما كان الأطفال يعرضون ما جد لهم الحصول عليه من لعب أو ملابس أو حلى كانت الغيرة تستبد بصغيرتنا ، فإذا بها تعمد إلى التفكير فى اختلاسها ثم تدميرها .

وكم من صبى ينزلق إلى السرقة ويدمنها لأنها جانب من نشاط العصابة التى قيض له أن يصطحب رفاقها . وكثيراً ما لا يحفل الطفل أو عصابته بما يسرقون ، ولا تهمهم قيمة ما يسرقون . فالسرقة عند هذه الفئة لعبة (يستكردون) بها

غيرهم ، وإذا هى نجحت تهللوا لهذا النجاح ، إذ أنه يبعث فيهم الشعور بالقوة والسطوة . لكنه لا يقترف مثل هـــذه السرقات إلا من كان دون المتوسط فى الذكاء ، لأن هؤلاء الأطفال يكونون قد عجزوا عن النجاح فى الوجود التى تتفق وأوضاع المجتمع . ويمكن بوجه عام إصلاح هذا العوج فيهم بتوجيه نشاطهم وجهة اجتماعية مقبولة . وما أكثر ما يمكن إسداؤه لأولئك الأحداث لو أننا اعتقدنا أنهم ليسوا مجبولين على الشر والفساد وأنه ليس مقسوماً لهم أن يشبُّوا على الإجرام ، بل إنهم فى سلوكهم يلتمسون منفذاً لإشباع انفعالاتهم الحبيسة . وما أكثر ما يعود عليهم من خير لو أننا بكرنا بإدراك ذلك . ورغم هذا فإنه ينبغى أن نذكر أبداً — فى مثل هذه الحالات التى لا تكون السرقة فيها سوى وسيلة لغاية — أن أى شكل من أشكال النشاط يدوم تكراره خليق بأن يصير عادة وأن السرقة قد تصبح على ذلك غاية فى نفسها .

والشعور بالقصور الذى يعرض وقتاً ما لكثيرين جداً من الأطفال ، خلال العشر السنوات الأولى من العمر ، كثيراً ما يؤدى بهم إلى عدم الأمانة .

هـ . . . صبى له من العمر ثمانى سنوات ، كريم المحتد . كلا والديه متخرج فى الجامعة . شرع يسرق فجأة بعض النقود من أسرته ويستخدمها فى شراء الحلوى وما إليها ويوزعها على رفاقه . وهنا نلقى ولداً طمس كفاياته العقلية والاجتماعية والرياضية أخوه الأكبر المتعجرف الذى كان يواصل كيده وتحقيره . وكان الولد فى الألعاب الرياضية على الأخص ليس موفقاً قدر توفيق معظم الأطفال فى سنه ، فكان هذا سبباً فى عزلته وعوزه إلى الصحاب . ومع ذلك فقد عرف بخبرته أنه يستطيع كسب الشهرة المؤقتة على الأقل : وذلك بتموين الجماعة ببعض أنواع الترف وأطايب الحلوى التى كان ينفحهم بها فى كرم وسخاء ؛ وكان يلجأ من أجل ذلك إلى السرقة . وقد نجح علاج ذلك الصبى بإبعاده عن أخيه الكبير المتفوق وإرسال الصغير إلى أحد المخيمات الصيفية حتى يندمج مع

الجماعة الجديدة ، وحيث لا تلاحقه سمعته القديمة أو إذلال أخيه إياه . فأدى ذلك مع ما قدمه رئيس المخيم من عون للصبي إلى أن عاد هذا وقد تحمس كثيراً وزاد ثقة بنفسه كي يبدأ فى حياته صفحة جديدة .

وكان س . . . صبياً لطيفاً فى الثامنة من عمره ، فى مظهره رجولة ، وله ذكاء ممتاز . ارتكب سرقته الأولى كي يتجنب الذلة التى كان يشعر بها حين يتخلف عن الذهاب مع غيره من التلاميذ لتناول اللبن وقت الفسحة . وكانت أمه عاملة مجدة ذات ضمير حى ، مات زوجها منذ بضع سنوات ، فأخذت تقوم بكل أعباء الحياة فى صراع جبار ونضال متواصل ، كى تحفظ كيان العائلة التى كانت تشمل هذا الصبى وأختيه الكبرى والصغرى . وكانت قدرتها المالية المحدودة لا يمكن أن تسمح لصاحبنا الصغير بأربعة قروش فى الأسبوع ثمن ما تقدمه المدرسة من لبن . ولم يكن الولد يحب اللبن ويتوق إليه فحسب بل إنه كان يشعر بالذلة الجارحة وبالمسكنة عند ما تحل فترة الفسحة فيسمح لكل الأطفال الآخرين ما عداه وطفلين آخرين بالذهاب لتناول اللبن .

ودفعه هذا الموقف إلى أن سرق جنيها من أمه ، وفكّ الورقة وأعطى كلا من الولدين الآخرين اللذين كانا يعانيان ما يعانى أربعة قروش ثمناً لاشتراكهما فى اللبن الذى تقدمه المدرسة واحتفظ لنفسه بعين المقدار ؛ ثم أخفى باقى المبلغ فى مكان ما بالمنزل . ولاحظت المعلمة وجوده ، يتناول اللبن ، مع غيره من الأطفال فعجبت لذلك ، وتحدثت إلى أمه عن ريبتها فى الوقت الذى كشفت فيه الأم ضياع ذلك المبلغ . وعند سؤال الصبى اعترف لتوه بالسرقة ورد ما بقى من الجنيه إلى أمه . وعند توجيه النصح إليه سلم كل التسليم بمنافاة سلوكه لأصول الحياة فى المجتمع وبالنتائج التى يمكن أن تنجم وتقع به لو أن سلوكه هذا تحول إلى عادة .

وفى المدرسة التى كان ت . . . يتردد عليها شاعت الدعوة إلى ما يسمى

« بحركة الاقتصاد » فكان الأولاد يشجعون على توفير نقودهم ، ووضع كل ما يمكن وضعه فى صندوق التوفير بالمدرسة . وكان المعلم يكتب على السبورة قائمة بأسماء التلاميذ والمبالغ التى وفرها كل منهم . على أن ت . . . نظراً لحالة أهله المالية كان أبداً فى قاع القائمة ، ورغم أن أحداً لم يوجه إليه شيئاً بالذات إلا أن الدعوة كانت تلح على رفاقه جميعاً بالاقتصاد والتوفير . . فازداد صاحبنا شوقاً إلى تحقيق رغبة المعلم وإلى رفع اسمه قليلا من أسفل القائمة ؛ فشرع يختلس من النقود قليلا قليلا ويدفع كل قرش يقع فى متناول يده فى حساب التوفير ، وأسرع مع ذلك فى طموحه حتى وقع فى حبائل فعلته فبدأ المعلم يتشكك فى مصدر ما كان يساهم به الصبى فأدلى بالأمر إلى عائلته .

ومن الجلى أن نظام المدرسة ينبغى أن يحمى الطفل ، ما أمكن ذلك ، من أن يشعر بالذلة إذا كان معوزاً فقيراً ، بأن يهيأ الأمر فى المدرسة على منوال لايشعر التلاميذ بتفاوتهم فى الثروة أو الجاه ، فإذا أردنا مثلا أن نعلمهم الاقتصاد فلا ينبغى أن نبالغ فى ذلك فقد ننزلق إلى تعليمهم السرقة بدلا من التدبير . وكثيراً ما لا يكون العيب فى الفكرة التى نود تحقيقها من هذه المشروعات المختلفة — تعاوناً كانت أو غيره — بل يكون العيب فى الطريقة التى نستخدمها .

وفى بعض الأحايين تكون السرقة مرتبطة بنوع من أنواع الصراع العقلى ، وخاصة تلك التى تتصل بالميول الجنسية ، وهذه المواقف تبلغ من الناحية السيكلوجية حدًّا من التعقيد يتعسر على الآباء عنده حسن التصرف فى المشكلة ، فكثيراً ما يتصل بالسرقة عندئذ أمور مثل العادة السرية والكآبة البادية والشعور بالانحطاط والضعة ، مما يدفع الفتى إلى الظن بأن لا قيمة لشىء فى الحياة وأنه لن يفقد أكثر مما فقد إذا هو أضاف إلى ذنوبه ذنباً جديداً ، وكثيراً ما يجد الفتيان الذين تشتد عندهم الأوهام الجنسية ما يخفف عنهم عبئها فى النشوة التى تبعثها السرقة .

وعلاج هذه المشكلات ينبغى أن يوكل إلى أولئك الذين تخصصوا فى التصرف فيها وعرفوا أصول إصلاحها .

وفى بعض الأحايين نجد أن بعض دوافع الإيثار تؤدى بالطفل إلى كثير من المصاعب ، كما وقع فى حالة صبى فى العاشرة من عمره سرق جنيهاً من أمه . ثم أخبرها عقب ذلك بأيام أنه قد التحق بعمل بوظيفة ساع بعد انتهاء ساعات الدراسة . وبقى أسبوعاً كاملا لا يعود إلى المنزل مساء إلا ليلقى أباه ويتناول طعام العشاء مع الأسرة . وبعد انقضاء الأسبوع سلم أمه جنيها (مفكوكاً) وهو يشعر بالفخر الكبير من أنه كان يقدم جانباً من العون للأسرة . وبعد هذا بوقت قصير كشفت الأم ما فقدت ، وعرفت أن الصبى لم يكن يقوم بأى عمل . ولما سئل عن ذلك اعترف بأنه أخذ الجنيه ثم فكه . وكان الدافع الوحيد لارتكابه هذه الفعلة رغبته فى تقليد أبيه وفى المساهمة فى تحمل أعباء الأسرة .

ولا يمكن أن يكون هناك علاج واحد مقنن لأية حالة تبلغ أسبابها من الكثرة والتباين قدر ما تبلغه أسباب السرقة . ومن ثم كان أهم ما ينبغى عمله لحل هذه المشكلة ، مثلها فى ذلك مثل مشكلات السلوك الأخرى فى الأطفال ، أن نقف على الغاية التى تحققها السرقة فى حياة الطفل الانفعالية ، وأن نبذل عندئذ ما استطعنا من جهد لعون الطفل على إشباع هذه الرغبة الانفعالية على وجه يرضاه هو ويقبله المجتمع . وسواء أكانت السرقة مجرد وسيلة نحو غاية يعمل الطفل على تحقيقها ، أم كانت غاية فى نفسها فلا بد أن نعمل على أن لا يجنى الطفل من سرقته إلا الخسارة ، أى أنه يجب على الآباء أن يدبروا الأمر حتى لا تحقق السرقة الغاية التى كانت تبتغى منها ، هذا إلى أنه لا ينبغى تهوين الذنب أو العمل على إخفائه حماية للطفل أو لسمعة أهله ، بيد أنه ينبغى كذلك عدم إذلاله بل تشجيعه على مواجهة المشكلة فى صراحة وجلاء .

فإذا كان قد سرق من دكان أو من منزل للجيران وجب أن يرد الشىء

المسروق وأن يقدم اعتذاره . فإذا عجز عن إصلاح خطئه على هذا المنوال ، كأن يكون قد أتلف ما استحوذ عليه أو تصرف فيه ، وجب أن يدفع قيمته من « مصروفه » الخاص أو من « حصالته » . وينبغى أن ينفذ هذا بطريقة تترك فى الطفل أكبر الأثر ، ويعتمد هذا على طراز الطفل الذى نكون بصدده . فإذا استقطعنا ثمن المسروق من « مصروف » الطفل فلا ينبغى أن يكون ذلك بمقادير تؤدى إلى إعواز الطفل عوزاً قد يشجعه على ارتكاب سرقات غيرها ، بل بمقادير يقصد منها مجرد التضييق عليه وحرمانه من بعض الأشياء التى كان يستطيع الحصول عليها لو أنه لم يرتكب فعلته من قبل . ولا ينبغى أن نترك الشخص الذى سرق منه الطفل يرق له إذا اعتذر ويبلغ به الرفق حداً يدفعه إلى رفض تعويض الصغير عما سرقه ، لأن فى هذا سابقة سيئة تدفع الطفل إلى الظن بأن ذنبه لم يبلغ على أى حال حداً كبيراً من الخطورة . ومما يبلغ هذا المبلغ من الأهمية ألا يبعث الآباء الطفل إلى الظن بأنه لم يعد بعد موضعاً لثقتهم ، فإذا كشفنا أنه كان يخفى ما يتبقى معه من نقود بعد شراء ما تكلفه بشرائه ثم انتهت المسألة وأحكمنا الخطة لعلاج الموقف ، كان فى هذا عتاب كاف على هذه الفعلة ؛ وليس من الحكمة أن ندفع الطفل إلى الشعور بأنه لم يعد لدينا من الثقة فيه شىء يسمح بالعودة إلى القيام بما نكلفه به . وليس من الحكمة أيضاً أن نسرف فى استغلال انفعالات الطفل كأن نقول له إن إثمه كان صدمة عنيفة نزلت بأبيه ، أو أن أمه قد دهمتها شناعة ذنبه . فليس لهذه المواعظ إلا أثر تافه إذا أعدنا ذكرها بعد انتهاء الحكاية أول مرة . بل من الخير حقاً أن يواجه المشكلة على أنها تبعد عن روح العدل وأصول « اللعب النظيف » ، وأنها مثل الغش فى المباراة مع رفاقه ؛ وأنها فوق كل هذا كله لاتجدى عليه شيئاً ولا تؤدى إلى نفعه ، بل تفقده أصدقاءه ولا تبعث فيه الرضا أو الهناءة عقب ذلك .

وإذا كانت السرقة نتيجة للغيرة ، أو للأخذ بالثأر ، أو محاولة عشواء

لالتماس منفذ يلقى فيه ما يشبعه ويرضيه ، وجب أن ننظر إلى هذه المواقف كمشكلة أساسية ليست السرقة إلا أحد أعراضها .

ويتبين من الحالتين التاليتين أن الآباء إذا أساءوا التصرف عجل هذا فى تلك العادات المكروهة .

نحن هنا بصدد صبى فى السابعة من عمره يعيش بين قوم تبنوه . بدأ يسرق قبل أن يبلغ الخامسة . ولم يكن يقصر سرقاته على أشياء معينة رغم أنه كان يفضل النقود فكان يقتنص منها ما يقع فى متناول يده قروشاً كانت أوجنيهات . وكان يلوح أنه يشعر بمتعة بالغة ورضاً كبير من المخاطرة فى ذاتها ؛ والواقع أن « مغالطة » أبويه وغش أصحاب الحوانيت كانت هى التسلية التى يؤثرها ويميل إليها ولم تأخذ « أمه » سرقاته الصغيرة بمأخذ الجد إلا عندما سرق جنيهاً . وكان يحلو لها أن تحكى على محضر من الطفل كيف خدع صاحب الدكان ، وكانت تلتمس لآثامه مبرراً فى « انتقالها إليه عن طريق الوراثة » . والحق أن أسلاف الطفل لم يكونوا على ما ينبغى ، فقد عرف عن أبيه أنه كان رجلا « لاأخلاق له » ولم يعرف عن أمه سوى أنها توفيت والطفل فى الثانية من عمره . وكانت السيدة التى تبنت الطفل تسرف فى رعايته ، وتبذل خير الجهد فى الحدب عليه والعناية بأمره ، وكانت تبرر ما ينتج عن عدم إحسانها تنشئته « بأنه لا يمكن أن يرجى شىء من طفل له مثل هذين الوالدين » . فأدى هذا الرأى الجبرى بشأن هذه العادة المرذولة وإغفال السيدة خطورة ذلك إلى أن يكون أملنا فى إصلاح الطفل ضعيفاً حتى فى مثل سنه المبكرة .

بيد أنه ليس هناك ما يدعو إلى الشك فى أن هذا الصبى لو أنه قد وجد بين أيدى قوم يزيدون عن تلك السيدة حكمة وحصافة لأمكن ، رغم سوء وراثته ، أن يتسق وأوضاع المجتمع وأن يستقيم أمره فى مقبل أيامه . لكنا فى مثل الظروف التى قسمت له ، نستطيع أن نتنبأ فى شىء لا بأس به من اليقين

بما سوف تصطبغ به حياة هذا الصبى من ألوان الإثم والإجرام .

ونذكر صبياً آخر انزلق إلى السرقة كوسيلة للمخاطرة فحسب . ثم ضُبط عند اقتحامه إحدى نوافذ منزل كبير واختفائه فى أحد أركانه . وعند فحصه قال : « إن أمى تظن أنى أرتكب هذه الأفعال لأنى قد أصبت من قبل فى رأسى » مشيراً بذلك إلى حادثة وقعت له قبل ذلك بعامين ؛ ثم قال « لكن هذا ليس هو السبب ، فإنى أرتكب ذلك لأنى أميل إلى هذه الأشياء ، ولأنى أود الحصول على نقود أنفقها » . ولقد كان المتوقع أن يبرر الصبى سلوكه بنسبته إلى الإصابة التى لحقت به كما كانت تعتقد أمه ، غير أن الواقع أنه أثناء حديثنا معه بدا منه أنه يود الظهور بمظهـــر الولد السوى العادى ، لا فريسة لدماغ مصاب مضطرب .

فليس هناك ما يدعو إلى قلق الآباء من سرقات الأطفال التافهة إذا هم واجهوا المشكلة فى جلاء وصراحة ؛ ولم يتركوا انفعالهم بشأن المسألة يقلب اتزانهم وحسن تصرفهم رأساً على عقب .

بل إن الآباء إذا تتبعوا عن كثب ألوان نشاط أبنائهم اليومية لما استطاعت أية عادة أن تستحكم فى الأطفال دون أن يفطن لها الآباء . وكلما أمكن التبكير بالوقوف على الميول المذمومة والعمل على علاجها ازداد الأمل فى غرس العادات الطيبة غرساً عاجلا مقيماً . أما الوالدة أو الوالد الذى يذهب إلى العيادة السيكلوجية قائلا إن ابنته أو ابنه كان يرتكب ذلك منذ عامين أو ثلاثة ، « لكنى لم أكشف ذلك إلا منذ حين » ، فهو والد لا يقوم بما تفرضه عليه واجبات الأبوة بل هو يغفل عنها إغفالا لا شك فيه . حذو أولئك الآباء فى إلحاق الأذى بأبنائهم أولئك الذين يكشفون المشكلة فى أبنائهم لكن الشجاعة لا تواتيهم لمواجهتها . فلا بد للوالدين إن أرادا تنشئة أبنائهما على الأمانة أن يجتمع لهما ما ينبغى من حسن الفهم والاهتمام والصراحة جميعاً .

الكذب

إن العمل على تنشئة الطفل على الأمانة فى ذكر الوقائع هو عين العمل ، بوجه عام ، على تنشئته على الأمانة فيما يتصل بأملاك غيره . وكثيراً ما يصحب الكذب السرقة ، بيد أن الكذب كثيراً ما يوجد قائماً بنفسه . لكن كثيراً من المواقف النفسانية ، كالشعور بالقصور مثلا قد تدفع طفلا إلى الكذب بينما تدفع عين المواقف طفلا آخر إلى السرقة . والأمانة فى سرد الحقيقة كالأمانة بشأن أملاك الآخرين أمر يكتسب ولا يورث . وهى تكتسب بالتقليد ، وبتدريب الطفل على تمييز الوقائع ، والتعرف على الحقيقة والوقوف على الصدق ، وبألا يمر بظروف ينفع فيها الخداع وتحسن عاقبته .

فإذا نشأ الطفل فى بيئة تحترم الحق وتلتزم الصدق ، حيث يفى القوم أبداً بما وعدوا وإذا عجزوا عن الوفاء شرحوا السبب فى ذلك شرحاً وافياً ، فى بيئة لا يتخلص فيها الآباء أبداً بانتحال المعاذير المفتعلة وفى أسرة تلتزم الأمانة والصدق بقدر دعوتها إليها . كان من الطبيعى فى مثل هذه الظروف أن يلتزم الطفل حدود الصدق المرعية . أما إذا سمع الطفل يوماً بعد يوم أحد أبويه يتشكك فى صدق الآخر . أو إذا شاهد أمه تتخلص مما يثقل عليها من الواجبات الاجتماعية بادعاء المرض . أو إذا اشترك فى خداع الأبوين أحدهما للآخر بأن يطلب إليه ألا يخبر أمه بهذا الأمر أو أباه بذلك ، أو إذا بذلت له مختلف الوعود ثم تواتر خلفها دون إيضاح . أو إذا خدعه الكبار وغشوه فى معاملاته معهم ، فليس هناك ما يدعو إلى الظن بأن الطفل فى مثل هذه الظروف سوف يعرف قيمة الصدق أو ينبعث على أى وجه إلى التزامه . بل ينبغى أن يؤمن الطفل من صلاته اليومية بمن يعيش معهم أنهم يتوقعون الصدق ، وأن للأسرة مستوى

أخلاقياً وأن هذا المستوى مقوم من مقومات الحياة اليومية التى ينبغى أن يسمو إليها .

لم يكن هناك إذن ما يبرر دهشة إحدى الأمهات أو ابتئاسها حين أنفقت ابنتها القرش – الذى أعطى لها لركوب الترام إلى عيادة طبيب الأسنان – فى شراء بعض الحلوى ولم تخبر أمها عن ذلك . فإن هذه الأم عينها قبل ذلك بأسبوع كانت قد أخبرت الطفلة بأنهما خارجتان فى نزهة ثم أخذتها إلى عيادة الطبيب . وإنا لنرى أن الطفل منذ سن مبكرة جداً قادر تماماً على التفرقة بين الواقع والوهم ، وأن من أهم ما ينبغى لغرس الأمانة والصدق هو سلوك أولئك الذين يتصل بهم الطفل فى حياته اليومية حتى يحسن به أن يحاكيهم ويقلد ما يقولون ويفعلون .

وها كم والدة أخرى حين أرادت أن تتجنب مواجهة أحد المواقف المحزنة ألحقت بالأسرة عناء شديداً : إذ أخبرت طفلها الذى كان فى الرابعة من عمره أن جدته ، التى توفيت منذ قريب ، والتى كان الطفل شديد التعلق بها ، قد سافرت . لكنه عرف من أبناء الجيران أنها ماتت ؛ وكان الموت يعنى – كما خيل إليه – أن يوضع المرء فى حفرة . فألصق الطفل بأمه ارتكاب هذه القسوة ضد جدته ، واشتد حقده وعداؤه ضد أمه ، وسبب من المتاعب ما اضطربت له الأسرة كلها شهوراً بأكملها ، دون أن يفطن أحد إلى السبب فى هذه المشكلة (راجع حالة حـ . . . ص ١٦٤) .

وليس تقليد سلوك الآباء هو السبب الوحيد فى كذب الأبناء . لكنه مع هذا سبب شائع يعمل فى حياة الطفل منذ وقت مبكر ، وهو سبب من اليسير حقاً أن نتلافاه .

وكثيراً ما يلجأ الطفل فى سبيل المفاخرة بقيمته الذاتية إلى المبالغة فى بعض المواقف التى قام بدور فيها . وكثيراً ما يكون للأقاصيص التى ينسجها أساس واه من الواقع ، بيد أنها كثيراً ما تكون أيضاً أموراً لفقها الطفل حتى لا يتجاهل

الناس أمره تجاهلا مطلقاً . ويغلب أن يصدر هذا النوع من التلفيقات من البنت أو الولد الذى تضيق به الحيلة ، والذى لا يستطيع أن يساهم مع المجموعة التى يتصل بها إلا بقدر ضئيل ، لكنه رغم هذا يتوق إلى تحقيق شىء يستحق الذكر والتنويه . هكذا ينتقل أولئك الأطفال على أجنحة الخيال من حياة مفعمة بالإملال والخيبة إلى حياة مليئة بالنشوة والنجاح ، فليست مثل هذه الأخيلة فى الواقع كذباً بل هى أوهام أورغبات لم تتحقق .

ويقوم علاج عادة التلفيق هذه على توجيه انتباه الطفل إلى الأمانة فيما يقوم به . فمثل أولئك الأطفال فى حاجة إلى جانب كبير من التشجيع والتوجيه . فينبغى أن توجه جهودهم نحو القيام بالأمور التى تقع فى نطاق قدرتهم حتى تكلل جهودهم هذه بالنجاح .

أما فى التلفيقات والأوهام التى ليس لها أساس من الواقع والتى لا تؤدى إلى غاية نافعة — أى تلك التى تدعى بأحلام اليقظة — فليس من اللازم أو من المرغوب فيه دفع الطفل إلى التسليم بأن أحلامه ليس لها ظل من الحقيقة . بل من الخير أن تبعثه إلى الإيمان بأنك ، كشخص كبير ، تسلم بأنه يؤلف حكاية تمتعك كأية قصة وأن احتمال تصديقها كحقيقة واقعة لم تخطر ببالك ألبتة . وفى تشجيع هذه الأقاصيص التوهمية فى الأطفال — إذا هم عرفوا أنك تنظر إليها بهذا المنظار — جانب من الخطر أقل مما يتعرض له الطفل إذا أنت واصلت العمل على كفه عنها بإنكار صحتها أو بعقابه على تلفيقها . فإن مثل هذا العقاب كفيل بأن يزيد نشوة المغامرة التى يستمدها الطفل من أقاصيصه ، وأن يملأه إشفاقاً على نفسه ، وأن يدفعه إلى الاستبطان[1] ، وأن يبعده عن الحقيقة أكثر من ذى قبل .

---

(١) Introspection وهى طريقة من طرق دراسة النفس تقوم على ملاحظة المرء نفسه وتأمله ما يجرى فى عقله من أفكار ومشاعر . ولعل المؤلف يقصد هنا أن الطفل يزيد انطواء على نفسه وتأمله فى حاله .

ومما يقع فى نطاق الشعور ولا صلة له بالأوهام ، حكايات الأطفال الذين يلجأون إلى المبالغة فيما يسردون تظرفاً منهم أو رغبة فى جذب اهتمام غيرهم إلى ما قد شاهدوا أو سمعوا . وكثيراً جداً ما يوجد هذا النوع من الكذب فى فترة المراهقة . وغالباً ما تلقى هذه الحكايات ضوءاً على شخصية الحاكى ، ورغم بعدها التام عن الحقيقة فهى تجذب الانتباه وتستثير عطف السامعين إذا تطلب الحال ذلك . ولا يتردد أولئك الفتيان عن الحديث عن مغامراتهم الجنسية ، وعما تناولوه من الخمر ، وعما ارتكبوه من سرقات رغبة منهم فى اجتذاب الانتباه . فإذا كانوا يتوقون إلى العطف فقد يبلغ بهم الأمر إلى تلفيق وقوع الوفاة بأحد أفراد الأسرة ، كما فعلت إحدى الفتيات مرة فدفعت بتلميذات المدرسة إلى جمع ما يكفى من النقود لشراء طاقة من الزهر ترسل إلى زميلتهم التى زعمت أن أباها قد وافاه القضاء المحتوم .

ومن العجيب حقا أن العطف والانتباه والمزايا التى تبتغيها هذه الفئة من الملفقين يمكن الحصول عليها عن طريق غير هذا يتفق والحياة فى مجتمع . ومن حسن الحظ أن هذا النوع من التلفيق لا يمكث فترة طويلة ، إذ يدرك أولئك الفتيان أن ذلك لا يجدى عليهم ولا خير فيه .

ويلجأ الطفل أبداً إلى الكذب خوفاً من العقاب . لأن العقاب إذا كان مطرداً قاسياً لا يتناسب وما يتطلبه الموقف أدى إلى اتخاذ الكذب وسيلة للوقاية ولسنا فى حاجة إلى التعليق على هذا بأكثر من القول بأن العقاب نفسه كثيراً ما لا يحقق الغرض من توقيعه . فإن كثيراً من الأطفال يندفعون إلى استخدام الكذب كسلاح غريزى لوقاية أنفسهم من أساليب التهذيب ، وخاصة إذا كان القصاص باطشاً لا عدل فيه ، أو إذا تحقق الطفل من أن الأمانة والصراحة لن تجديا عليه فى التخفيف من العقاب .

ولست أود بهذا أن أدعو إلى إلغاء العقاب إلغاء تاما إذا ذكر الطفل

الحقيقة ، بل ينبغي أن يعرف الطفل بخبرته أن قول الصدق يجدى عليه ، وأن يعرف إلى جانب ذلك أيضاً أن هناك عقاباً خاصاً يترتب على بعض الأخطاء إذا ارتكبها — وأنه لا يكفى لسداد الدين اعترافك بما استدنت .

وينبغى أن تجمع أدلة الإدانة من مصادر أخرى غير الطفل ، ولا ينبغى أن يطلب منه أداء الشهادة ضد نفسه ، لأننا إذا فعلنا هذا كان علينا أن نتوقع منه دفاعاً حاراً عن نفسه وتبريراً رائعاً لفعلته — فإذا ثبتت عليه الفعلة رغم هذا كله حنق واشتد سخطه . ويألف بعض الآباء الزج بأبنائهم إلى مواقف يضطرون فيها إلى الكذب أبداً . ولا يتنافى هذا مع الحكمة فحسب ، بل مع العدالة أيضاً ؛ ذلك لأن الطفل يشعر أنه قد أرغم على الكذب فلا تشيع بنفسه الذلة فحسب ، بل يطغى عليه السخط والحقد . فى حين أن الأفضل كثيراً أن يشعر الطفل بحرية الاختيار بين الصدق والكذب . وأن يتهيأ له من الخبرة أن الكذب على الغالب قضية خاسرة ، وأنه إن حاول اللجوء إليه أدى ذلك أبداً إلى وقوع الأذى عليه .

ويردد الآباء الذين يزعمون أنهم يحسنون العناية بأبنائهم القول « لقد ضبطناه فى صميم أكذوبته » ، أو « لقد أمسكناها متلبسة بالكذب » ، أو « نحن نعرف كيف نضيق عليه الخناق حتى يعترف بكذبه » . ويتبين من هذه العبارات أنه يجب على مثل هؤلاء الآباء أن يصرفوا وقتاً أكبر فى تنشئة أبنائهم على حسن السلوك حتى يجنبوهم الكذب ، فذلك خير من إضاعة الوقت فى التضييق عليهم وضبطهم وإثبات التهمة عليهم بعد ارتكابها .

أما أخيب طريقة فهى الالتجاء إلى العقاب أو إلى استثارة انفعالات الأطفال ، لأنه لا جدوى من ذلك ألبتة فى تنشئة الأطفال على الصدق . فإذا واجه الوالد ابنه بقوله « إنى لأعرف أنك كنت تكذبنى ، لكنى أعرف الحقيقة كاملة . فلم لا تعترف كما يفعل الرجال حتى لا تضيف الكذب إلى بقية

ما ارتكبت من ذنوب » . إذا فعل الوالد ذلك غلب أن يثور العصيان والتحدى بنفس ابنه إلى حد يتعسر معه الوصول إلى الصدق . بل الأفضل كثيراً من هذا أن يقول « إنى لأرجو يا بنى ألا تخفى عنى شيئاً قد يساعدنى على تقديم المعونة لك . وإنى لموقن أن فى ذهنك أمراً . فدعنا نتحدث فى ذلك سويا حين ترغب فى ذلك . فقد تستفيد مما عندى من خبرة » ، ولا بد من تعديل ألفاظ هذه العبارة حتى تتناسب مع سن الطفل . والمهم فى هذا ألا نلزم الطفل إلزاماً باتخاذها موضعاً لثقته وألا نطلب منه ذلك .

ويقوى ميل الطفل إلى الخداع إذا زاد قلق الآباء وهمهم من ذلك . وحاولوا التحقق من كل عبارة يذكرها الطفل وأخذوا فى التضييق عليه إلى حد لا يجد منه مفراً إلا باللجوء إلى الكذب . ومن ذلك حالة صبى فى السابعة من عمره كنا نعالجه من البوال ، فنصحنا بإقلاله من الشرب قبل ذهابه إلى الفراش . فأخذ يخدع أمه وقتاً ما بالذهاب إلى دورة المياه يتظاهر بغسل وجهه حتى تسنح له الفرصة بابتلاع القدر الذى يحاو له من الماء . وكان ينتهز كل فرصة تسنح له لخداع أمه ، ويكذبها كلما رأى فى الكذب ما ينفعه . رغم أن الأم كانت تقوم بخير ما تستطيع لتنشئة الصبى على الأمانة والاستقامة ، إلا أنها كانت تخشى أن يصبح الولد « سر أبيه » الذى كان قد هجر الأسرة قبيل مولد الصبى . ذلك الأب الذى عرف عنه انحلال الخلق وإدمان الخمر وكثرة الكذب وشدة الخداع . بيد أن الخطر كان يتأتى من الأم التى كان يبعثها قلقها البالغ إلى تلمس الخديعة حيث لا خديعة ، وإلى سوء الظنة التى لا مبرر لها . فكانت تعمل على التحقق من كل عبارة وتحاسبه حساباً عسيراً على أتفه زيغ عن التزام جادة الصدق .

ولا ينبغى أن يشفق الآباء من عجز أبنائهم عن التزام الدقة والصدق فى سرد الوقائع . ذلك لأن الطفل يمر بفترة طويلة قبل أن يستطيع التفرقة بين الحقيقة

والخيال . هذا إلى ما يلحق ذهنه من اضطراب تبعاً لأقوال الكبار . ولأحلام اليقظة والرفاق الذين يتوهمهم الطفل فى بعض الأحايين نفع كبير له . وينبغى أن نعرف أن المنافذ التى يمكن أن تظهر منها انفعالات الطفل أقل كثيراً من الفرص التى تشبع انفعالات الكبار ، فللأطفال كثير من الآمال والرغبات والمطامح التى لا يمكن الإفصاح عنها إلا فى عالم الوهم ودنيا الأحلام . وليس لنا قبل بمنعهم من التفكير فى هذه الأمور وليس من الخير أن نفعل هذا إن استطعنا ، بل من الأفضل والأسلم عاقبة من الناحية العقلية أن نهيىء له الإفصاح عن أنفسهم .

ولا يلحق بالأطفال أى ضرر إذا أطلقنا العنان لأحلام اليقظة عندهم ، فليس فيها ما يهدد سلامة الطفل العقلية إلا إذا أصبحت غاية فى نفسها ، وأدت بالطفل بعيداً عن حقائق الحياة ، واستغرقت منه جماع نفسه ، وأغرق فى الرضا بها والإدمان عليها . ومن ثم لا ينبغى أن نضيق ذرعاً بتوهمات الأطفال ، فكثيراً ما يكون لها فى حياة الصغير معنى خاص ؛ فإذا لم يحتمل الآباء الإنصات إلى ما يبدو لهم تافهاً صغيراً يصدر عن طفل ، فإن الفرصة لن تسنح لهم بالوقوف على ما يعرض لحياته من مشكلات جدية خطيرة . ومهمة الآباء تتطلب منهم أن يقدموا العون لأبنائهم كى يستطيعوا التفرقة بين الواقع والخيال ، ويتعرفوا على الحقيقة ويدركوا قيمتها . فإذا فعل الآباء ذلك كان لهم أن يوقنوا بأن أبناءهم لن يستخدموا الكذب للتخلص من الحقيقة أو ابتغاء للسوء والشر .

الجولان[1]

ليس السعى فى الطرقات والولع بالتجوال فى ذاته مشكلة خطيرة ، فكثيراً

(١) نفضل ترجمة Truancy بالجولان وهو التطواف والتنقل، بدلا من استعمال لفظ التشرد لما فيه من معنى ينبغى أن نتورع عن نسبته إلى الأطفال قبل بلوغهم سن الرشد .

ما لا يكون سوى نتيجة لروح الترحال التى تدفع الأطفال إلى المغامرة والإقدام على كشف ما يقع بعيداً عن الحدود التى رسمت لهم . فإذا بهم سعياً وراء المناظر الجديدة والوجوه الجديدة والخبرة الجديدة يضربون فى الآفاق ، لا يحفلون بالزمن أو يدركون المسافة ، وقد أخذتهم نشوة المخاطرة . أما الأطفال الذين يقلون عن أولئك شجاعة وإقداماً . والذين لا يشوقهم كشف الغريب ، بل يخشون الوقوف على المغلق المجهول ، أولئك الأطفال لن يلجأوا إلى التطواف والجولان .

ف . . . غلام كان يجد فى الجولان متعة كثيرة ينتشى بها . وكان من العسير على أبويه ومعلميه بل أولئك الذين حاولوا علاج مشكلاته أن ينجحوا فى الحد من ولعه بالتطواف .

لم يكن قد بلغ إلا الخامسة من عمره حين أحضرته أمه إلى العيادة قائلة إن من المحال منعه عن الهرب إلا إذا أوثقت يديه وقدميه . فكثيراً ما هرب خلال العام السالف وتجول مسافات شاسعة حتى أطلق الجيران عليه اسم « الآبق » . فقد كان يشرع فى ترحاله منذ الصباح سيراً على الأقدام ، أو تعلقاً بالمركبات ، أو التماساً لنقله بالسيارات العابرة حتى يصل به المطاف إلى إحدى الضواحى والمدن القريبة ، فيسلم نفسه إلى أحد رجال الشرطة أو يذهب مباشرة إلى نقطة البوليس ويقرر أنه قد تاه ويودّ العودة إلى منزله — فكانوا يعملون فى الحال على تدبير الأمر لإرجاعه ، أو كانوا يخطرون أهله فى بعض الأحايين كى يحضروا لتسلمه ، وكانت العودة فى كل حال لا تكلفه مشقة أو تلحق به عناء .

وكان هذا الغلام طفلا حسن البنية جيد النمو ، له ابتسامة مشرقة ووجه بشوش ، يغلبه الحياء والتهيب أول الأمر لكنه إذا اطمأن أخذ يتحدث فى طلاقة عن أهله ورفاقه ، وعن مختلف الرحلات التى قام بها . وكان يذكر « العلق » التى ينزلها به أبوه عقاباً له على هربه ، لكنه — على ما يلوح — كان

يعتبر ذلك العقاب أمراً مفروغاً منه ، وأنه ليس إلا جانباً من الثمن الذى لا بد من دفعه فى سبيل مغامراته .

وفى براءة وفى لهجة لا تتناسب مع سنه ، حتى لكأنه كان يردد عبارة سمعها من قبل ، كان يقول : « إنى لمغرم بالماء والخضرة ، وإنى لأكره الطرقات الضيقة القذرة التى نعيش فيها » .

وبعد بحث الحالة وجدنا أن كافة رجال البوليس تقريباً كانوا أصدقاء لهذا الغلام . بل إن بعض من كان يعمل منهم فى أمكنة نائية عن منزل الصبى كان يذكره جيداً ، وأنهم كانوا جميعاً يعطفون عليه ؛ كما وقفنا أيضاً على أحد محاله المختارة وهو مكتب إحدى الصحف اليومية ، حيث كان أثيراً عند مخبرى الصحيفة يميلون إليه ويحبونه ويكرمون وفادته ويغمرونه بالمعونة .

وكان حيثما ذهب يجد فى الناس أصدقاء يمتع برفقتهم . وكان الناس يرون فيه شخصاً ناضجاً . وكان هو يهنأ من صلاته بهم ، وكان تقديرهم إياه يقابل ذلك العناء وتلك الكآبة التى يخلفها وراءه فى المنزل . ولم يكن من الغريب فى مثل هذه الظروف أن يزيد تطوافه . فلم يعد غيابه عن المنزل يقتصر على ساعات محدودة بل كثيراً ما كان يشرع فى تجواله ولا يعود قبل منتصف الليل ، بل إنه كان يقضى الليل فى بعض الأحايين بعيداً عن داره . وعرف القوم أمره فى الضواحى حتى لم تعد به حاجة إلى الذهاب إلى نقط البوليس ، فكانوا إذا عثروا به حجزوه أو أعادوه إلى الدار . وزادت محبة رجال البوليس له فى صعوبة المشكلة وعسرها .

ومن الواضح كل الوضوح أن مثل هذا الغلام — على تبكير نضوجه وحدة ذكائه وولعه بالاستطلاع وحبه للمغامرة — كان لا يجد فى بيئته ما يشبع ميوله . هذا إلى أن نجاح تطوافه أول الأمر أدى إلى مواصلته الشرود والتجوال . وكان لطفه وقدرته على كسب الأصدقاء والبهجة التى تفيض بها نفسه من

الأمور التى تعبد له السبيل . فلم يكن لنا فى مثل هذه الظروف أن نتوقع منه الإقلاع عن مسلكه . حتى إنه لو كان بيته أقل تنفيراً . وكانت أمه أكثر حكمة ، وكان أبوه أقل إدماناً على الخمر ، لكان من العسير أن يجد الطفل فى الحى المتواضع الذى يقيمون به ما يوازى روعة الأمكنة التى يرتادها .

والأمر الغريب هو أن عدد الطوافين من الغلمان لا يزيد عن عددهم بالفعل ، وأن كثيرين منهم يقعدون عن المغامرة سعياً وراء بيئة أكثر إشباعاً لحياتهم الانفعالية . وليس من شك أن العلة فى ذلك هو أنه إلى جانب رغبتهم فى الخبرة الجديدة يشبع بنفوسهم من الخوف والشعور بعدم الأمن ما يملؤهم خشية وإشفاقاً مما قد يحل بهم . وما أقل الصغار بل الكبار الذين يغفلون رغبتهم فى الأمن ويضحون بها سعياً وراء المغامرة والخبرة الجديدة .

ومن العسير كل العسر أن يكون فى المساكن المزدحمة الكئيبة ، التى يعوزها الهواء والشمس ، ما يعوض الهواء الطلق والسماء الصافية والفضاء الرحب الذى يستطيع الصبى أن يلتمسه فى الحدائق العامة أو بين أحضان الحقول أو على البحر ، حتى فى شوارع المدينة الكبرى ، بل ليس فى صحبة المربية أو الخادم ما يحبب الطفل النشيط المقدام إلى البقاء بين أسوار داره الكبيرة إذا كان موفور الثراء .

فإذا كان بالطفل استعداد للتجوال والكشف — أتى إليه عن طريق الوراثة أو الاكتساب — كان من اللازم أن نهيء له فى بيئته ما يجذبه إليها ، وإلا هجرها والتمس المتعة بعيداً عنها ؛ وقد لا يكون فى محيطه ما يحنقه ، وقد لا يكون بذهنه فكرة واضحة عما يسعى إليه ، لكنه فى هذا يطيع قوة خافية تدفعه إلى الإقدام والتطواف . ولست أرى حيلة فى مثل هذه الحالات إلا أن نبذل كل جهد لاجتذاب الصبى إلى الدار وإلى ما يحيط بها . وأن نستعين فى هذا بأندية الصبيان وجمعيات الشبان والملاعب وما إليها ؛ وأهم من هذا أن

يرافق الآباء فى بعض الأحايين أبناءهم حتى يرشدوا خطاهم فى المغامرات التى هم بها مولعون .

أما قصص المغامرات فإنها رغم دفعها الطفل أحياناً إلى تقليد أبطالها كثيراً ما تكون منفذاً يشبع انفعالات الطفل ويصرفه عن التطواف . وهذا النوع من الشرود الذى سبق وصفه كثيراً ما يكون إرضاء لبعض الانفعالات التى لا تخرج عن حد السواء .

لكن الأطفال يلجأون إلى التجوال فى بعض الأحايين كمهرب من بعض المواقف العسيرة . فالطفل إذا خاب فى المدرسة وعانى من هذه الخيبة ذلة ومهانة ، قد يفعل أى شىء لتجنب الذهاب إلى المدرسة ، فإن تفكيره فى تسميع درسه ، واضطراره إلى الوقوف فى الفصل لا يستطيع أن يقول كلمة أو يعترف بأنه لا يدرى شيئاً ، أو سماع المدرس يوجه إليه اللوم والتأنيب وتلاميذ الفصل يتضاحكون ساخرين — أمر فيه من الإيلام للطفل جانب أكبر كثيراً من العقاب الذى ينزل به جزاء له على هربه .

ويكون ذلك عين الموقف فى المنزل إذا توقع الطفل العقاب جزاء له على ذنب جناه . فإن خوف العقاب كثيراً ما يكون عاملا هامًّا فى دفع كثير من الأطفال إلى التجوال . إذ أن من الجلى أن العقاب إذا كان قاسياً باطشاً شديداً كان دافعاً قويًّا لإبقاء الطفل بعيداً عن الدار حيث ينتظره الجزاء .

وينبغى أن تعين للطفل الحدود التى لا ينبغى أن يتخطاها فى لعبه ، وأن تذكر له الأسباب الوجيهة التى تدعو إلى التزامه تلك الحدود . وينبغى أن نهيىء طريقة لإبقائه فى هذه الحدود كأن تلحظه أعين والديه ، أو أن تغلق الأبواب ، وما إلى ذلك حتى يبلغ السن التى يستطيع فيها أن يدرك الضرر الذى يلحق به من تخطى تلك الحدود .

فإذا بلغ من العمر مبلغاً يستطيع فيه أن يتفهم ما نلقيه من التعليمات وجب

أن يوقع به نوع من أنواع العقاب إذا عصى نواهى أبويه ، كأن يحجز وحيداً ، أو يحرم من بعض المزايا ، أو تصادر بعض لعبه ، أو يبدى له أبواه عدم الرضا عنه ، أو ما إلى ذلك من الأمور التى تثبت للطفل أن قد ترتب على عصيانه من النتائج ما يضره .

وبعد فإن مشكلة الجولان ليست مشكلة كبيرة أو خطيرة ولم نذكرها عابرين إلا كى نعطى فكرة عن أسبابها وكيف يمكن أن نتلافاها .

الفصل السابع عشر

الميول الجنسية

إن كثيراً من ضروب الصراع العقلى وأنواع الشذوذ التى نلقاها فى الكبار وفى الصغار على السواء ترجع مباشرة أو تصطبغ بالمواقف أو الخبرة السيئة فى الأمور الجنسية . وليس هناك طوال العمر من قوة فى الدنيا الحياة العقلية بأجمعها أكثر من تلك القوة إلحاحاً فى سبيل الظهور على أى شكل من الأشكال ، كما أنه ليس هناك أية قوة غيرها تلقى من عنت الجماعة والأسرة والفرد فى التضييق على حريتها وإحاطتها بالقيود قدر ماتلقى الميول الجنسية من عنت وتقييد .

ومن الأمور المعروفة التى يشيع الاعتقاد بها أن الفرد إذا ما أقبل على سن المراهقة بدأ يستشعر حياته الجنسية على منوال مفاجئ عجيب غامض . لكن خطل ذلك الرأى وبعده عن الصواب أمر يؤسف له ، وكثيراً ما يؤدى إلى نتائج لا يمكن إصلاحها . فرغم أن جانباً من التغيرات الفسيولوجية يقع فى هذا الوقت ، إلا أن القوى الجنسية الغريزية تعمل فى نفس المرء منذ الطفولة . وإن الأمر ليستغلق علينا إذا أردنا أن نقف على ألوان الخوف والشك والأخطاء والعذاب العقلى التى تنزل بالطفل خلال جهاده وحيداً لا عون له فى سبيل الوقوف على حل لموضوع الجنس . وما يحاط به من ألغاز وحيرة وتحريم .

وقد لا يكون هناك من صخرة تتحطم عليها حياة كثيرين جداً من النشء . بل كثيراً ما يلحقها التلف ، مثل صخرة الجهل فيما يتصل بالأمور الجنسية. ولسنا نستطيع أن نفى الكشف عن هذه الحقائق الحيوية — فى الوقت المناسب ، وبالأسلوب المناسب ، وبواسطة الشخص المناسب — حقه من الأهمية والخطر .

ذلك لأن هذه الغريزة التى لا تفوقها غيرها فى القوة تستلزم الإرشاد والتوجيه والكفّ ، حتى تسد حاجات الجماعة . ومن هذا تتضح الحاجة إلى استخدام الذكاء وإحسان الضبط . فهما العاملان الجليلان لاستقرار الغريزة وضبط قيادها . فإذا تساءلنا عن المصدر والوقت الذى ينبغى أن تعطى فيه تلك المعلومات اللازمة كان المصدر طبعاً هو الوالدين . أما الميعاد فخير طريقة لتحديده هو السرعة التى ينمو بها الطفل . ولعلنا نتفق جميعاً على أنه ينبغى أن يكون ذلك قبل أن يحل بالصغير عقاب الطبيعة والمجتمع عقب إسرافه وعبثه الجهول . ولا يمكن أن يعارض أحد فى أنه ينبغى إعطاء تلك المعلومات قبل أن تؤدى الأساليب الشاذة لإشباع هذه الغريزة إلى تكوين عادات تتلف قوة الطفل المعنوية بما تتركه فى نفسه من شعور بالحقارة والقصور . لم لا نستبق ذلك بالمعارف الجنسية ندلى بها إليه وبهذا نقضى على كثير من الأفكار المشوهة التى يتخذها الأطفال حالما يقبلون على حياة الجماعة ؟ لاشك فى أن أبناءنا سوف يظفرون عاجلا بما يودون من المعلومات . ولاشك كذلك فى أن هذه المعلومات إذا جاءتهم من أترابهم كانت معلومات شائهة بعيدة عن الصحة والصواب .

ولن يجنى الآباء شيئاً من إخفاء الحقائق : إلا أن يبقوا الصغير جاهلا بجانب من الأمر . بل هم سوف يقفون يوماً على أنه قد التمس ما يريد من معرفة وأنه قد وقف على ما ينبغى فوصلت إليه المعلومات فى عبارات سوقية لا تهذيب فيها . هذا إلى أن تحريم الحديث عن الأمور الجنسية فى محضر الطفل يفسر ما يبدو من فضول وحب استطلاع لهذا الموضوع فى كثير من الأطفال منذ سن مبكرة . وكثيراً ما تقابل رغبة الطفل الطبيعية فى تفهم هذا الأمر — كتفهمه أى أمر آخر — بتحفظ شديد . أو باستبعاد ونبذ عنيف ، أو بجواب كاذب من الآباء الذين يفيضون رعاية وحكمة فى كل النواحى الأخرى . لهذا لم يكن من الغريب أن يعرف الطفل سريعاً كيف يبقى لنفسه تلك المعلومات التى وصل

إليها ببحوثه الخاصة ، أو التى وقف عليها من أحد أصحابه الذين تفتحت عيونهم ، وسرعان ما يستحى الطفل من حياته الجنسية قدر استحياء أهله أنفسهم منها .

ومن اليسير أن يشعر الطفل بالحرج الذى يجثم على الكبار حين يواجههم بأسئلته التى تمتلىء شغفاً ورغبة. كما يدرك الأطفال تماماً ما يعلو آباءهم من حمرة الخجل ومن الحرج والحياء حتى لكأنهم قد ضبطوا فى موقف مريب. ولا ينخدع الأطفال ، زمناً طويلا ، على الأقل بما يسمعون من إجابات كاذبة يقصد بها الهرب والتملص . بل إن من الطريف حقا أن هناك فئة من الأطفال الذين يجدون جانباً ليس يسيراً من المتعة فى إحراج آبائهم حين يسألون عن المسائل الجنسية ، وهم ينتهزون كل فرصة لإلقاء الأسئلة المحرجة فى أقل الظروف مناسبة لها وأدعى إلى الحرج . وكلما ازداد الاضطراب الذى ينتج عن أسئلتهم وعظم ، ازداد استمتاعهم بالموقف الذى خلقوه . على أنه من عثار الجد بكثرة الأطفال أنهم يشاطرون آباءهم فى الحرج والاضطراب . وأنهم يشعرون هم أيضاً بالضيق والاستحياء كلما عرض ذلك الموضوع إذ يحس الطفل أنه قد ارتكب إثماً ، لكنه لا يستطيع تفهم حقيقته . وهو يعرف على الأقل أنه قد سبب موقفاً محيراً شديد السخف لنفسه ولأهله معاً ، فهو لهذا يعتزم أن يتجنب العمل على تكرار مثل هذا الموقف . غير أن هذا العزم لا يحل له المشكلة بل يزيد عجبه وحبه إلى الاستطلاع . ويبعث فيه شعوراً غامضاً بأن فى الأمر شيئاً يبعد عن الصواب والحسن ويدفعه إلى العزم على الوقوف على تفاصيله وكنهه . وهو لا يستطيع إغفال ذلك الموضوع ، لأنه يراود عقله حيناً بعد حين ، وهو يمنعه عن تركيز ذهنه ، وهو يغرق كثيراً فى عالم الخيال ، والهم مقيم فى نفسه لا يستطيع له تعليلا . وهو مشوق إلى تقبل كل المعلومات عن هذا الموضوع المحير الملغز حيثما واتته الفرصة ووقتما سنحت . لكنه يعرف أنه لا يجدر به أن يلتمس ما يبغى من معرفة عنه فى المنزل لأنه ما زال يذكر جيداً آخر خبرته به ؛ وهكذا يفقد الأب أو

الأم فرصة سانحة عجيبة — لإسداء إحدى الخدمات الجليلة للطفل — كانت تهيىء لهما أن يقدما له ما يعرفان من الحقائق الواضحة الطاهرة الصحيحة عن أكبر القوى سيطرة على الشخصية بأكملها . وعن إحدى المشكلات الجليلة التى قد تعرض له يوماً وليس بها معرفة ولا له بإزائها سلاح أو عدة . وهو فى جهله يبقى أعزل السلاح فى مواجهة كثير من المواقف وأشكال الخبرة التى قد تكون منه على كثب قريب .

فلا يدور بأذهانكم ألبتة إذا انقطع الطفل عن التساؤل أن اهتمامه قد انقضى وأن عجبه واستطلاعه قد أشبع ، فإن ذلك بعيد عن الصواب . بل إن كلا منكم والداً أو والدة يكون عند ذلك قد أخفق . ويكون الخوف أو الكبرياء الزائفة أو أنواع الصراع الجنسية فى نفسه قد منعته عن القيام بما عليه من واجب : إذ يكون الصغير قد وجد دون شك مصدراً خصباً للمعلومات الخاطئة عند أحد أصحابه ، حيث لا يظفر فحسب ببعض الحقائق البسيطة عن الحياة . بل يقف أيضاً على مجموعة من الألفاظ البذيئة والمناظر الوهمية والأقاصيص الشائنة ، إلى جانب شروعه فى العمليات الذهنية الخاصة بالأمور الجنسية .

وقد كان الصغير يلح فى السعى ويستخدم كل وسيلة يصل إليها للوقوف على إجابة السؤال التالى « ما هى الحياة » . ولو أنا رأينا إلى قلة الحقائق التى نعرفها عن الميول الجنسية فى الواقع ، لبدا لنا أنه ينبغى أن ندلى إليه بما نعرف إذا ما تهيأ هو لذلك .

ولو أن الآباء استطاعوا أن يقابلوا أسئلة أبنائهم بإجابات واضحة صريحة تناسب عقلية الطفل ومقدار نضوجه ، وترضى شوقه وتشبع اهتمامه لوقته ، بدلا من زيادة توكيد المسألة « بإسكات الطفل » والقول له بأنه من « العيب » أن يتحدث عن مثل هذه الأمور . لو أن الآباء استطاعوا ذلك فما أكثر العناء والألم الذى يستطيعون أن يجنبوا أبناءهم إياه .

والحالة التالية تمثل التوفيق فى استخدام الصراحة فى الإدلاء إلى الطفل بالمعارف الجنسية منذ سن مبكرة وفى توقع المعلومات الخاطئة التى تأتيه من أترابه .

ر . . . بنت صغيرة خارقة الذكاء تبلغ السادسة وثمانية أشهر . تسبق عمرها بما تعرف عن الأمور الجنسية ولديها أفكار واضحة جدا عنها . حينما شرعت بإلقاء الأسئلة عن الجنس كانت أمها قد تتبعت عدة دراسات عن الأطفال ، وكانت قد تهيأت للتحدث عن الموضوع مع صغيرتها فى صراحة وبلاء . أخبرتها أمها عن ولادة الصغار ، لكن الطفلة لم تقنع بالشرح اليسير بأن الطفل يتكون فى جسم أمه وسرعان ما رغبت فى معرفة كيفية نمو الجنين داخل الأم وكيفية خروجه منها . فقيل لها بأن الطبيب أقبل للمعونة على إخراج الجنين . وفى فراشها يوماً نادت أمها كى تسر إليها أمراً ، وحين انحنت أمها عليها همست الصغيرة فى أذنها « ما الفرق بين الأولاد والبنات؟ » ، فأخذت الأم حقا غير أنها أخفت دهشتها وقالت فى هدوء « كل الفرق هو فى أعضائهم التناسلية » ، فأغرقت البنت فى الضحك قائلة « كنت أعرف ذلك على كل حال ، لكننى وددت أن أسمع إلى ما قد تقولينه » ؛ ثم سردت لأمها أنها قد رأت ولداً صغيراً ، بينما كانوا فى الريف خلال الصيف السابق ، وأنها قد لاحظت هذا الفرق .

ووصل إلى أسماعها مرة أخرى حديث أبويها عن « ختان » أخيها الصغير فرنت إليهما باسمة ، وقالت وهى تلعب إنها تعرف ما يتحدثان عنه . وحين سئلت عما تعنى ، أجابت قائلة « أعرف ماذا يفعلون للصبيان الصغار . وهم يفعلون ذلك حفظاً لصحتهم وأعرف أن ليس من بأس فى الحديث عن ذلك ، أليس كذلك يا أماه ؟ » . وهى تتحدث وأمها بحرية عن كل ما تلاحظه من الأمور الجنسية . وكثيراً ما تصعق الجدة وترى أن هذا لا يليق فى تربية الأطفال . لكن الأم تحس بأن أية محاولة لخداع الطفلة تؤدى إلى أسوأ

النتائج ، لأن الواقع أن الطفلة قبل أن تقف على حقيقة الولادة كانت قد سمعت قصة البجعة[١] المألوفة ، فلما وقفت على الحقيقة قالت « لكنكم ألفتم أن تكذبوا علىّ ، أليس كذلك ؟ فقد أخبرتمونى بأن البجعة قد أحضرته لكنى أعرف أن ذلك لم يكن صحيحاً » . ها نحن بصدد طفلة واعية ذكية ، لها من النشاط والتلقائية ما يبعثها إلى الوقوف على حقائق الحياة ، ويدفعها يقيناً إلى تلمس تلك الحقائق هنا وهناك . ومن البين أنها لا تشعر بالحرج فى التحدث حديثاً صريحاً عن هذه الأمور مع أمها .

وهناك جانب من الخطر عند المبالغة فى إيقاف الطفل على هذه الأمور ، لأنه لا يستطيع أن يفهم منها إلا ما يتناسب مع سنه ، فليس من الحكمة أن نلقى إليه بحشد من التفاصيل يفوق إدراكه بكثير . فلنسايره فى تأنٍ وصراحة ، ومن حين إلى حين كلما صدرت الأسئلة فلنقابلها فى تدبر وروية . ولا ينبغى أن نلجأ إلى « أقاصيص الطيور » أو « حقائب الحكيمات » إذا أقبل على الأسرة مولود جديد ، لأن فى هذا إهانة لعقلية الطفل . بل ينبغى بدلا من ذلك أن نخبر الطفل مقدماً ، أن سوف يكون له عن قريب أخ أو أخت صغيرة ، حتى يشاطرنا متعة الترقب والانتظار . فقصة الطائر أشد إلغازاً للطفل من إخباره بأن الجنين يعيش وينمو فى بطن أمه ، وأن الوالد قد وضع البذرة ، وأنها بقيت وقت الحمل فى دفء تغذيها الأم . ومساهمة الوالد فى تكوين الجنين أمر له أهميته عند الأطفال . هكذا يمكن أن يتقبل الصغار مثل هذه الحقائق البسيطة شيئاً فشيئاً فى يسر وسهولة .

ومن أشد ما يعوق المبادرة بتعليم المسائل الجنسية ، موقف المجتمع عامة بصدد هذه الأمور ، فقد يعنى الآباء بذلك خير عناية ، وقد يبذلون خير

---

(١) يقابل ذلك عندنا فى الشرق قولنا للطفل إذا سأل عن مكان مجيء الوليد أن نجيبه : « بأنا قد وجدناه عند باب الجامع » .

الجهود فى إعطاء الطفل ما ينبغى من المعلومات السوية السليمة ، ويلتزمون معه الصراحة لا تبدو عليهم فى ذلك حيرة أو حرج ، لكنهم مع هذا إذا زل لسانهم أمام الناس لاح على هؤلاء الهول فأتلف كثيراً مما أحسن الآباء غرسه وتنشئته .

مثلُ ذلك حالة صغير فى السادسة رزقت أمه حديثاً بأخت صغيرة له . وكان أبواه قد أنبآه بالأمر فشاطرهما فى الاستعداد له ، وتطلع إلى الحادث فى بهجة وحبور . وكانت لديه فكرة واضحة — على بساطتها — عن كيفية مجىء الأطفال ، ولم يكن يحس بصددها ألبتة شيئاً من الحياء أو الخجل . وبينما كان يوماً فى الشرفة مع أمه وعدة من صديقاتها ، قال فى جلاء مشيراً إلى إحدى السيدات « أماه ألا تظنين أن تلك السيدة سوف تلد قريباً هى الأخرى ، قريباً جدا ؟ » فبدا من الجماعة ضيق واستنكار واضح . فكان فى هذا للولد الصغير موقف من أشد المواقف ضيقاً وإيلاماً له ، بعث فيه الاستحياء والريبة بإزاء الأغراب عنه . ولازمه هذا وقتاً ما عقب ذلك .

يمكن أن يتعلم الطفل أنه لا ينبغى الحديث عن هذه الأمور إلا مع أبيه وأمه على حدة ، شأنها فى ذلك شأن كثير من الموضوعات التى لا ينبغى الحديث عنها على ملأ . غير أن هناك خطراً رغم هذا فى أن يربط الطفل كل الأمور الجنسية بالأمور المحرمة ، إذا لم يكن لديه ما يكفى من الأسباب الصحيحة لعدم التحدث عنها فى حرية وطلاقة . فيجب أن نمتنع بتاتاً عن إخبار الطفل بأن أسئلته « سيئة » و « سخيفة » أو « مخجلة » وإذا ألقى بها فى أوقات محرجة فلتخبره فى هدوء — دون أن يبدو عليك أى انفعال — أنك سوف تجيبه عن كل ذلك فيما بعد ، حينما يتاح لك وقت أوسع للتحدث وإياه ولا تنس أنك قد وعدته بأمر هام جليل .

وقد ينشأ فى الصغار مبكراً شغف شديد بأبدانهم وحب لرؤية أنفسهم ورؤية غيرهم عراة . بل قد يلجأ بعضهم إلى حيل مختلفة كالاختفاء أو استراق

النظر من ثقوب المفاتيح كى يستطيعوا مشاهدة بعض أفراد الأسرة وهم يخلعون ملابسهم ، ويغلب أن يقع ذلك فى المنازل التى يبالغ فيها الآباء فى التخفى والاستحياء . وينبغى أن يؤذن للأطفال حتى سن السادسة بلبس ملابسهم وخلعها معاً وبمحضر آبائهم بصرف النظر تماماً عن الجنس أو الملابس ، فليس من سبب أدعى بالطفل إلى الاهتمام الزائد بالعرى إلا إشعاره بأن العرى أمر مغر عجيب ، أو أن هناك سراً خفياً فى جسم الإنسان . فلا ينبغى أى يلقى الطفل العارى اهتماماً أو انتباهاً خاصاً . ومع هذا ينبغى ألا نشجعه على الاهتمام اهتماماً خاصاً ببدنه أو على توجيه انتباهه إليه .

فى صبيحة أحد الأيام بينما كانت بنت صغيرة فى الثالثة من عمرها ، قريبة عهد بالاعتماد على نفسها فى اللبس والخلع ، وجدتها أمها فى ردهة المنزل عارية تماماً ، فصعقت الأم وما كان منها إلاأن انفجرت فى الطفلة تخبرها أن ما فعلته « عيب » ، وأنه لا يليق ولا يصح ، وأنه ينبغى ألا يراها الناس ألبتة بدون ملابسها ، وأغرقت فى توبيخها حتى تأثرت الطفلة واشتد بها الأمر ، فزادت حساسيتها واستحياؤها بعد ذلك : فكانت تبكى إذا رآها عابر فى الطريق يوماً خلال النافذة وهى بقميص النوم ، ولم تعد تهنأ باللعب على الشاطئ وهى بلباس الحمام إذا تبادر إليها أن أحداً من الناس يرقبها . فكأن شعورها ببدنها ازداد بتلك المسألة وصار مثاراً للصعوبات أمامها بدلا من أن يكون أمراً لا داعى للتفكير فيه أو الجزع منه .

وأحضرت إلى العيادة بنت صغيرة أخرى لولعها برؤية الناس عراة ، إذ تعودت أن تخفى نفسها وراء السرير ، أو فى دورة المياه ، أو تنظر خلال ثقوب المفاتيح ، وأن تقوم بحيل أخرى عجيبة لمشاهدة أحد الكبار من أفراد الأسرة أثناء عريه .

وتبعاً لازدحام المساكن فى العصر الحديث وارتفاع تكاليف المعيشة ، كثيراً

ما يؤدى السكن فى « الشقق » الصغيرة بالأطفال إلى مشاهدة علاقات دقيقة قد تترك فى نفوسهم ندوباً باقية لأن عقل الطفل لا يستطيع فهم تلك العلاقات فهماً سليماً . فينبغى لعدة أسباب أن يكون للطفل غرفة منفصلة عن أبويه ، فقليلا ما نقدر أن الأطفال يشرعون منذ وقت مبكر جداً فى إدراك ما يُعمل وما يقال على محضر منهم . ولو أن ميلهم إلى الاستطلاع قد استثاره حديث غامض يعمى عليهم لانصرفوا إلى محاولة الوقوف عليه والكشف عن غوامضه ، فكثير من الأطفال يصير الواحد منهم « كالنمس » ويدعى الاستغراق فى النوم وهو فى الواقع آذان مصغية لكل حركة وعيون ترى كثيراً مما يجرى حوله . ويغلب أن يؤدى هذا إلى الإمعان والحيرة فى أمور لا يفهمها الصغير . ولا يجديه ذلك أى نفع أو يحقق أى هدف .

وإذا كان الأطفال قد سمعوا كثيراً عن الأمور الطبية أو العمليات الجراحية أو قضوا وقتاً ما فى المستشفيات وتكرر عليهم الفحص الطبى ، حاولوا فى لعبهم أن يطبقوا على بعضهم بعضاً ما قد سمعوه أو رأوه . ولو أن الآباء إذا رأوا صغارهم يفعلون ذلك انتهزوا هذه الفرصة للإلقاء بحديث طيب معقول عن بعض المشكلات الجنسية بدلا من السخط على المسألة وإيقاع العقاب السريع الصارم ، لكان ذلك أجدى على الطفل فى حاضره ومستقبله .

وكثيراً ما تذكر الأمهات أن العادة السرية بدأت فى حياة الطفل مبكرة جداً إلى حد أنهن يعجزن عن تحديد موعد ابتدائها . ومنذ قريب أخبرتنى أم طفل فى السنة الأولى من عمره أنه كان « يعبث بنفسه منذ ولادته » . وتشهد هذه الأقوال بأن الطفل يمكن أن يتهيج جنسياً ، وأنه يدرك فى حالات كثيرة أنه يستطيع استثارة أحاسيسه باللذة إذا هو عبث بأعضائه التناسلية وبالمناطق الغشائية فى بدنه . وينتج هذا الإدراك عادة من بعض المثيرات الخارجية كما قد يحصل أثناء استحمام الطفل ، أو نتيجة للالتهابات المختلفة التى تسببها القذارة ،

أو هو قد يتأتى عرضاً أثناء البحث الدقيق الذى يجريه الطفل فى بدنه ؛ لكنه كثيراً جدا ما ينتج من شدة الاستطلاع عن الأمور الجنسية الذى يدفع بكبار الأطفال إلى البحث فى صغارهم . هذا إلى أن النضوج الجنسى المبكر فى بعض الحالات يكون نتيجة للعمل عمداً على استثارته بواسطة الخدم إذا ساءت أخلاقهم .

ولست أود أن يفهم من ذلك أن العادة السرية تبدأ فى الكثرة الغالبة من الأطفال فى هذه السن المبكرة ؛ لكنها إذا بدأت فى السنوات الأولى لم تبق سوى فترة قصيرة تعود بعدها إلى الظهور فيما بين سن العاشرة والرابعة عشرة . وهى تشيع فى هذه الفترة شيوعاً قد يحتمل معه أن تكون أمراً لا يخرج بتاتاً عن السواء .

وعلى الآباء أن يذكروا أمرين جليلين فيما يتصل بموضوع الجنس . الأول هو أنه كثيراً ما يحصل منذ سن مبكرة — بل منذ الشهر الأول أحياناً — أن يدرك الأطفال أنهم يستطيعون إثارة بعض الإحساسات اللذيذة إذا هم عبثوا بأعضائهم التناسلية أو حكوها ، أو ضغطوا أفخاذهم ضغطاً شديداً أو ركبوا حواجز السلالم أو أذرعة الكراسى أو جلسوا على قدم الأشخاص ، أو بطرق أخرى كثيرة عرفوها صدفة أو أرشدهم إليها من هو أكبر منهم من الأطفال أو الخدم والمرضعات الذين لا يراعون خلقاً أو ذمة . والأمر الثانى هو أن هذه المرحلة المبكرة لما يمكن أن يسمى بالإدراك الجنسى هى فترة عابرة لا تبقى إلا إذا سبب بقاءها الآباء إذا أساءوا التصرف بشأنها ، وأن هذه الفترة لا ينبغى أن تلعب فى حياة الطفل دوراً أكثر مما تلعبه مرحلة البوال . ذلك لأن صغار الأطفال لا يعرفون ألبتة أنهم يرتكبون إثماً إذا مارسوا العادة السرية ، لهذا ينبغى أن نتجنب إخجالهم منها أو عقابهم عليها . إذ أن هذه الطرق كثيراً ما تؤدى إلى الشعور بالذنب وإلى تركيز اهتمامهم حول المسألة ، ولا تجدى أى نفع لعونهم على التخلص من تلك العادة .

وحالة م . . . مَثلٌ على ذلك وهو مثل باعث على الأسى حقًّا يبين كيف تؤثر خبرة الآباء ومواقفهم الانفعالية فى علاقتهم بأبنائهم ، كما يبين أيضاً شكلا من أشكال الخطأ فى التصرف بإزاء الميول الجنسية فى مطالع الحياة . فلو أن الطفلة التى نحن بصددها كانت قد فُحصت طبيا حين بلغت منتصف العام الثانى من عمرها ، ولو أن ميولها كانت قد وجهت وجهات أخرى بدلا من ربط أيديها وإيثاق أقدامها ، لكانت عاقبة أمرها خيراً مما كانت . لعل كثيراً من الأمهات يفعلن ما فعلت أمها ، غير أن كثيرات منهن يخطئن كما أخطأت حين ظنت أنها بإحكامها ربط أيدى ابنتها وأقدامها قد استطاعت أن تحكم قياد أفكارها وتوهماتها برباط من الجهل . فلا جدوى ألبتة من هذه الطريقة ، وقد حان الحين للإقلاع عنها وإيرادها موارد النسيان . . . أوثقت الأم أيدى الصغيرة وأقدامها ، ورغم هذا استطاعت الطفلة — أو خيل للأم على الأقل أن ابنتها قد استطاعت — مواصلة تلك العادة . ولما تقدمت الطفلة فى العمر ظهرت من المشكلات الأخرى ما وجب أن تواجهه الأم ، فالصغيرة قد شرعت تسأل عن الأطفال الصغار : من أين يجيئون ومن صنعهم ؟ ولمَ كان « بابا » مختلفاً عن « ماما » ؟ لكن الأم لما مر بها من خبرة فى سابق أيامها ازدادت خشية ، وسقط فى يدها لا تدرى ماذا تفعل . فأرجأت الرد وأخبرت الطفلة أنها لم تبلغ من العمر ما يناسب الحديث عن هذه الأمور . فإذا بالصغيرة قبل أن تبلغ الخامسة قد شرعت تبدى اهتمامها بغيرها من الأطفال ، فوجدت مرة تخلع ملابسهم ، ومرة أخرى وجدت تعبث بأعضاء واحد منهم ، وكان اهتمامها بالأمور الجنسية متطرفاً مقيما . وكانت أمها قد رأت من أحداث الحياة أكثر مما كفاها . . . نشأت فى دار شاع فيها الشقاء والتعاسة بين أب سكير وأم مستهترة فعرفت من دروس الحياة ما عرفت وكانت دروساً مليئة بالألم والمرارة ، ثم تزوجت فلم تكن حياتها الزوجية خيراً من تلك ولا منجاة منها ، إذ رزقت زوجاً تجمعت فيه سوءات أبيها وأمها معاً ،

غير أن الحظ واتاها فهجرها ذلك الزوج ، ثم بنى بها بعد ذلك زوج آخر أسعدها وأنجبت منه صاحبتنا الصغيرة .

فليس من الغريب إذن ، ولدى الأم ما لديها من الذكريات الشنيعة عن الأمور الجنسية ، أن تصعق حين تشاهد صغيرتها ولما تبلغ ثمانية عشر شهراً من عمرها وقد شرعت تمارس العادة السرية بحك أعضائها وبالضغط على فخذيها .

فى أية حالة يمارس فيها الطفل تلك العادة . يجب أن يفحص فحصاً طبياً دقيقاً للوقوف على أية علة بدنية تدفع إلى ذلك مثل : الالتهاب ، أو الإمساك ، أو الديدان المعوية ، أو الالتصاقات المحلية ، أو غيرها من أشكال الشذوذ . كما ينبغى فحص البول للوقوف على ما قد يكون به من حموضة زائدة أو جراثيم قد تدل على وجود الالتهابات .

وينبغى أيضاً أن تصان الأعضاء التناسلية من تراكم أية مادة غريبة عليها . ويتطلب هذا رقابة يومية تقوم بها الأم ، فإذا كان الطفل ولداً وجب أن تنظف أعضاؤه التناسلية تنظيفاً دقيقاً بقطعة من القطن ، كما ينبغى أن تقوم الأم بمثل هذا إذا كان الطفل بنتاً ، لأن الالتهابات المحلية كثيراً ما يغلب أن تكون العلة فى نشوء العـــادة السرية فى البنات أكثر من أن تكون علة لنشوئها فى الصبيان .

وينبغى أن يتأكد الآباء من مناسبة السراويل والملابس الداخلية للطفل . لأن ضيق الملابس أو الالتهابات التى تنتج عنها مصدر لكثير من العناء للأطفال ، وهى تجذب انتباههم إلى أبدانهم .

كما ينبغى أن يعرف الآباء — ما وسعتهم المعرفة — كل شخص يتصل به الطفل ، وأن يلموا بما يدور إذا قضت فئة من الأطفال فترات طويلة فى الحديقة ، أو على السطح ، أو عند بئر السلم ، فكثيراً ما ينزلق الطفل إلى بعض الأفعال

الخبيثة بإرشاد أحد الكبار من أطفال العائلة ممن لا يمكن أن تاحقه ريبة أو يكون موضعاً لظنة . وليحاول الأب والأم أن يقفا على أفعال صغارهم ونواحى ميولهم . وليعرفا المعلمات والمعلمين ، وجيران الطفل وأصحابه وليعملا فوق كل شيء على اكتساب ثقته والاحتفاظ بها .

وكثرة أولئك الأطفال الصغار لا يبقون العادة السرية سرًّا خافياً ، بل هم يمارسونها جهرة كما قد يهرشون رؤوسهم أو يحكون أجسامهم ، فإشغالهم وصرف انتباههم فى مثل هذه الحالات يكون له من النفع أكثر مما لغيره من طرائق العلاج مثل التقييد البدنى أو الثواب والعقاب أو اللوحات التى تبين التقدم وما إلى هذا وذاك من الأساليب . فلو أن الطفل إذا شوهد يمارس تلك العادة أعطى شيئاً يثير اهتمامه ككتاب أو صور ينظر إليها ، أو كلف بمهمة خاصة يقوم بها أو ألقيت عليه قصة ، لتحول اهتمامه عن العادة ولأهملها وتناسى أمرها . وقد يلجأ بعض الأطفال إذا وضعوا فى الفراش ليلا أو عند القيلولة إلى ممارسة هذه العادة حتى يغلبهم النعاس ، فإذا كان الأمر كذلك فقد يكون من المجدى أن يُعطى الصغير دمية يحبها أو لعبة يهواها فيفرغ لها حتى ينام . فإذا بلغ الطفل الرابعة أو الخامسة وبدأ يترك القيلولة التى ألفها ولا يغلبه النعاس إلا فى مشقة وعسر ، فقد يكون من الأنفع أن لا ندعه ينام فى العصر ، وأن نرسله إلى فراشه مبكراً فى المساء بدلا من أن نتركه فيه حين لا يستطيع النوم فنهيء له بذلك الفرصة — ولا رقيب عليه — للانغماس فى هذه العادة .

ومع هذا فهناك فئة من كبار الأطفال لا تكون العادة السرية عندهم إلا عرضاً للون من ألوان الشقاء فى نفوسهم ، ولا تكون تلك العادة سوى هرب من الحياة إذا تعقدت أمامهم مشاكلها وأعوزهم فيها الرضا والإشباع .

ويمكن أن يوازن ذلك بموقف الكبير إذا التمس فى الخمر نسياناً موقوتاً لهمومه . فإذا حلت الكآبة على طفل ، أو استشعر الوحدة ، أو أنزل به عقاب

فقد يلجأ إلى تلك العادة يلتمس فيها عزاء ومواساة . وإذا كانت الحالة كذلك كنا بصدد مشكلة جديدة تماماً ، معقدة ، عسيرة كل العسر ، تتطلب البحث الدقيق فى شخصية الفرد ، ولا يجدينا فيها التعميم أى جدوى .

فعلى أولئك المسئولين عن الطفل أن يعرفوه حق المعرفة وأن يقفوا على ألوان مزاجه العابرة وأسبابها . وأن يلموا بميوله وخططه وآماله وما يبعث فى نفسه الهناءة والرضا .

وينبغى فوق كل شىء ألا يترك الآباء القلق يسيطر عليهم فيندفعوا إلى إعطاء تلك العادة أهمية ليست لها . فالواقع أن الأخطار قد تلحق صحة الطفل البدنية والعقلية من موقف الآباء أنفسهم وسوء تصرفهم ، أكثر مما تلحقها من العادة نفسها . وأهم ما ينبغى أن نذكره هو أن العادة السرية ، مثل البوال ، عادة مرذولة فى نفسها — لكن الأذى الحقيقى الذى يلحق الفرد يتأتى من موقفه العقلى إزاء المشكلة . ويكفى أن نرى إلى القلق النفسى الذى يجثم على طفلة فى الخامسة أو السادسة اتخذت العادة السرية ، إذا هددتها أمها بالعقاب الصارم وجعلتها تشعر أنها ترتكب إثماً لا يغتفر ، وأنها سوف تصبح بلهاء أو معتوهة ، أو أن كل الناس يعرفون من هيئتها ما تفعل . بينما أمها لاتفعل شيئاً لإنقاذها من العبء الذى يثقل عليها أو لعونها على حل المشكلة التى تواجهها ، تلك المشكلة التى تبدو لعقول الصغار لغزاً مغلقاً ، بل الأم بدلا من ذلك تلح فى تأكيد نفور المجتمع وتزيد فى شدة العقاب .

وهناك فئة أخرى من الحالات تعيش وليس فى الحياة ما يحيرها سوى المشكلة الجنسية ، هم أولئك الذين تعثر حظهم قبل نضجهم فدفعهم بمحض الصدفة إلى بعض أنواع الخبرة الجنسية فصاروا منذ ذلك الوقت محلا للسخرية والعار بين غيرهم من أفراد العائلة . ولا يؤدى هذا الموقف إلا إلى إيجاد الشعور بالانحطاط الذى يحرم الطفل من النظر إلى الحياة نظرة سوية سليمة . ولا يبعد أن تكون

الانفعالات التى ارتبطت بهذه الخبرات الجنسية المبكرة وأبقت عليها النصائح والإرشادات بل بالغت فيها . لا يبعد أن تكون تلك الانفعالات نفسها نواة لألوان من العلل النفسية فى الحياة المقبلة . وقد أتيحت لنا الفرص التى توفرنا فيها على أن نلاحظ وأن ندرس الأسباب والنتائج الخاصة بهذه الانحرافات الطارئة فى حياة الأطفال الجنسية ، فاستطعنا أن نقيم بعض الطرق المعقولة لعلاجها . وإنّا لنعتقد أنه يمكن علاج هذه الانحرافات علاجاً حسناً ، كثيراً ما يؤدى إلى القضاء عليها قضاء تاما ، باستخدام الوسائل السيكلوجية المألوفة ، إلا إذا زادت تمكناً من المريض أثناء العلاج حين ينتكس وتشتد انفعالاته بتدخل أحد من الناس الذين يسيئون التصرف مع حسن نياتهم .

وإذا لم ير الآباء أن الميول الجنسية ليست سوى الأفعال التناسلية المعروفة مثل العادة السرية أو الميل إلى الجماع أو الانحرافات وغير ذلك من الطرق الموضوعية التى تثير إحساسات لذيذة خلا أعضاء التناسل ، عجزوا بذلك عن الوقوف على كثير من أشكال النمو التى تتصل مباشرة بحياة الطفل الجنسية ، ومن ثمّ تضيع منهم كثير من الفرص التى يستطيعون فيها أن يعينوا الطفل على معرفة ما يتصل بهذه المسألة الهامة .

ولا يرى الطفل عادة للمسائل الجنسية من الأهمية أكثر مما يراه لها أبواه ، غير أنهما لسوء الحظ يصبغان كثيراً من خبرات الطفل بصبغة جنسية ، فيبث ذلك فيهما الخوف والغضب والعار وغير ذلك من الانفعالات المكروهة . وأولئك الآباء يخلعون هذه الانفعالات على الطفل وبذلك يسببون له من المشكلات ما لا وجود إلا فى ثنايا عقولهم المضطربة المريضة .

والمألوف أن تمارس العادة السرية بتهييج الأعضاء التناسلية الخارجية بواسطة اليد . وكثيراً ما تتعقد العملية بأفعال أخرى يقصد منها زيادة اللذة ، وأكثر هذه الأفعال شيوعاً هو مص الأصابع وتهييج الشرج وحك الحلمات وقد يكفى

أحد هذه الأفعال لإثارة اللذة فى الطفل .

وأغلب الصغار الذين يمارسون هذه العادة ينقسمون من الناحية العلاجية إلى فئتين : ١ — أولئك الذين يستمسكون استمساكاً شديداً بهذه اللذات ، بل فى الواقع بكل اللذات الأخرى فى الحياة ، ٢ — وأولئك الذين يقلعون عنها فى شىء من اليسر . ولا يحتاج من هم فى الفئة الثانية أكثر من أن نتسامى بميولهم الجنسية نحو بعض الأشكال الحميدة ، وأن لا نهتم بالعادة المرذولة فى ذاتها بل الأنفع أن ننصرف إلى غرس اهتمام جديد أو ميل آخر . وينبغى أن تستغرق خطة العلاج لا أياماً أو أسبوعاً بل فترة تتصل عدة أسابيع ، وأن نهدئ من مخاوف الآباء وخشيتهم من نتائج العادة حتى يستطيعوا تنفيذ العلاج دون انفعال كبير لا لزوم له . وكل ما يطلب عامة فى مثل هذه الحالات هو أن نسترعى انتباه الطفل —إذا انصرف إلى ممارسة تلك الفعلة — إلى صورة أو إلى لعبة ؛ أو أن يحاول الآباء إثارة اهتمامه بما يفعلون هم ، أو باستخدام الطرق الأخرى التى تتطلب جانباً من المهارة كتوجيه انتباه الطفل إلى موقف معين ليس له سوى أهمية عابرة لكنه يكفى لجذب انتباهه عفو الساعة . وبهذا تتضاءل العادة من نفسها شيئاً فشيئاً . وهذه الحالات ليست دائماً لأطفال من الطراز الكتوم ، الذين لا يمارسون العادة السرية إلا وهم فى عزلة ، لأنهم فى سنى الطفولة الأولى لا يكونون قد بلغوا المرحلة التى يقدرون فيها نفور المجتمع منها . ويمكن أن نؤكد للآباء ، كما أسلفنا ، أن لا داعى إلى شدة خشيتهم فى هذه الأحوال إذا هم أحسنوا تدبير أمر الطفل وتصرفوا بصدد المسألة تصرفاً حكيماً عطوفاً .

وأشد المشكلات استعصاء على العلاج هى حالات أولئك الذين يمارسون العادة السرية فقط إذا استشعروا الشقاء أو الكآبة ، يلتمسون فى هذه العادة ما يخفف عنهم تخفيفاً هو فى متناول أيديهم . ويلجأ الصغار إلى مص الأصابع وخاصة بالليل كوسيلة لاجتلاب النوم ، حذوهم فى ذلك حذو كثير من كبار

الأطفال الذين يدمنون العادة السرية، ولا يكون السبب عند ذاك دافعاً جنسيًّا معيناً بل لأنه يطغى عليهم شعور عام غامض بالعناء البدنى والعقلى يمكن التخفف منه إذا استطاعوا أن يستثيروا فى أنفسهم شعوراً جنسيًّا قويًّا .

وقد وصلنا بعد خبرة واسعة إلى أن الوسائل الآلية التى تستخدم لمنع الأطفال عن هذه العادة قليلة الجدوى إن لم يكن الطفل قد بلغ عمراً يستطيع أن يقدر فيه الحكمة فى استخدام ذلك القيد ، وأن نهيئ عقله تهيئة تدفعه إلى التعاون وإيَّانا على العلاج بدلا من السخط والثورة عليه . لأن القيود إذا استعملت بالقوة أصبحت مثاراً لمعركة عنيفة بين الطفل وأبويه يجب عليهم جميعاً الخروج منها ، لأن الطفل يستمسك بتلك التعادة المرذولة رغم الوسائل الصارمة التى تصطنع للقضاء عليها .

وفيما يلى بعض الإرشادات العملية التى نشير باتباعها فى العلاج :

١ ــ علِّموا المعارف الجنسية مبكراً فى كل دقة وصراحة تتناسب مع إدراك الطفل .

٢ ــ على الآباء أن يهدئوا مخاوفهم وأن يؤمنوا بأن الخطر يحيق بصحة الطفل البدنية والعقلية نتيجة لسوء العلاج أكثر ما يحيق به من العادة نفسها .

٣ ــ أحسنوا معرفة الطفل حتى تحسنوا فهم أحوال مزاجه ، واذكروا أن العادة السرية كثيراً ما تكون وسيلة للتخفف من البؤس والشقاء .

٤ ــ اجمعوا أدق المعلومات عمن يكون الطفل على صلات وثيقة بهم .

٥ ــ ينبغى فحص الطفل فحصاً بدنيًّا دقيقاً شاملا للوقوف على أى سبب معين يثير التهيج .

٦ ــ اعملوا على نظافة أبنائكم نظافة تامة .

٧ ــ تجنبوا الإسراف فى العناق والتدليل وغير ذلك من الأفعال التى تثير ميول الطفل الجنسية .

٨ — اشغلوا الطفل حالما يستيقظ .

٩ — لا تلجأوا إلى التهديد أو العقاب أو إلى إثارة انفعالات الطفل كى يتغلب على تلك العادة .

١٠ — اذكروا أيامكم السوالف ومشكلاتكم الخاصة بصدد هذه العادة .

فى أية محاولة للقضاء على عادة مرذولة ينبغى أن نغرس عادة جديدة بدلا من تلك التى نعمل على اقتلاعها . فلا يكفى أن يحل الرضا محل السخط ، واللذة محل الألم ، والثواب محل العقاب بل ينبغى أن نرشد الطفل إلى وسيلة واضحة ملموسة للتسامى بما عنده من طاقة ، وأن نرشده إلى تلك الوسيلة على منوال يدفعه إلى استخدامها . فلا بد أن يهيئ الآباء لأبنائهم ما يثير الاهتمام والميل فإذا قاموا بذلك كانوا قد أدوا ما عليهم ، ولسوف يقوم الطفل بما عليه .

ونحن نعرض الحالة الآتية بشىء من التفصيل لأنها تبرز عدة حقائق هامة عن النمو المبكر للميول الجنسية فى الأطفال ، زادها تعقداً ارتعاشات ذات صيغة صَرَعية كانت هى الأعراض التى دفعت إلى عرض الطفل على الطبيب :

ا . . . بنت تبلغ التاسعة من العمر حولت إلى العيادة لسببين معينين : الأول ، ما كان يلحقها من الارتعاشات الهستيرية ، والثانى لميولها الجنسية التى ظهرت قبل الأوان ، وللانحرافات الجنسية التى بدأت منذ أن كانت الطفلة فيما بين الخامسة والسادسة من عمرها . وقد وجدت المعلمة فى درج الطفلة قبيل إرسالها إلى العيادة صورة فاحشة .

تبين من الفحص السيكلوجى أن عمر الطفلة العقلى يزيد على عمرها الزمنى سنة واحدة . وهى فى السنة الثالثة بالمدرسة وعملها فوق المتوسط . ترى المعلمة أن الطفلة ذكية جدا لكنها تقرر أنها تبدو فى بعض الأحيان شديدة الغباء شاردة الذهن .

ذكر الأبوان أن للطفلة عادات تنافى الخلق القويم ، وأنها لا تلتمس ألبتة

صواحبها من بين البنات بل هى أبداً فى صحبة الصبيان ، وأن لها بهم صلات سيئة . وجدت الطفلة مرة فى خلوة مع عدة صبيان من سنها فى موقف قيل عنه إنه سيئ مريب .

قيل عن أبيها إنه رجل مهذب يحترم نفسه ويبذل ما فى وسعه فى سبيل هناء عائلته . توفيت أم هذه المريضة منذ أربع سنوات وكانت مصابة بالصداع وبزيادة واضحة فى الميول الجنسية ، وانتهى أجلها فى مستشفى الأمراض العقلية . وتزوج أبو المريضة مرة ثانية ، ويلوح أن زوجة أبيها كانت شفوقة تعطف على الطفلة وتعمل على خيرها . لكنها مع ذلك لم تكن تلقى فيما يتصل بتأديب الطفلة سوى القليل من العون والتشجيع من شقيقاتها الثلاث الكبيرات المتزوجات . فلما تعسر عليها الحال اضطرت إلى الانفصال عن زوجها لا لسوء فى علاقاتها معه ، ولا لعجزها عن مواجهة المشكلات العادية فى الدار ، بل لسوء سلوك الطفلة وعدم العون الذى كانت تلقاه فى سبيل إصلاح هذا السلوك الشائن .

كانت المريضة إلى قريب تعيش فى الدار مع أبيها وزوجه وشقيقها الذى يبلغ الثالثة عشرة . قيل عنه إنه هادئ لكنه يدمن السرقة ، وقد ضبط متلبساً مرتين لكنه لم يحكم عليه . ولها ثلاث شقيقات متزوجات يواصلن التدخل فى شئون دار أبيهن على رغم زواجه ، تدخلا له فى الضرر على الغالب أكثر مما له من نفع . ذكر الوالد أن أحداً من أبنائه لم يبد منه السواء ، وأن تربيتهم كانت أبداً عسيرة مجلبة للعناء لتشردهم سوء سلوكهم وشنار سمعتهم . ولم يبد أن فى البيئة التى كانت تحيط بهم أى أمر يدعو إلى تلك الميول السيئة التى أدمنها أبناؤه .

أولعت الطفلة خلال السنوات الثلاث الماضية بالصبيان ، مع أنها كما قالت لم تستبعد البنات كرفيقات لها فى علاقاتها الجنسية . وإن المرء ليشعر من القصة أنه كان للمريضة من الأثر فى بيئتها أكثر مما كان للبيئة فيها . ذكر

الوالد أنه قد بدا على الطفلة منذ كانت فى الثالثة ميل شاذ إلى الأمور الجنسية ، وأنها كانت تدرك مشاعرها الجنسية تمام الإدراك وتعرف كيف تثيرها. وكانت بعد ذهابها إلى السينما لا تذكر سوى المناظر الشهوانية فى الفيلم وكثيراً ما تذكر عنها من المواقف ما لا أساس له . وضبطت الطفلة عدة مرات فى « بدروم » أحد المنازل الخالية عارية تمام العرى مع ثلاثة أو أربعة ممن يناهزونها سناً من الأولاد . وهى تحكى لأبيها ما جرى لا يعروها حياء أو خجل من الدور الفعال الذى كانت تقوم به فى تلك المغامرات .

فلما كانت بحضرة الطبيب كانت تجيب عن كل أسئلته فى صراحة ، بدا منها أنها بنت مبكرة النضوج تبكيراً شاذاً ، تعرف دقائق المسائل الجنسية معرفة لا يمكن الوقوف عليها إلا عن طريق الخبرة الشخصية ؛ ولم تكن تحاول أن تصغر من دورها فى هذه الخبرات الجنسية ، وكانت تتحدث عن المشكلة دون حيرة أو اضطراب فتذكر أدق التفاصيل ، وتتحدث عن أفكارها الكمينة وعن أحلامها حديثاً ممتعاً عجيباً يكشف عن كثير من الحقائق . وقدرت ما ينبغى أن تبذله من جهد كى تتغلب على الشهوات والرغبات التى كانت سبباً فى مشاكلها السالفة كما كانت تتوق أيضاً إلى اتخاذ ميول جديدة تستعيض بها عن الشهوانية . ولم تلق اللوم على أحد بل قالت إنها تتوق إلى الإقلاع عن عاداتها المرذولة حتى تخفف عن زوج أبيها التى كانت البنت تميل إليها ميلا كبيراً .

يبدو من هذه الحالة مشكلتان واضحتان تتطلبان الحل : الأولى هى الميل إلى الرعشة ، والثانية هى تنبه الميل الجنسى قبل أوانه وضروب الإثم الجنسية . وقد أثبت الفحص العقلى أن الطفلة فوق المتوسط فى الذكاء . ويمكن القول بأن ميلها إلى الإثم قد يكون فى أصله أمراً عارضاً بقى واتصل لزيادة شاذة فى الميول الجنسية . ولم تكن ظروف المنزل ظروفاً مثالية طيبة ، لكنها مع ذلك لا تكفى وحدها لتفسير غلبة الإثم على أبناء هذه العائلة . فلم يكن الأصحاب

هنا أسوأ أو أطيب منهم فى أى حى يماثله ، ولا يظهر فى عقلية الطفلة أو فى ظروف البيئة أى أمر معين نستطيع أن نعتبره العامل الذى دفع إلى ما لحق بها من عوج وشذوذ . وليس هناك ما يكشف عن مستقبل هذه الطفلة أو عن الأثر الذى سوف تتركه هذه الخبرة الجنسية الخاصة فيها وفى نمو شخصيتها .

أما الأثر الذى قد تتركه مثل هذه السلسلة من الخبرات فى تكوين خلق الطفلة وشخصيتها فهو أمر يعتمد على التخمين ، لكن العلة أو السبب الذى دعا إلى هذه الخبرة فى مثل هذه السن الفجة يمكن أن يرد إلى البيئة أو إلى الصدفة . أما أثر مثل هذه الخبرة فلسوف يعتمد على الظروف والأحوال التى تخرج عن قدرة الطفلة . لأن ذلك يعتمد على الصداقة التى تؤدى إلى حل سليم قدر اعتماد الخبرة الأولى على الصدفة العابرة التى حادت بها عن جادة الطريق القويم .

على أنا لما كنا بصدد طفلة تكاد أن تكون ممتازة الذكاء وتبين منها جانب من النضوج المبكر فيما عدا الميول الجنسية ، فقد كان ذلك أمراً باعثاً على الرجاء حقاً ، ذلك لأن الطفلة تستطيع أن تهضم تلك الأحداث السيئة وتمثلها إذا قل اهتمام أهلها بها ، كما يمكن أن تتحول إلى أحد الأغراض النافعة . لكن هذه الأحداث قد تكبت كبتاً كاملا يفقدها ماهيتها تمام الفقدان لكنها تعود إلى الظهور على شكل من الأشكال المرضية . كما كان الحال عند تلك المريضة حين بدت عليها الأعراض الهستيرية . أو قد تكبت تلك الخبرة كبتاً ناقصاً فتحاول أبداً أن تقتحم سبيلا إلى الشعور مما يؤدى إلى انحلال الشخصية الذى يبدو فى كثير من حالات الأمراض العقلية العصابية مثل الحَصَر أو النوراستينيا . أما من الناحية الفسيولوجية فليس من العسير أن ندرك أن فى مثل هذه الخبرات ما يزيد حساسية الفرد لما يتبعها من الخبرات الانفعالية ذات الطبيعة الجنسية ، مما يؤدى إلى تطرف الميول الجنسية فى الفرد تطرفاً قد يدفع إلى الدعارة . ورغم وجود هذا الدافع الجنسى الفسيولوجى الطاغى فليس من المستبعد أن ينتج

عن مثل هذه الخبرة نفور نفسى من الأمور الجنسية ، فيقوم بين القوتين عراك يؤدى إلى ضروب من الصراع تعذب الشخص وتعجزه عن الحياة حياة هانئة أو منتجة . ومن ثم كان مصير الحالة التى نحن بصددها أمراً لا يزال فى طى الغيب ، غير أن حظ الطفلة من الإصلاح عقب هذه الخبرات الجنسية يمكن أن يزيد وينجب لو أنها وضعت تحت رعاية من يستطيعون العناية بالنواحى البيولوجية والفسيولوجية لمشكلتها قدر عنايتهم بها من الناحية الخلقية . وهناك كل ما يدعو إلى اليقين بأنه يمكن أن يسدى إلى هذه الطفلة فى سن التاسعة أكثر كثيراً مما كان يمكن إسداؤه إليها لو أنها وفدت علينا بعد هذه السن بخمسة أعوام . والخلاصة أن لدينا عدة دواع ترجح الرجاء فى تقدم هذه الحالة .

أما ما كان يستطاع تجنبه من هذا العناء لو أن هذه الطفلة كانت قد تلقت ما ينبغى من المعارف الجنسية ، ولو أن العادة السرية التى بدأت فى الثالثة كان قد أحسن تدبير أمرها ، فذلك أمر يدعو إلى التساؤل . وقد حرمت الصغيرة من هذا وذاك لما كان بأمها من مرض عقلى . ولم يكن أحد فى العائلة يعرف من كان أصحابها وأين كانوا يذهبون ، إلا بعد ذهاب الزمن . ولم يَلُحْ أنه قد خطر لأحد أن البنت — وقد بدا من قبل عنها البكور فى ميولها الجنسية — لا ينبغى أن تشاهد أقاصيص السينما .

إن على الآباء تبعة جسيمة إزاء أبنائهم تتطلب منهم أن يجنبوهم تلك المهاوى التى انزلقت إلى أعماقها مثل هذه الطفلة : فهى بما لها من تراث ، ولفقدها أمها ، ولظروف الدار التى سادتها الفوضى والتعقيد والتى عاشت فيها دون معرفة أو دراية كانت فريسة للزمن أنزل بها ضربته وهى غضة الإهاب . فارعووا ولا تتركوا أبناءكم يقبلون على الحياة دون عدة يواجهون بها ما فيها من أخطار لا توجد فى الحوارى والأزقة وحدها ، بل فى خير المنازل وأرفع البيوت وأحسن المدارس . فالميل الجنسى قوة لها من السطوة والانتشار ما يدفعها إلى الظهور

فى سبل قلّ أن نرقبها أو نستريب فيها .

وإذا لم نحاول أن نواجه المشكلات التى تدور حول هذا الدافع الأساسى المكين الذى يبرز ويتميز كواحد من أهم القوى الحيوية التى لا بد لنا من تدبيرها ، ويسبب من الكوارث الاجتماعية عدداً يفوق ما يسببه أى دافع آخر ، إذا نحن لم نواجه تلك المشكلات من الناحية الموضوعية كتب علينا الإخفاق والخيبة لا محالة .

وإذا كان على الآباء أن يحصنوا أبناءهم بتعليمهم ما يناسبهم من المعارف الجنسية ، وبعونهم على مواجهة المواقف التى لا بد لهم من مواجهتها إذا ما تقدموا فى السن ، فليكن تعرضهم لهذه المشكلة تعرضاً صريحاً لا انفعال فيه حتى يتهيأ لهم بذلك أن يؤدوا للناشئ نفعاً له جدواه ، وألا يبلبلوا نفسه بما يدور فى نفوسهم هم من شك وريبة وحيرة ظاهرة . أما الوالد الذى يرى فى ظهور الدوافع والميول الجنسية عملية حيوية سوية لا بد أن تقع خلال نمو الطفل ونضوجه ، فلن تروعه تلك المآزق إذا وقعت . لكن أولئك الذين لا يرون سوى الناحية الخلقية من تلك المواقف ، فلسوف تعجزهم عن إصلاحها الذكريات التاعسة عن خبرتهم الجنسية هم أنفسهم . فنى الخبرة الماضية لكثير من الآباء والأمهات والمعلمين والمعلمات والمربيات والكبار عامة يختفى سر عجزهم عن مواجهة الجنس ومشكلاته فى جلاء وصراحة * .

(*) من الكتب الممتازة التى تتناول تلك المسائل تناولا علمياً مفصلا كتاب « التربية الجنسية » ترجمة الأستاذين رفعت رمضان ونجيب إسكندر ، دار المعارف ١٩٥٢ .

الفصل الثامن عشر

المعلم والتلميذ

ليس هناك من تبعة أكبر من تبعة المعلم فى تشكيل شخصية الطفل إلا تبعة الأبوين . فكثيراً ما يستلزم الحال من المعلم أن يكون عمله تهذيباً وإرشاداً وتربية خلقية. بل كثيراً ما تبدو المدرسة للطفل ملاذاً أميناً ، ويبدو المعلم ناصحاً عطوفاً شفيقاً . ولسنا بحاجة إلى التعمق فى دراسة علوم التربية حتى نقدر عظم المهمة التى يقوم بها المعلمون والمعلمات ، وندرك الصعاب التى يلقونها فى أداء هذه المهمة الجليلة .

على المعلم أن يواجه مشكلة التعامل مع جماعة من الأفراد يختلفون عقلية ووجداناً ونزوعاً ، وهذه كلها أمور تتحول وتتغير أبداً كتغير الحياة الإنسانية نفسها ، غير أنه ينبغى أن تمر هذه الانفعالات الإنسانيةالدائمة التغير خلال طاحون واحد ؛ لهذا يحاول المعلمون أن يستنبطوا من الأساليب ما ينفع الكثرة الغالبة ،لكنهم كثيراً ما يجدون أنه من المحال عليهم أن يسدوا حاجات بعض الأطفال الذين لا تجدى معهم التربية بطريقة « الجملة » .

وفى مهمة المعلمين ما يكفى من العناء والعسر ، لو أن الأمر اقتصر على الجانب العقلى من حياة الطفل ، لكن المعلم إذ ودّ أن يكون لتلاميذه صديقاً نصوحاً كان عليه أن يواجه فى هذا السبيل كثيراً من المشكلات الأخرى إلى جانب ما يلقاه . فهو لا يستطيع أن يهمل شأن طفل التوت حياته الانفعالية أو شاهت نتيجة لظروف بيئة تاعسة شقية، ذلك الطفل الذى قد يكون نفوره من الدراسة راجعاً إلى الخوف أو الهم والاضطراب . والمعلم يعرف بخبرته الخاصة

أن الكآبة والسخط واليأس وكثيراً من أشكال الجنوح الخطيرة لا يمكن تفهمها وإصلاح العوج فيها إلا إذا فسرت على ضوء خبرة الطفل وعلاقاته خارج المدرسة ، فتلك كلها مشكلات تكاد تكون معروفة الأسباب معرفة طيبة ، وقد لا يكون علاجها إلا مسألة تستلزم الوقت حتى نكتسب تعاون الآباء وإيانا على حلها والقضاء على أسبابها. لكن هناك غير هذا كثير من المواقف والمشكلات الغامضة الدقيقة التى يواجهها المعلم يوماً بعد يوم ، لأن كثيراً من خصائص الخلق الجديدة المحيرة تظهر حيناً بعد حين من مختلف الأفراد الذين يجمعهم الفصل الواحد ، لما به من تباين وبعد عن التجانس ؛ فهذا طفل لطيف ودود يحب التعاون ، وذاك مفعم بحب الخلف أو بشدة الحياء ، وغيرهما يواصل السعى وراء استجلاب الرضا بينما جاره لا يحفل بسخط أو ثناء . وبينا هناك فئة من الصغار إذا جعلت لها أهدافاً واصلت السعى نحو تحقيقها وتحملت المشاق حتى تصل إليها ، هناك فئة أخرى لا تود القيام إلا بما يجاب لها المتعة والرضا.

ذلك قليل من المشكلات الفردية والجمعية التى لابد للمعلم من العمل على حلها وتلك هى التبعات التى يلقيها الآباء على عواتق المعلمين . وليس من اللازم أن نلفت أنظار الناس إلى أن من يقبل هذه المهمة ويكون له من الكفاية ما يهيئه لأداء ما فيها من تبعات لابد أن يكون إنساناً متفوقاً ممتازاً من عدة وجوه . فلا يلزمه أن يجيد معرفة المادة التى يعلمها فحسب ؛ بل يلزمه أيضاً أن يحسن معرفة الأفراد الذين يعلمهم . وكما أن الطبيب لم يعد يعالج المرض بل يعالج الشخص المصاب بهذا المرض فكذلك المعلم قد صار يعنى بتعليم التلميذ لا بتعليم المادة .

ولابد للمعلم فى سبيل الإبقاء على طاقته العقلية أن يكون له من الاتزان والاستقرار ما يقيه من تداعى الأعصاب إذا وقف على بعض العبارات الشائنة التى كتبها أحد تلاميذه ، ولابد له أن يؤمن بأن السرقة والكذب والدوران فى

الطرقات وغير ذلك من ضروب السلوك التى لا يرضاها المجتمع ليست أدلة تقوم على الانحلال الخلقى ، بل هى أعراض تلحق حياة كثيرين من الأطفال خلال نموهم . لكن أهم ما يعنينا هو العوامل الكامنة عقلية كانت أو بدنية أو صادرة من البيئة ، فهذه هى العوامل التى تنتج تلك الأعراض .

وبين أيدى المعلمين فرصة لا تتاح لأصحاب أية مهنة أخرى لإنقاذ عدة أطفال من الانسياق إلى الميول المعوجة السيئة التى تتنافى وحياة المجتمع ، وكثيراً ما تدفع بهم إلى التشرد والجريمة . وقد تكون هذه مناسبة طيبة لإيضاح أهمية التعاون بين الآباء والمعلمين إذ كثيراً ما لا يكون عند الآباء ما ينبغى من اهتمام بحياة أبنائهم المدرسية ، أو قد يلوح لهم أن عندهم ما يكفى من أعباء ثقال ، أو قد يخيل إليهم أن من الفضول أن يعنوا كثيراً بحياة الطفل فى المدرسة . وهناك فئة أخرى من الآباء تسرف فى النقد وتبالغ فى مطامحها فى أبنائها ، فيثور بنفوس الآباء جانب من الحسد من تفوق أبناء الناس وتأخر أبنائهم ، فإذا بالعداء يقوم بينهم وبين المدرسة ومعلميها عداء ليس له ما يبرره فى الواقع .

وإذا أغفل المعلمون إدراك ما على كثير من الأمهات من تبعات جسام فى القيام بما تتطلبه دار بها ثلاثة أطفال أو أربعة ، إلى جانب ما عليهن أن يواجهن من مصاعب الحياة الزوجية والاقتصادية ، إذا أغفل المعلمون والمعلمات تقدير ذلك أعوزهم من العطف وثار بهم من السخط ما لا بد من انعكاسه على موقفهم بإزاء الطفل . فالواقع أن الطفل أبداً هو الذى يتحمل أكبر جانب من ضروب الصراع الانفعالية عند الكبار . ومن ثم كان لا بد لنا أن نذكر أن الطفل إذا عرف كيف يوقع بين أهله ومعلميه ، وأن يزيغ من تأديب المدرسة إلى حنان المنزل وعطفه لم يحتمل أن يسير وفق نظم الحياة المدرسية بنفس الروح التى كان يسير بها لو أنه عرف أن أهله ومعلميه على وفاق فيما يختص بالعمل فى سبيل مصلحته . ويمكن أن يكتب عن هذا مجلد بأكمله يمكن أن يلخص فى أن

تعاون الآباء والمعلمين – لا تنافسهم – إنما هو ما يؤدى إلى منفعة الطفل •

ولعل أكثر المشكلات شيوعاً وأهم ما يعنى به الأطفال والآباء والمعلمون هو مشكلة عجز الطفل عن السير فى دراسته سيراً طيباً . وكثيراً ما ينتج هذا من عجز المدرسة عن تقدير العبء العقلى الذى يستطيع الطفل أن يتحمله . ولسوف نتحدث فى الفصل الخاص بالذكاء والسلوك عن موضوع الاستعداد العقلى فى فى تفصيل وإسهاب ، لكنا نود أن نذكر هنا أن كثيراً من الأطفال فى المدارس على اختلافها يحاولون جاهدين أن يقوموا بواجبات عقلية تفوق طاقتهم وكفاياتهم ؛ والحالة الآتية تمثل تمثيلا جيداً ما نعنيه بذلك .

ر . . . صبى فى العاشرة من عمره ، كان بالسنة الثالثة فى إحدى المدارس الخاصة ، وكان مستواه ضعيفاً . لاقى أول الأمر تشجيعاً ، وتلقى دروساً خاصة ، ثم انهالت عليه السخرية والنخس لدفعه إلى الاجتهاد ورفع مستواه . واستدعيت أمه إلى المدرسة حيث أخبرتها إحدى المعلمات أن ليس للصبى عذر عن خيبته ، لأن له ذكاء حسناً . لكنه تبين بعد فحص الصبى فحصاً طبيًّا دقيقاً ، والوقوف على تاريخ حياته الصحى والنفسى ، أنه كان مصاباً برعشات . كما تبين من الفحص السيكلوجى أن ذكاء الطفل أقرب إلى الضعف ، وأنه بالنسبة لضعف قدرته العقلية كان من العجيب وصوله إلى مثل المستوى الذى وصل إليه فى المدرسة . لكن التشخيص فى هذه الحالة بالذات لم يرض أبويه . فأعاداه إلى المدرسة ، وازداد الضغط عليه حتى استيأس بعد أن تهدمت صحته . هكذا نجد أبوين كبيرى المطامح أخطأت المدرسة فى ما أسدت إليهما من مشورة ، فكان على الصبى أن يتحمل العواقب السيئة لذلك .

ومع هذا فليس كل من يخيب فى المدرسة ضعيف الذكاء . فإنه رغم جهود المعلمين وعطف الآباء لا يندر أن يؤدى العجز المتصل عن حسن السير فى الدراسة ، وما يشعر به التلميذ من ذلّة أمام إخوانه إلى حالة عقلية يستحيل معها

أى إنتاج عقلى أو توافق اجتماعى .

ج . . . فتى فى الثانية عشرة من عمره ، وفد إلىّ لما لوحظ عليه من تغير تدريجى فى موقفه إزاء أبويه وإخوته . فصار شديد العسف والفظاظة مع من يشعر أنهم يصغرونه ، شكّاء سريع التهيج إزاء أبويه . لا يطاق مع غيره من أطفال الجيران ، حتى صاروا يتجنبونه ولم تظهر هذه الخصائص المرذولة إلا منذ عامين ؛ فلما بحثنا فى البيئة عما قد يكون سبباً لسخطه وحقده على الحياة — وبخاصة إزاء أسرته — عرفنا أن العجز لازمه فى السنوات الثلاث السالفة بالمدرسة وأنه لم يكن يحصل على الدرجات المطلوبة إلا بشق النفس وبما كان يتلقى من دروس خاصة خلال العطلة الصيفية ، وما كان يقوم به من عمل عدة ساعات خارج المدرسة ، حتى استيأس منه معلموه لقلة ما وصلوا إليه رغم الجهود التى بذلوها معه فى العامين الماضيين . فصار يعتبر تلميذاً غبيا واطئ الذكاء . وكان يظنه بعضهم عنيداً ، يرجع عن تركيز جهوده وانتباهه إلى رغبته وإرادته . والحق أن ما عطل الطفل عن التوفيق فى دراسته كثرة غيابه بسبب المرض، لكنا أردنا التحقق من أن كثيراً من مرضه لم يكن مرضاً وظيفيا[1] كان ينفعه فى التخلص من المواقف العسيرة .

وكان ملخص الفحص السيكلوجى « أنه حاد البديهة ، سريع الخاطر ، ذكى ، حسن الفهم ، متفوق الذاكرة ، حسن الحكم ، نسبة ذكائه ١١٢ » مما يثبت أن عجزه المدرسي لا يحتمل أن يرجع إلى ضعف عقليته . فبيّنا للصبى أن لديه من الاستعداد الطيب ما لم يحسن استخدامه خلال العامين السالفين .

وارتاح الصبى كثيراً حين رؤى أنه من الأنفع له أن يذهب إلى مدرسة أخرى ، حيث يستطيع أن يبدأ بداءة جديدة ، ورحب بهذا الاقتراح ناظر

(١) المرض الوظيفى هو العلة التى تلحق قيام أى عضو بعمله مع عدم إصابته بأى آفة عضوية فى تكوينه . (المترجم)

المدرسة لأنه كان يشعر أن الطفل مشكلة كبيرة فى فصله. وكان من الممتع أن رأينا ارتياح الصبى حين أوضحنا له أن عجزه لم يكن راجعاً إلى نقص كامن فى عقليته ، وأن التحويل من المدرسة سوف يقع سريعاً ، وأننّا لدينا كل ما يدفع إلى انتظار النتائج الطيبة . فتخلى عن كآبته وسخطه ، وأقبل على الحياة بروح حسنة ، ولم ينقض سوى شهور حتى كان عمله فى المدرسة مقبولا دون دروس إضافية ، وبجهد أقل كثيراً من جهوده السالفة .

وينبغى أن نقدر أهمية اتخاذ المعلم موقفاً موضوعيا إزاء التلميذ ، ويوضح هذه النقطة الدكتور « برنارد حلويك » توضيحاً طبيا حين يقرر « إن أهم الشروط التى تحكم بالنجاح أو الإخفاق على العلاقة بين التلميذ والمعلم تتصل « بموضوعية » الموقف والسلوك . وكلما حكّمنا عقولنا فى علاقاتنا بالناس زاد نجاحنا فى اتخاذ هذا الموقف الموضوعى . ونقصد بهذا الموقف — فى كل بساطة — القدرة على النظر إلى الأمور كما هى فى الواقع والتصرف إزاءها على هذا الأساس . ونقيض هذا هو الميل إلى صبغ الحوادث وتشويه الأمور وفق الهوى الذى يدفعنا إلى أن نسقط على تلك الأمور مشاعرنا الخاصة » .(١)

ومن المشكلات الأخرى الخاصة بعجز الأطفال عن حسن السير فى الدراسة مشكلة الطفل الممتاز الذكاء . حُولت علينا منذ قريب صبية صغيرة تبلغ ثمانية أعوام وثلاثة أشهر لعجزها عن العمل بالفرقة الرابعة . وكان عجزها يرجع إلى عوزها إلى التركيز ، وكثرة غيابها بسبب المرض ، وإلى رغبتها الشديدة فى جذب الانتباه على أى وجه . وتبين من تاريخ الطفلة ومن الفحص السيكلوجى — الذى قرر لها عمراً عقليا يبلغ اثنتى عشرة سنة وخمسة أشهر أى نسبة ذكاء ١٥١ — أن لها استعداداً عقليا ممتازاً جدا لم تكن تستخدمه الا قليلا . ووافقت ناظرة المدرسة ، وهى سيدة راجحة العقل نافذة البصيرة ، على

(١) Joint Committee on "Methods of Preventing Delinquency." Publication No. 3, p. 6.

نصيحة الطبيب النفسانى بنقل الطفلة إلى الفرقة الخامسة بدلا من إنزالها إلى الفرقة الثالثة . وفيما يلى سطور مأخوذة من خطاب وصلنا من الناظرة : « وضعناها بالفرقة الخامسة ، فاستغرقت يومين أو ثلاثة حتى تكيف نفسها وفقاً للظروف الجديدة ، لكنها سرعان ما أدركت أنها دون بقية الفصل ، فانصرفت إلى العمل على منوال يندر من طفلة فى سنها . تبدو عليها الهناءة ، وتلوح عليها الصحة وهى تتقدم تقدماً ممتازاً » .

« والكسل » لفظ يسرف الناس فى إساءة استعماله وبخاصة حين يطبقونه على الأطفال . لأن الأطفال ليسوا كسالى بطبعهم ، وهم لا يتخذون عادات البلادة فى مطالع حياتهم . ويستخدم الآباء والمعلمون لفظ « الكسل » حين يودون أن يعبروا عن نفور الطفل من القيام بأية مهمة أو عمل يتطلب جهداً بدنياً أو عقلياً . ويدل هذا على أن بلادة الطفل أمر إرادى يعتزمه أو أنها على الأقل حالة عقلية يعتزمها أو لا يعتزمها . على أن فى تقرير هذه النتيجة التى نسرع فى الوصول إليها حيفاً كبيراً يلحق بالطفل ، إذ أن هناك عوامل كثيرة تؤدى إلى هذه الحالة العقلية التى لا يمكن أن يعد الطفل مسئولا عنها ، والتى لا يمكن القضاء عليها إلا إذا أحسنَّا دراسة الطفل وبيئته دراسة طيبة .

وهناك أساس بدنى لكثير مما يسمى بالكسل . فنحن جميعاً نعرف التراخى والبلادة التى تعترى الأطفال عند مرضهم ، كما أننَّا حين نعرف أن الطفل مريض لا ننتظر منه الخفة والنشاط ، بل نحن فى الواقع نعمل على منعه عن الحركة البدنية . لكنه كثيراً ما يمرض الأطفال دون أن يدرك أحد ذلك ، مثل ذلك أن التهابات اللوز غير الحادة قد لا تؤدى إلى ارتفاع درجة الحرارة أو إلى الألم لكنها قد تؤثر على الجهاز العصبى نتيجة للسموم التى يمتصها البدن ، فتؤثر فى استجابات الطفل لمختلف ظروف الحياة . كذلك تؤدى اضطرابات غدة أو أكثر من غدة من ذوات الإفراز الداخلى إلى تغيرات فى السلوك كثيراً ما تعتبر

كسلا وبلادة . ونقص إفراز الغدة الدرقية هو خير الأمثلة التى تبين كيف تتأثر حالة الطفل البدنية والعقلية تبعاً للتغيرات الكيماوية التى تجرى فى البدن . وقد يخطئ المعلمون حين ينسبون الكسل إلى طفل علته الغباء . فقد يواصل الطفل الغبي جهاده فى إقبال وحماسة وقتاً ما ؛ غير أن الخيبة إذا لازمته كما تلازم الكثيرين ، وإذا لم يظفر بجانب من الرضا الوجدانى الذى يتأتى عن النجاح لما واصل الاجتهاد دون أن نثبط همته أبداً ، ولأعقب ذلك استخفاف وضياع فى ميله وإقباله . وهذا هو ما ندعوه كثيراً بالكسل ، لكنه رد فعل سوى على بعض المواقف يمكن علاجه ، بل هو أمر يسير . إذ ليس هناك ما يدعو ألبتة إلى ضياع حماسة من لم يوهبوا من الذكاء حظًّا وفيراً ، إذا نحن أحسنا تقدير المصاعب التى تواجههم ، ووضعناهم حيث يستطيعون استخدام ما لهم من عقلية على خير وجوهها ، وعلى منوال تتكلل فيه جهودهم بالتوفيق والنجاح .

ولا بد أن نرى أبداً إلى انفعالات الطفل كلما حاولنا تفهم كسله وتراخيه ، ذلك لأن العوامل الانفعالية — من أنه لا يسهل تحديدها كما تحدد الأمور المادية أو الكيماوية أو العقلية — لا تقل عن هذه الأمور أهمية أو خطراً ، ولقد أشرنا فى الفصل الخاص بالقصور إلى أن هناك كثيراً من مواقف البيئة التى تؤثر فى العمليات العقلية ، فالطفل الذى يشعر بالعجز لما يلحق به من نقد متواصل أو ظلم قد يتخذ موقف البلادة أو عدم الاكتراث إزاء المنزل أو المدرسة ، إذ هو قد يقصر عدم احتفاله على البيئة التى يجيئه النقد والتأنيب منها ، ذلك لأن الأطفال يستجيبون لمختلف مظاهر المحيط الذى يعيشون فيه ، فبينا يستطيع أحد المعلمين أن يخرج خير ما فى الطفل يكون لغيره من المعلمين أثر يناقض ذلك ، يؤدى بالطفل إلى الإحجام أو الكآبة أو الكبت أو الاستخفاف .

وتبلغ أسباب الصراع العقلى من الكثرة والاختلاف حدًّا يدفعنا إلى القول

بضرورة البحث عنها عند دراسة أى طفل مشكلته الكسل .

ولن نجنى شيئاً إذا حاولنا القضاء على مشكلة الكسل فى الأطفال بالقوة والعقاب والتقريع والسخرية والتحقير . بل ينبغى على الآباء والمعامين أن يبذلوا كل جهد للوقوف على ما يدفع الطفل إلى اتخاذ موقفه السابى إزاء الحياة ، ويستلزم هذا أولا فحصاً طبياً دقيقاً ، وثانياً فحصاً سيكولوجياً ، وثالثاً بحثاً فى تاريخ حياة الطفل وردوده الانفعالية على مواقف بيئته الحالية ثم نظرته إلى المستقبل ؛ إذ كثيراً ما تؤدى الشكوك والمخاوف وتوقع حصولها فى المستقبل البعيد دوراً كبيراً فى تعيين موقف كثيرين من الأطفال الذين يخشون الإخفاق ويجزعون من الخيبة .

وهناك تلك الفئة الأخرى من الحالات التى قلما يفهمها الآباء أو المعلمون — أولئك هم الصغار الذين يسرفون فى الحركة ولا يستقرون ، حتى ليكون من المحال عليهم أن يركزوا انتباههم أو يلموا شعث جهودهم. وليس هناك من شك فى قدرة هؤلاء الأطفال العقلية ، إذ أن مما يطمئن من يهمهم أمرهم أنهم ليسوا منقوصى العقل . فلو أمكن استثارة ميل أحد هؤلاء الأطفال استثارة كافية لبدا منه على الغالب تفوق عقلى ممتاز فى بعض النواحى . وكثير من أولئك الصغار من طراز الذين تحلق أذهانهم فى عالم الأخيلة الحية الرائعة ، حتى ليكون عسيراً عليهم بل محالا فى بعض الأحايين أن يتبعوا نظام العمل المدرسى الرتيب ، فهم أولئك الحالمون الذين إذا رأوا الهدف الذى يكافحون من أجله لم يحفلوا بالوسيلة التى تؤدى بهم إليه. وهم كما قال أحد الناس « يستمدون من المتعة السلبية أكثر مما يستمدون من الجهد الفعال » . ومن ثم فليس هناك من أمل فى تصفيد هذا الطراز من الصغار بقيود الأعمال المدرسية السخيفة المملة الرتيبة ، لأنهم يعيشون فى دنيا كلها طلاقة وحرية وأوهام يحلقون فيها على أجنحة الخيال ؛ ومن هذا الطراز قد يخرج لنا نوابغ المخترعين وفحول الشعراء والفنانين ،

فمن الحتم علينا أن نلتمس فيهم كفاياتهم فإذا عثرنا عليها وجب أن نعمل على إنضاجها وتنميتها على خير الوجوه .

وقد تؤدى بعض المواقف التافهة فى حياة الطفل إلى اضطرابات انفعالية تبلغ من الأثر حداً لم نكن نتوقعه . رأينا منذ قريب تلميذة كسرت عفواً « نظارة » معلمتها . فكان تصرف المعلمة فى هذا الموقف تصرفاً خارقاً فى الشدة والصرامة ، وألقت على الطفلة خطبة طويلة عن الإهمال ، وعن تحطيم أملاك الغير ، وعن تكاليف ذلك ، وبلغ من تأثر الصغيرة أنها بقيت شهوراً طويلة تفرق وتهلع من رؤية هذه المعلمة .

وهناك طفلة أخرى بقيت مصممة ، بعد تأنيبها على تأخرها عن المدرسة ، على الاستيقاظ أسابيع فى الساعة الخامسة صباحاً تقلق راحة كل من فى البيت استعداداً للذهاب المبكر إلى المدرسة ، وكانت خلال ذلك تعيش فى فزع مقيم من التأخر عن الميعاد .

كما عرضت علينا فتاة فى إحدى المدارس الثانوية خارقة الذكاء ، كانت على الدوام فى طليعة فرقتها ، لكن المنافسة اشتدت بينها وبين أترابها فى السنة النهائية حتى خشيت فقدان تفوقها الذى ألفت أبداً أن يكون أمراً واقعاً . فكان تصرفها فى هذا الموقف تصرفاً ناجعاً عجيباً . إذ فقدت صوتها ثلاثة عشر شهراً *. ذلك لأن فقدان صوتها أعفاها من ضرورة المنافسة، وكان لها ذريعة للإخفاق والخيبة ، فتركت غيرها يتفوقن عليها ، ورضيت مركزاً وسطاً فى الفرقة ثم انقطعت عن الدراسة آخر الأمر ، ومن الممتع حقاً أن علاجها لم يستغرق سوى أربعين دقيقة عند زيارتها الأولى للطبيب النفسى .

وليست هذه سوى بعض المواقف الانفعالية التى تظهر أبداً فى المدرسة ، وهى فى الواقع خليقة بالحصول فى أية بيئة إذا اشتدت الظروف وكثر الجهد والتوتر .

(*) حدث ذلك طبعاً بتأثير اللاشعور دون إدراك أو عمد من الفتاة .

وقليل منا من يقدر مدى الصراع العقلى الذى يعتمل فى عقول الكثيرين من هؤلاء الأطفال ، وما أكثر ما تتعقد وتلتوى نظراتهم إلى مشكلات الحياة اليومية التى تواجههم يوماً بعد يوم . ومن المؤسف حقاً ، أنا فى عجلة أعبائنا الخاصة وصخبها لا نسدى إليهم من العون إلا القليل . بل إنا كثيراً ما نرتكب فى ذلك أخطاء خطيرة ، رغم ما يكون عندنا من حسن النية والمقاصد ؛ غير أنه يمكن إسداء كثير من الخير وتجنب كثير من الشر لو أن المعلمين أيقنوا بأن لحياة الطفل الانفعالية من الأهمية قدر ما لحياته العقلية ، وأن ليس للاستعداد العقلى الجيد من القيمة سوى جانب يسير إذا أعجزت الشخص مشاعره بالقصور ، والغيرة والخوف أو إذا هو امتلأ حقداً وتبجحاً إزاء من يتصل بهم .

فإذا أراد المعلم أن يؤدى خير ما عليه لزمه أن يعرف التلميذ ، لا أن يقف قدرته العقلية فحسب بل أن يعرف حياته الغريزية والانفعالية ، وأن يدرك أفراحه وأتراحه ، وأن يبذل جهده للوقوف على القوى التى تعرقل الطفل وتكفه ، وعلى الوسائل التى يمكن أن تبعثه على بذل خير الجهود والتوفر على الإنتاج وينبغى ألا يرى الطفل فى المعلم حاكماً بأمره ، بل ناصحاً مشيراً يلجأ إليه فى أوقات الضيق ؛ ذلك هو المعلم الذى تبقى ذكراه فى عقول الناس ، وأولئك هم المعلمون الذين يأتى منهم الوحى الذى يخرج للعالم زعماء الناس .

الفصل التاسع عشر

الذكاء والسلوك

الذهن نتاج للبيئة والقدرة الموروثة معاً . وتعرف الاختبارات التى يقصد منها قياس القدرة الموروثة باسم « مقاييس الذكاء »، والاختبارات التى يقصد منها الوقوف على ما قد اكتسب من البيئة باسم « مقاييس التحصيل » . لكن عالم النفس كثيراً ما يكتفى بتاريخ الطفل المدرسى ، بدلا من القيام بقياس ما حصله ، كى يقصر جهوده على دراسة « الذكاء » .

ومع هذا فإن قياس الذكاء الفطرى غاية مثالية قد نقرب منها لكننا لا نصل إليها ألبتة، ذلك لأن الذكاء الفطرى الخالص سر مغلق . إذ تقوم صلاتنا بالطفل أثناء نموه كلما بدا ذكاؤه فى الحديث والأفعال . غير أن هذه الأشياء أمور مكتسبة ؛ وهنا يعنّ لنا أن نتساءل أى قدر من نتيجة القياس يمثل لنا مواهب الطفل الفطرية ، وأى قدر يعود إلى بيئته الخاصة ؟ والسؤال على هذا لا تمكن الإجابة عنه ، غير أنه إذا وضع فى عبارة أخرى أمكن أن نهتدى إلى حله حلا عملياً . فإذا كان كافة الأطفال فى سن معينة يتقاربون من حيث البيئة التى يعيشون فيها كان لا بد من إرجاع الاختلافات التى تظهر فى استجاباتهم إلى اختلافهم فى المواهب الفطرية . وعلى هذا نحاول أن نضع مقاييس الذكاء على منوال لا يتعرض إلا لفرص التعلم التى تعرض للطفل المتوسط. وعند تفسير النتائج نحاول أن ندخل فى حسابنا عوامل البيئة التى قد تختلف عن المتوسط ، وخاصة أى عامل يكون قد نزل بها عن المستوى العادى المناسب .

ومن ناحية أخرى تختلف عن هذه قليلا ، يمكن أن يقال إنا لا نود فى الواقع أن نفصل ما هو فطرى عما هو مكتسب فى الحياة العقلية . ويمكن أن يقال إن الذكاء فى صميمه هو القدرة على الاستجابة استجابة موفقة للبيئة ، ويتضمن هذا : القدرة على التعلم ، والانتفاع بالخبرة ، وكسب أنواع المهارة ، وجمع المعلومات ؛ وتنظيم ذلك كله فى أشكال نافعة وحلقات متناسقة تجدى فى التفكير والسلوك . على أن هذا الأسلوب من القدرة لا يمكن الوقوف عليه إلا بما يظهر منه فى الأفعال المختلفة ، ومن ثم لا تكون التفرقة العملية بين ما هو فطرى وما هو مكتسب ، بل بين ما هو مكتسب نتيجة للمبادأة[1] وما هو مكتسب نتيجة للقصد والتعلم ، وهذا النوع الأخير هو ميدان « مقاييس التحصيل » بينما تنصب « مقاييس الذكاء » على النوع الأول . ومن الواضح أن الفرق فى الواقع إنما هو مسألة اعتبارية تقوم على ما نوجه إليه النظر ، فإن الموازنة بين المقاييس المستعملة تبين كثيراً من التشابه والتداخل بينها .

ولا يتكون مقياس الذكاء من أسئلة يجب على أى طفل بعينه أن يجيب عنها إجابة صحيحة ، بل هو على النقيض من ذلك يتكون من أمور وجد عن طريق الملاحظة العلمية ، أن الأطفال الذين يقربونه فى السن يستطيعون القيام بها ، ويميلون إلى ذلك . فلقد وجد مثلا نتيجة للتجارب التى أجريت أن كثرة الأطفال فى حوالى سن الثالثة يسرهم أن يذكروا أسماء والديهم ، وأنهم قبل ذلك بقليل لا يعرفون تلك الأسماء ، وأن هذه الأسماء بعد ذلك بقليل لا تكون أمراً طريفاً عندهم. فإذا ما تقدموا قليلا فى العمر استطاعوا أن يعدوا الأشياء ، ويرسموا مربعات ومستطيلات ، ويعرفوا أسماء الألوان ، وما إلى ذلك ، وبعد هذا يستطيعون فك النقود ، وتكوين الجمل ، وسرد الألفاظ المسجوعة ،

---

(١) Initiative وهى كلمة مشتقة من اللفظ اللاتينى Initiare أى بدأ ، فالمبادأة هى المبادرة بعمل جديد فى أصالة وابتكار . وقد ورد بادأه بالعدوان أى سبقه إليه .

والقراءة الجهرية وهكذا . فالاختبارات تعمل على قياس ما يصل إليه الأطفال فى كل سن معينة ، وإذا قلنا إن هذه الاختبارات قد تم تقنينها قصدنا بذلك أنها كثيراً ما أجريت على مئات من مختلف الأطفال على الاستجابات التى يجب أن نتوقعها منهم فى الأعمار المختلفة .

وإذا أردنا القيام بقياس جيد وجب أن نستخدم عدداً كبيراً من الاختبارات التى يختلف بعضها عن بعض ما أمكن الاختلاف ، لأن الأطفال يتباينون بعضهم عن بعض ، فينبغى أن نهيئ لكل منهم فرصة لإظهار قدرته على كل الوجوه التى يمكن أن تظهر فيها. ونحن نعنى على الأخص باستخدام الاختبارات غير اللفظية ، أى الاختبارات العملية قدر عنايتنا باستخدام الاختبارات غير اللفظية حتى نهيئ للطفل فرصة للفعل كما نهيئ له فرصة للقول ، واللغة هى خير أداة للحياة الاجتماعية والتفكير ، وإذا كان بعض الأطفال يسرعون فى تعلم ركوب الدراجات ، فبعض الأطفال يبكرون فى تعلم الكلام كأداة يسرهم استخدامها واللعب بها ، ومن العجز أن يبطئ نمو الطفل فى ميدان اللغة كما أن من العجز ألا يتقن السير على قدميه . غير أن الطفل العاجز فى حركاته قد يتقن القيام بأمور خاصة لا يتقنها الطفل العيي الذى قد يتفوق فى التفكير . وهناك من الأطفال إلى جانب أولئك أيضاً فئة أخرى نطلق عليها اسم « اللفظيين » ، وهم الذين يجيدون استعمال الكلام لكنهم قد لا يجيدون فعل الأشياء .

ومما يدعو إلى إجراء عدة اختبارات مختلفة على الطفل ، أن النمو العقلى لا يسير سيراً متناسقاً ، إذ قد يتقدم منه جانب بينما يتخلف جانب آخر ،وقد تتغير الصورة من حين إلى حين تبعاً لاختلاف التقدم فى نواح متباينة أو قد تبقى واحدة فى شكلها العام فى كل مراحل النمو . فإذا اختلف تناسقها قلنا إن الطفل قدرة فى ناحية معينة أو به عجزاً خاصاً ، وعلى هذا يعمل الفاحص بصفة عامة على

أن يستكشف عقل الأطفال نازلا حتى يصل إلى المستوى الذى ينجح الطفل عنده فى كل اختبار ، وصاعداً حتى المستوى الذى يعجز الطفل عنده فى كل اختبار . وعند تفسير النتيجة ينبغى اعتبار كافة الاختلافات التى ظهرت .

وسواء أكنا نعرض لطفل واحد أم لعدة أطفال فإنا نجد أنفسنا ملزمين بالتسليم مع « بينيه[١] » فى المبدأ الذى ألح فى الدعوة إليه منذ وقت بعيد : وهو أن أى اختبار معين لا يبلغ من الأهمية قدر ما يبلغه استخدام عدة اختبارات متنوعة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

ولقد وصلنا اليوم إلى تقنين كثير من الاختبارات حتى لم يعد من الحتم أن نلتزم طريقة جامدة . وعلى ذلك يستطيع الفاحص أن ينوع الاختبارات التى يستخدمها ، ويغير الترتيب الذى تعطى به وفقاً للحالة . وتبدو تلك الاختبارات للطفل لا على أنها « امتحانات » ، بل ألعاب وألغاز يختلط فيها السهل بالصعب اختلاطاً يدفعه إلى الإقبال على العمل إقبالا يظهر فيه أعلى مستوى لكفايته. فيقوم بتلك الاختبارات كما لو أنه كان أمام مشكلات حقيقية يرضيه فيها ما يوفق إليه من سداد ونجاح . وإنا لنذكر بهذا الصدد صبياً رفع رأسه إلينا خلال اختباره منذ أيام قائلا « هل استمتعت أختى (وكانت قد أجريت عليها الاختبارات من قبل) قدر ما أستمتع ؟ » ولم يكن هذا الطفل استثناء فمن المألوف أن يسألنا الأطفال عند صرفهم أن نعطيهم « ألعاباً أخرى » .

(١) هو العالم الفرنسى ألفرد بينيه(A Binet) الذى كان مقياس الذكاء الذى نشره فى سنة ١٩٠٥ فاتحة لذيوع العمل ونجاحه فى هذه الناحية من علم النفس ، حتى انتشرت وطبقت فى التعليم والصناعة والتشريع . ونتائج البحوث التى يقوم بها النفسانيون فى هذه الناحية يمكن أن تعتبر أبعد أقوالهم عن التجريح لأنهم يصطنعون فيها أصول المنهج العلمى ويعتمدون على الإحصاء والتجريب . وقد اشتغل الأستاذ إسماعيل القبانى بك وبعض تلاميذه بهذه الناحية فى مصر منذ ما يقرب من عشرين عاماً ، ووصل إلى تقنين كثير من المقاييس ونشرها وعمل على الدعوة إلى تطبيقها والإفادة منها .

(انظر كتاب إسماعيل القبانى : قياس الذكاء . المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٣٨) .

وتقع نتائج الاختبار من وجهة نظر عالم النفس تحت عنوانين : أولهما وأكثرهما وضوحاً هو النتائج العددية كالعمر العقلى ونسبة الذكاء وما إلى ذلك . ولعل نسبة الذكاء من بين كل النتائج العددية هى أكثرها شيوعاً وأكثرها تعرضاً للخطأ فى فهمها فهماً يؤسف له . ونسبة الذكاء هى الناتج من قسمة « العمر العقلى » على « العمر الزمنى » . ولنفرض على سبيل المثال أن خمسة أطفال فى العاشرة من العمر قد أجرى عليهم اختبار ما ، فوجد أن أعمارهم العقلية كانت على التوالى ٦ سنوات وستة أشهر ، و ٨ سنوات ، و ١٠ سنوات ، و ١٢ سنة . و ١٣ سنة فتكون نسبة ذكاء كل منهم — بعد قسمة تلك الأعمار على عمرهم الزمنى وضرب الناتج فى مائة — هى على التوالى ٦٥، ٨٠، ١٠٠، ١٢٠، ١٣٠ . ونسبة الذكاء التى تبلغ مائة تعنى أن نمو الطفل العقلى نمو متوسط بالنسبة إلى عمره الزمنى فإذا كانت أقل من مائة دلّ ذلك على أنه لسبب ما متأخر تأخراً نسبياً عن متوسط سنه ، فإذا زادت على مائة دل ذلك على أنه متفوق تفوقاً نسبياً .

فإذا لاح لنا أن الطفل قد أدى فى الاختبار كل ما يستطيع القيام به ، استطعنا أن نعين مرتبته تعييناً تقريبياً على أساس نسبة الذكاء . فإذا كان لطفل فى العاشرة من عمره نسبة ذكاء تبلغ ٥٠ ، دل هذا على أن له عقلية طفل فى الخامسة . وإذا كانت هذه النسبة لفتى فى السادسة عشرة ، دل هذا على أن له عقلية طفل فى الثامنة وهكذا . لكن التأخر إذا بلغ مثل هذا القدر لا يمكن ألبتة أن يكون نتيجة للأسباب البدنية أو لظروف البيئة ، إذ وجد أنه مهما ساءت تلك الأسباب والظروف لما أدت إلى انحطاط نسبة الذكاء إلى ٥٠ إلا إذا ارتبط بها نقص فطرى فى الذكاء ، وإذا كانت الظروف حسنة دل هذا على نقص عقلى خطير . وإذا كانت النسبة أقل من ٧٠ دل هذا بصفة عامة على نقص يتطلب منا قدراً كبيراً من العناية والرقابة . وإذا كانت أعلى من

١١٠ دل هذا على أن الذكاء أحسن قطعاً من المتوسط ، حتى إنه كثيراً ما يسمى « متفوقاً » . ولو أن خريجى الجامعات قد قدر ذكاؤهم فى الطفولة لوصل جانب كبير منهم إلى نسبة تبلغ ١٣٠ أو تزيد .

وبين نسبة ٧٠ ، ١١٠ منطقة تضم تقريباً كافة الأفراد الذين يمكن أن يقال إن ذكاءهم « متوسط » وأولئك الذين يظن بهم « الغباء » وبعضاً من ناقصى العقل حقا . ولا يلوح أن هناك حدًّا فاصلاً بين هذه الفئات الثلاث . وفى هذه الحالة يبلغ طراز الذكاء حدًّا من الأهمية أجدى فى تعيين كفاية الفرد العقلية من النتائج التى يصل لها فى الاختبار ، وكثيراً ما ينقلب الوضع فى الحالات المتطرفة تبعاً لما للفرد من خصائص غير ذهنية مثل المثابرة وحسن الطبع واستقرار الانفعالات والمظهر الشخصى وما إلى ذلك . لأن هذه الخصائص — عن طريق مباشر أو غير مباشر — تؤثر فى سلوك الفرد الاجتماعى ، وفى موقف الجماعة إزاءه وتؤدى إلى تقوية كفايته الذهنية أو تقضى عليها .

وحين نشر « تيرمان » الأستاذ بجامعة ستانفرد تنقيحه لمقياس « بينيه » فى سنة ١٩١٦ كان قياس الذكاء فى ذلك الوقت لا يزال فى مطالعه . لكن تجارب العلماء فى العشرين سنة الأخيرة زادت خبرتنا بقياس الذكاء زيادة عظيمة ، وكان استخدام مقاييس الذكاء فى الحرب الماضية مما أدى إلى انتشارها وإلى زيادة المعلومات عنها . وكان أهم ما نتج عن ذلك من التغيرات هو : زيادة الحرص فى تفسير النتائج العددية ، ثم تخفيض « العمر العقلى » الذى كان يظن أنه يمثل متوسط ذكاء البالغين من الناس بصفة عامة . على أن « تيرمان » قال — فى عبارة بسيطة — إن الفرد المتوسط يصل إلى نضوجه العقلى حوالى سن السادسة عشرة . ومن المسلم به اليوم عامة أن متوسط سن النضوج يقرب من السنة الرابعة عشرة ، مما يؤدى إلى جعل ذكاء البالغين المتوسط مقابلا لنسبة الذكاء التى تبلغ ٨٧ بدلا من ١٠٠ .

وهناك كثير من الأدلة التي تثبت أن نسبة الذكاء عند أي فرد ثابتة تقريباً في أي عمر يجرى القياس عليه ، أي أن الطفل الذكي يبقى أبداً على ذكائه ، والطفل الغبي يبقى أبداً على غبائه . بيد أنه يوجد إلى جانب ذلك كثير من الاستثناءات ، ومما يصح رغم هذا أن نقرره هو أن التغير إن زاد على خمس درجات أو ست تطلّب منا ذلك زيادة بحث الحالة ودراستها .

وقد يتبادر إلى الظن أن النتائج العددية بصفة عامة تشبه النتائج التي نصل إليها من قياس طول الجسم أو وزنه . لكن قياس الذكاء إن كان نافعاً في تقدير مستوى نمو الطفل في وقت معين ، ومقارنته مقارنة تقريبية بمستوى غيره من الأطفال أو بمستوى الطفل ذاته في أوقات أخرى ، فإن نتائج هذا القياس — على نقيض الاعتقاد الشائع — تبعد عن الكمال وليست ميزاناً دقيقاً كل الدقة لتقدير عقلية الطفل بأكملها . وأكثر من هذا أنها ليست أساساً سليماً يصلح للتنبؤ بنمو الطفل في مقبل حياته .

لهذا كان لا بد لنا في تفسير هذه النتائج الكمية من الاستعانة بنوع آخر من النتائج هي ما يمكن أن نسميه بالنتائج النوعية ، وتتضمن هذه النتائج أشكال العادات والميول وأنواع الاستجابة وما إلى ذلك من الأمور التي لم نستطع بعد إخضاعها للقياس الكمي الرياضي . ومن ثم كانت أحكامنا على هذه الأمور أحكاماً ذاتية بالضرورة إذا قورنت بالنتائج العددية ، لكنها رغم هذا تكون أقل ذاتية من تقديرات الفاحص نفسه لو أنه لم يستخدم تلك المقاييس المقننة . وقد تؤدي بعض الأمثلة إلى إيضاح هذه النقطة .

هـ . . . غلام يبلغ الثالثة وخمسة أشهر ، نسبة ذكائه ١١٧ بمقياس ستانفرد بينيه . ويضعه هذا وفقاً لتقديرات « تيرمان » بين فئة الممتازين التي لا تزيد على ١٠ ٪ من مجموع الناس ويقرر قطعاً أنه « متفوق » الذكاء ، غير أن الأمر لا يبلغ من السهولة هذا المبلغ . فقد كان هذا الغلام طفلا عسيراً ، لأنه رغم

بعده عن التهيب أو المشاكسة كان مسرفاً فى العناد والنزوات ، وكان من العسير جذب انتباهه ، وأعسر منه الإبقاء عليه . ومن الخير أن نقرر أنه لذلك لم يظفر بما كان يستطيع القيام به فى الاختبارات التى أجريت عليه ، وأن ذكاءه الفطرى كان أعلى مما يظهر فيها . ولو أنعمنا النظر فى حاله فى ضوء موقفه فى المنزل لاتضحت لنا علة سلوكه فهو من بيت طيب لكنه طفل وحيد ، وأمه مولهة به حانية عليه لا يطرد لها أسلوب فى تهذيبها إياه ، وهو عنيد صلب الرأى فى الدار ، متعب دائم العصيان ، كثير النزوات فى طعامه لا يأكل إلا إذا أغرته أمه وألحفت عليه ، وكثيراً ما يقىء الوجبة كلها بعد تناولها . وهو يحتكر أكبر جانب من وقت أمه وانتباهها . ولقد قرر الأطباء أن جسمه سليم لا علة به . ومن البين أنا لا نجرؤ على التنبؤ لهذا الطفل بالنجاح فى الحياة اعتماداً على أن ذكاءه الفطرى متفوق تفوقاً نادراً ، ذلك لأن هذا الذكاء فى الحالة الراهنة سوف ينصرف إلى وجوه تتنافى وحياة المجتمع . فإذا هو نشأ على هذه الوتيرة كان دائم الشقاق مع رفاقه فى اللعب وفى المدرسة وفى المجتمع ، ومهما يكن استعداده الفطرى فإنه يمكن أن نتوقع انخفاض ما ينتجه ذكاؤه بالفعل . ومن الناحية الأخرى لو أن أمه أدركت خطأها ، وواتاها من الشجاعة والحزم ما يدفعها إلى إصلاحه ، لكان لنا أن نتوقع لهذا الطفل مستقبلا زاهراً ، فلم يزل بعد غضاً ، وما زالت لشخصيته مرونتها ، وله من الذكاء قدر كبير يهيئه للاستجابة استجابة طيبة للتنشئة الحسنة الحازمة .

وعلى نقيض هذه الحالة ، تبعث حالة ي . . . على الرجاء حقاً . فقد كان يبلغ من العمر اثنتى عشرة سنة وخمسة أشهر عند فحصه . وكانت نسبة ذكائه ١١٨ وأيدت الاختبارات العملية تلك النتيجة الطيبة التى وصلنا إليها بمقياس ستانفورد . وكان فتى لطيفاً يحسن تقديم المعونة ، يبدو منه تماسك الجهد واتصال الميول ، طموح دءوب مثابر ، له بصيرة نافذة وفكاهة حلوة ، وكانت

له فى الجملة شخصية متزنة . ولم يرزق هذا الفتى بيئة سليمة تبعث على الهناءة ، فكانت له بعض مشكلات السلوك ؛ غير أنه قد أوتى عدة طيبة ، لو أتيحت له الفرصة لتوقعنا صلاح حاله وانقضاء مشكلاته ، ولو هيئت له الظروف لكان من الراجح أن يصل إلى الدراسة الجامعية وأن يوفق فيها .

والقياس العقلى موقف يصلح لظهور بعض وجوه شخصية الطفل ، فهذا الفحص يتطلب حديثاً طويلا مع الفاحص . ومع أن من الناس من يشاهدون الطفل أكثر من الفاحص وفى بيئات أخرى مثل المنزل أو المدرسة ، ومع أنه من اللازم أن نقف على كيفية سلوكه فى تلك الظروف ، إلا أن مقابلة الفاحص الطويلة للطفل قد تكشف عن خصائص لا تظهر بتاتاً فى الظروف الأخرى مثل : استقرار الانتباه والمثابرة ، والزمن اللازم للوصول إلى «حمية العمل» ، ومقدار الألفة والميل إلى الناس .

زد على هذا أن ذلك الفحص ليس مسألة آلية ، بل هو يتضمن تفاعلا بين شخصيتين . وعالم النفس مدرب على دقة الملاحظة ، وهو يختلف فى إعداده وخبرته وفى شخصيته عن غيره — أطباء كانوا أو معلمين أو مرشدين اجتماعيين أو آباء أو جيراناً — فهو يلحظ أحياناً من الأمور ما يفوت عليهم ، وقد يستطيع أحياناً أخرى أن يجد ما يؤيد أقوالهم ويكملها . بيد أن عالم النفس ليس ملاحظاً آخر فحسب . بل هو إلى ذلك شخصية أخرى يحتك بها الطفل . ومن الأطفال من يكون سلوكهم واحداً إزاء الناس كافة تبدو لهؤلاء منهم عين السمات والخصائص . غير أن هناك من الأطفال من هم كالحرباء يظهرون لهذا غير ما يظهرون لذاك . وكثيراً ما تكون هذه الحساسية الزائدة للبيئة الاجتماعية عاملا هاماً فى مشكلات الأطفال لابد من اعتباره إذا أردنا إصلاح المشكلة .

ويهيئ الفحص النفسانى فى بعض الأحايين مقدمة طيبة للتبسط فى الحديث . لأنه يقع فى مكان مناسب ليس هو بعيادة طبيب أو فصل فى المدرسة

بل ولا بمنزل الطفل ، وتوحى الاختبارات فى ذاتها بكثير من الأمور التى يميل إليها الأطفال . وعند العمل فى مشكلات الأطفال ينبغى على عالم النفس أن يحدد القيام بما يقوم به أو سوف يقوم به طبيب النفس أو المرشدة الاجتماعية . ومع أن تقسيم العمل بين هؤلاء الثلاثة يختلف من عيادة إلى أخرى ، بل من حالة إلى أخرى فى العيادة الواحدة ، ويتطلب من المرء أن يتصرف وفقاً للظروف ، إلا أن أى تكرار فى العمل ليس إلا مضيعة فى الوقت والجهد ، بل قد يتأتى عنه أذى كبير لما له من أثر على الطفل أو على أبويه .

ومن العسير أن نفى العلاقة الوثيقة ، بين القياس النفسانى من ناحية والتاريخ الطبى والاجتماعى من ناحية أخرى ، حقها من الأهمية. فهانحن أولاء مثلا بصدد س . . . وهو فتى فى الثالثة عشرة ، نسبة ذكائه ٨٧ فقط ، بل إن تقديرها بالاختبارات العملية أقل من هذا لأنه أشد ولعاً بالكتب منه باللعب . وفى حديثه رطانة أجنبية ، كما بدا منه صعوبة غير متوقعة فى فهم ما كان يوجه إليه ، لأن الأسرة تتحدث بلغة أجنبية فى المنزل . ظهر فى عقليته يقظة ، وفى شخصيته خليط لطيف بين مسلك الرجل ومسلك الغلام . ونظراً إلى ما يلقاه من صعوبة لنشأته على لغة أجنبية لم نكن نشك ألبتة فى أن ذكاءه سوىٌّ لا يقل عن المستوى العادى .

و . . . غلام فى السابعة من عمره نسبة ذكائه ٨٠ ولم تكن نتيجته فى الاختبارات العملية خيراً من ذلك . يمكن أن يقال من الناحية العملية إنه ضرير ، إذ أنه لا يرى ، حتى بالنظارات التى أعدت له ، ما يقرب من ربع البصر العادى . ومن الواضح ، على ذلك ، أن الفرصة لم تتح له كى ينشأ على الثقة بنفسه ، أو يحصل على الخبرة والمعلومات التى يصل إليها الغلمان فى مثل سنّه . فتأخره أمر طبيعى ، وما يبدو فى شخصيته من سمات حسنة إنما هو فضل ينسب إليه . فلو أتيحت له الفرصة بإصلاح النقص فى بصره فعسى أن

تكون نتيجة إجراء الاختبار عليه مرة أخرى بعد ذلك خيراً من المرة الأولى فى الدلالة على ذكائه الحقيقى .

وكثيراً ما يدلى إلينا فحص عالم نفس واحد بكثير من الحقائق عن الطفل . فإن هذا الفحص قد يكشف لنا السبب فى سوء سلوكه كأن يكون الطفل ممتازاً فى ذكائه عن بقية أسرته ، إذ أن عصيان الطفل الذكى وعسر قياده أمر يسهل فهمه لو أنه كان بين أهل يخيم الغباء على أذهانهم . زد على هذا أنا لو عرفنا مقدار ذكاء الطفل استطعنا أن ندرك إلى أى مدى يمكن أن نتوقع منه التعاون معنا على تنفيذ الخطط التى نضعها لإصلاح شأنه . بل أكثر من هذا أن ذكاء الطفل الفطرى هو عامل مهم فى تحديد قيمته للمجتمع . ومن ثم فى تعيين مقدار الوقت والمال والجهد الذى يستحق أن نبذله فى سبيله ، فمو أنا كنا بصدد طفل ضعيف العقل قطعاً لن يتمكن يوماً من أن يعول نفسه أو أن يدبر شئونه لكن له أخاً صغيراً سوىّ الذكاء ، لكان من الواضح أن للمجتمع حقاً فى أن يطالب بعدم تضحية الأخ الأصغر — الذى يمكن أن يصبح يوماً عضواً نافعاً فى الحياة — فى سبيل إصلاح شأن أخيه الذى لا رجاء فى إصلاحه . فلندعه يهنأ غافلا عن طفولته ، ولنعمل على تنشئته تنشئة طيبة ، ولنبذل المال سخيا على أخيه السوى فلسوف يفيد منه ، ولسوف يكون لهذا المال جنى وثمرة .

على أن قياساً واحداً نجريه على طفل متأخر ، وخاصة إذا كان به عجز أو إذا ساءت تربيته ، قد لا يؤدى إلى نتيجة حاسمة . وفى هذه الحالة ينبغى أن نصلح ظروفه السيئة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، ثم نعاود فحصه على فترات مناسبة . والمثل الذى ذكرناه قبلا من هذا النوع ، فلو أنَّا وجدنا بعد تحسن بصره أن نتائجه فى الاختبارات قد تحسنت وأنه شرع خاصة يقرب فى عمره العقلى من عمره الزمنى لكان فى هذا ما يبعثنا على الرجاء . على أنه إذا لم يتقدم أو إذا تأخر رغم تحسن ظروفه كان فى هذا ما يدفعنا إلى التحقق من أن مشكلته

الكبرى تعود إلى ضعف عقليته الفطرى . ويتطلب الأمر فى بعض الأحايين أن نقوم بإجراء الفحص عدة مرات حتى نصل إلى قرار قاطع .

ومن أمثلة الحالات التى استلزمت إعادة الفحص عده مرات حالة إ . . . وهى بنت أجنبية صغيرة وفدت علينا لأول مرة منذ عامين ونصف . وكانت تبلغ حينذاك أربع سنوات وثمانية أشهر لكنهم كانوا يعجزون عن قيادها فى المنزل لكثرة حركتها وسرعة تهيجها وكثرة إصابتها بنوبات الطبع الحادة . وكانت تلقى صعوبة كبيرة من لغتها الأجنبية ، كما كان سلوك الطفلة — من بعض وجوهه يبعث على الظن فى ضعف قواها العقلية . وكانت أول محاولة قمنا بها لفحص الطفلة إخفاقاً تاماً . إذ اقتصرت البنت على « الزنّ » ، الأمر الذى ألزمنا بصرفها دون القيام بإجراء الاختبار . وفى المحاولة الثانية التى حدثت عقب ذلك بخمسة أسابيع لم نصل إلى نتيجة لكن الصغيرة لاحت أكثر وداًّ واستجابة فى مسلكها . وبعد فترة أخرى استغرقت حوالى الثلاثة الأسابيع أمكن أن نجرى عليها مقياس ستانفرد فكانت نسبة ذكائها ٦٦ ، مما يرجّح ضعف عقلها لكن صعوبة اللغة كانت تمنع من القطع بذلك ، كما أن تعاون البنت معنا لم يكن كاملا ؛ ثم مرت أربعة أشهر وأجرينا عليها فحصاً آخر فكانت نسبة ذكائها ٧٤ ، وكان سلوكها قد تحسن تحسناً واضحاً . ومنذ ثمانية أشهر رآها فاحص آخر فوصلت نسبة ذكائها إلى ٨٢ ، وكانت فى نفس الوقت قد عادت فى بيئتها القديمة إلى سلوكها السيئ ؛ ثم أجرى عليها منذ قريب فحص آخر تمهيداً لوضعها فى « بيت يكفلها » [1] ، وحدث أن فاحصاً نفسانياً ثالثاً أجرى عليها

(١) Foster Homes «بيوت الكفالة» نظام معروف فى البلاد الغربية وخاصة فى أمريكا ويقصد به أية أسرة يوثق بها ، يمكن أن توكل إليها رعاية الطفل إذا ثبت أن بيئته الخاصة لا تصلح لنموه الخلقى والاجتماعى . ويحظى الطفل المكفول فى داره الجديدة بنفس العناية التى يحظى بها أبناء العائلة وقد انتشر هذا النظام فى الخدمة الاجتماعية لأنه يفضل على وضع الطفل فى الملاجئ أو ما يشبهها ولأنه أقرب شىء إلى روح الأسرة كما ينبغى أن تكون . وهناك من القوانين فى تلك البلاد ما يسمح بانتزاع الطفل من أبويه إذا تبينت عدم صلاحيتهما لتربيته . (المترجم)

الاختبار هذه المرة فكانت-نسبة ذكائها ٩٢ وتبين أنها استطاعت التغلب على عجزها فى اللغة إلى حد كبير ، وبذلك لم يعد هناك أدنى شك فى أن ذكاءها ذكاء سوىّ .

هكذا كان تقدمها المتواصل فى النتائج المتتالية ، حتى ظفرت بنسبة ٩٢ ، أمراً يدفعنا إلى اليقين من مستواها الصحيح ، فلقد كان التحسن فى المرات الأربع الأولى يعود فى أغلبه إلى تحسن موقفها بإزاء الفاحص ، لأن الوقت الذى كان يمر بين كل فحص وآخر كان من القصر بحيث ينفى احتمال تأثير العوامل الأخرى . أما فى النتيجتين الأخيرتين فلعل عامل اللغة هو أهم العوامل فيما حدث من تحسن فيهما . ولا زالت البنت مشكلة ، غير أن لها من الذكاء ما يهيئها إلى الاستجابة للعلاج . وسوف نعمل ، مدفوعين بهذا الأمل ، على أن نجد لها « منزلا يكفلها » تجد فيها نظاماً حازماً ، على حنانه ، يبدو من المحال توفره لها بين أحضان أسرتها المتقلبة المزاج .

وفى سجل الصبية ب . . . من الطرافة ما يمثل لنا معنى الحقائق النوعية ، ويبين لنا الفائدة من تكرار الفحص . فهى تبلغ الآن تسع سنوات وعشرة أشهر لكن عمرها العقلى بمقياس ستانفرد ليس إلا سبع سنوات وأربعة أشهر فنسبة ذكائها على ذلك ٧٦ ، وكانت نتيجتها فى الاختبارات العملية أسوأ من هذا . وهى بنت لطيفة مطواعة لم يبد منها ما ألفناه فى من يفد علينا من الأطفال من تهيب وعصبية ، لكن صوتها كان خافتاً أجش وعباراتها مبهمة وكانت نتائجها تتراوح بين خمس سنوات وثمان فى المقاييس العملية وبين سبع سنوات وعشر بمقياس ستانفرد، ولم يكن فى هذه الحقائق شىء شاذ لكن تحليل نتائجها بمقياس ستانفرد دل على أنها فى اختبارات سن الثامنة لم تنجح إلا فى « اختبارات الفهم » أو الأحكام العملية و « المتشابهات » ، وفى اختبارات سن التاسعة نجحت فقط

فى « تكوين الجمل » وفى سن العاشرة نجحت فقط فى إدراك « السخافات » . وبمقابلة ما نجحت فيه بإخفاقها التام فى اختبارات « الكلمات المسجوعة » الخاص بسن التاسعة ، وبأخطائها الشنيعة فى العد من عشرين إلى صفر الخاص بسن الثامنة ، وبعجزها عن رسم المستطيل وإعادة خمسة أرقام وهو أحد الاختبارات الخاصة بسن السابعة يمكن أن نقف على عدم الاطّراد فى نتائجها ، ذلك لأن الطفل الذى يستطيع القيام بما قامت به لا يجدر به أن يعجز فيما عجزت عنه . وقد يكون ذكاؤها الفطرى محدوداً ، لكن فى التحليل السابق ما يدعو إلى الظن بأنه لا بد من وجود اضطراب شديد فى حياتها الانفعالية يؤدى إلى ذلك الاضطراب فى نتائجها . ومما يؤيد هذا الرأى مقارنة سلوكها الحالى بما ذكره عنها عالم النفس الذى فحصها قبل ذلك بحوالى خمسة عشر شهراً ، إذ كانت نسبة ذكائها ٨٨ وكانت فى أثناء حديثها معه عصبية جداً وصوتها يجلجل واضحاً ينم على الثقة ويدفع إلى الظن بأن الاضطراب الانفعالى الحاد الذى كان يلازمها فى ذلك الوقت قد اختفى وحل محله موقف دفاعى متمكن . ومن الواضح بعد هذا كله أننا بصدد حالة تستدعى منا زيادة البحث والدراسة .

فإذا لم تؤد إعادة الفحص مرات إلى ما كنا نرجوه من تحسن فى نتائج الطفل ، دعانا هذا إلى التساؤل عما يرجى فى طفل منحط الذكاء حقاً . وقد تنفع بعض الأمثلة فى إيضاح ما قد يمكن الوصول إليه فى تلك الحالات .

ف . . . فتاة تناهز السابعة عشرة من عمرها ولها نسبة ذكاء تبلغ ٧١ . ولو تساهلنا فى تقدير عمرها العقلى لقلنا إنه اثنتا عشرة سنة . وهى فتاة لطيفة بشوشة بدا منها الارتياح أثناء الفحص وتعاونت معنا تعاوناً طيباً ، وتبين لنا أنها مع عدم ضعف عقلها حقاً ، على جانب كبير من الغباء ، لا يرجى لها معه أن تسير فى الحياة إلا إذا أحاطها التأييد ووجدت من العمل ما يتناسب وكفاياتها القاصرة .

وكثيراً ما يكون الإخفاق أو النجاح فى ذاته أقل الأمور أهمية فى قياس

الذكاء ، بينما قد تكون الطريقة التى وصل بها الطفل إلى نتيجته سواء أكانت سيئة أم حسنه أمراً له دلالة كبيرة .

ويتمثل لنا من سلوك هـ . . . طراز من الإخفاق الذى تختفى وراءه كثير من مشكلات التوافق الاجتماعى . نسبتها فى الذكاء ٨٨ وقد تأيدت هذه النسبة بعدة اختبارات أجريت عليها .

وتبين من نتائجها بعبارة أخرى أنها على شىء من الغباء . وكانت رقيقة الحاشية بدت عليها العصبية أول الأمر ثم زال تهيبها . وأحسنت تركيز انتباهها وجهدها والإبقاء على ذلك . على أن ما لفت النظر فى عملها هو التغير المفاجئ فى طراز إنتاجها ونوعه كلما زادت صعوبة المسائل التى كانت تعرض لها ، إذ لم تكن تزيد توفيقاً وصواباً كلما زادت المسائل تعقيداً فحسب ، بل إنها كانت تؤدى العمل إذ ذاك أداء منطقياً منظماً . وتبدو قدرتها الكبيرة فى الحكم على عملها وتصحيح أخطائها بنفسها . بيد أنها وصلت فجاءة ودون مقدمات سابقة ، مع زيادة الصعوبات . إلى وقت انخفضت فيه للتو إلى مستوى طفلى فى عملها ؛ ولم يبد منها العجز بل أخذت تفشل فشلا ذريعاً مليئاً بالأخطاء السخيفة وأسوأ من هذا أنه صار يستغلق على ذهنها إدراك تلك الأغلاط .

هكذا يلوح لنا أنه قد قسم لهذه الطفلة أن تكون حياتها فيما بعد معرضة لكثير من الجهاد والشقاء . لهذا ينبغى أن يبذل كل جهد مستطاع لعدم مطالبتها بما يزيد على قدرتها ، فقد ظهر أنها تنجح إذا ناسبت الظروف قدرتها ، على أنه إذا ألقيت عليها يوماً مهمة كبيرة أو فاجأتها الدنيا بأمر جديد حقاً سقط فى يدها وعجزت عن التصرف عجزاً شديداً . فمثل هذه الطفلة فى حاجة إلى رعاية أهلها وأصدقائها الذين ينبغى أن يدركوا حدود قدرتها ، إذ هى تجيد أداء الأمور التى تتفق ومستواها وتفخر بذلك . وهى تستطيع أن تقوم بدورها فى حياة المجتمع لما جبلت عليه من البشاشة ورقة الحاشية .

س . . . صبي فى التاسعة من عمره . أقبل علينا وقد شاع عليه السرور والخفة ، الأمر الذى كان يبعث على الظن بأن ذكاءه يزيد على المستوى العادى ، ولاح مطمئناً يتعاون معنا خلال الفحص كله . غير أن النتيجة كانت مخيبة للظن . فقد كان تفوقه أمراً سطحياً ، وبدت عقليته أقرب إلى الغباء لا هدف لها . وكان بمقياس ستنفرد متأخراً بحوالى سنتين أى نسبته فى الذكاء ٨١ . ورغم أنه لم يكن إلا متوسط القدرة فى ضبط حركاته . وفى استخدام الريشة والقلم فإنه لم يصل إلا إلى النجاح فى مستوى سن العاشرة فى الاختبارات العملية التى أجريت عليه وتراوحت نتائجه فى مختلف الاختبارات اللفظية وغير اللفظية التى أجريت عليه بين مستوى ست سنوات إلى مستوى العاشرة أو الثانية عشرة .

فلو أنا حكمنا عليه فقط وفقاً للنتائج التى وصل إليها ، لقلنا إنه يقرب من السواء ؛ غير أن الرأى الذى يصل إليه المرء إذا راقبه أثناء عمله يقل عن هذا كثيراً ، فإذا حللنا تصرفاته أيد هذا التحليل سوء رأينا فيه . فقدرته اللغوية متأخرة فى النحو وحديثه أقرب إلى حديث صغار الغلمان . ومع أن تفكيره عادى إلى حد ما ، إلا أنه لم يكن موفقاً فيه فى كثير من الأحيان . وكانت أحكامه العملية خاطئة . ولاح أنه سريعاً ما يرضى عن عمله ولا ينقد ما يصل إليه فيه .

تلك هى صورة شخص أدنى من المستوى العادى ، لا يمكن أن يفلح إلا إذا واتته الظروف لكن ظروف هذا الصبى كانت ظروفاً مسرفة فى السوء : فقد أعوزه التأييد الاجتماعى ، وأساء إليه الفقر ، كما أعجزته صحته السقيمة ، وسوء الحال فى بيئته . وقد تبين من فحص الطبيب النفسانى أن الصبى يقاسى إجهاداً انفعاليًّا وأن نفسه مليئة بالشقاء وألوان الكبت التى تعود إلى ما لقيه فى حياته . وبعد معرفة هذه الحقائق سوف نبذل كل جهد لوضعه فى بيئة خير من بيئته ، بأن نجد له منزلا طيباً يتبناه فينصلح مع الزمن حاله . غير أنا بإزاء ضعف عقليته الفطرى وبإزاء هذه السنوات التسع التى

أفعمت شقاء وخبرة ضارة ، لن نعجب يوماً لو أن خطاه أدت به يوماً إلى أحد الملاجئ أو الإصلاحيات .

ولا ينتهي اختبار الذكاء إلا إذا استطعنا أن نقف على مدى قدرة الطفل على التوافق مع المجتمع . فلا خير في رجل مهما بلغ عقله من الذكاء وذهنه من القوة إن هو عجز عن أن يتسق ونظام الجماعة ؛ وإذا تبين بهذه الاختبارات غباؤه لكنه كان موفقاً في صلاته بالناس وفي حياته العملية كان في هذا التوفيق ما يمنعنا من التفكير في إبعاده عن أصدقائه وعن الفئة التي ألف العيش بينها ، بدعوى العمل على وجوب وضعه في مؤسسة تتناسب ومقدرته العقلية ، لأن مجرد تفكيرنا في هذا الأمر سخف وفهاهة في الرأي . فالحق أن قدراً من الذكاء لازم لتحقيق هذا التوافق مع المجتمع . غير أن هذا الذهن في ذاته وسيلة لا غاية ، وطراز الذكاء لا مستواه أكبر أهمية وخطراً في تحقيق هذا التوافق . ويميز رجال التربية في بعض الأحايين بين الطراز « الأفقي » من الذكاء الذي قد يتميز أصحابه في الذاكرة الصماء وأنواع المهارة الحركية لكنهم ضعاف القدرة على استخدام ما يحصلون وعلى الانتفاع به ، وبين الطراز « الرأسي » الذي قد لا يبلغ أصحابه في التحصيل مبلغ أصحاب الطراز الأول لكنهم يتفوقون في استخدام مختلف قواهم واستغلالها . والفرق الهام بين هذين الطرازين من الناحية السيكلوجية هو في مبلغ القدرة على تنظيم المعلومات ، فبعض الناس سريعون في تنظيم الخبرة التي تعرض لهم حتى لتنشأ منهم شخصيات متكاملة حسنة التكامل . أما غير هؤلاء فيلوح أن القدرة على التنظيم تعوزهم ، فهم يتركون أنفسهم وادعين تمر بهم أنواع الخبرة كلما سنحت وتلقى في أذهانهم مرة حصوة ، وتلقى مرة دُرَّة ، وتترك مرة بذرة ، ومرة أخرى حفنة من الطمى . وقد تجتمع البذرة على الطمى مرة فتنمو وتينع وتخرج أطيب الثمار ، لكن هذا لا يكون إلا وفق الفرصة المتاحة العابرة لا وفق العمد وإعمال الفكر .

وهذه القدرة على التنظيم أمر ينبغى أن يعمل الفاحص على الوقوف عليه وأن يكون مفتوح العينين ، فقد يظهر من الدلائل عليه ما لم نكن نتوقعه . ومن الأمثلة على هذا بنت صغيرة فى الرابعة طلبنا إليها أن تنقل رسم مربع . فأمسكت بالقلم وتفرغت للعمل قائلة « أنا عارفة إنى لا أقدر على (رثم) المربع لكنى سوف أعمل (دايغة) » ، وبالفعل رسمت دائرة . ولما كان رسم المربع من الاختبارات المقننة لسن الرابعة ، هذا إلى أن الأطفال فى هذه السن يكونون قد أقلعوا عن لهجة مطالع الطفولة فى الحديث ، فقد تبين إذن أن هذه الطفلة متأخرة من هاتين الناحيتين . غير أنا لو رأينا إلى طراز ذكائها الذى ظهر من سلوكها ، لاتضح لنا أنها كانت تدرك ما تستطيع وما لا تستطيع . وأنها كانت تستخدم فى الحكم على أعمالها مستوى موضوعياً بدلا من الحكم عليه بمقدار رضا الناس عنه أو سخطهم عليه ، وأنها كانت إذا فشلت قابلت الفشل فى ارتياح بعد أن تبذل خير جهد عناها . ولو أننا لم نقم بإجراء أية اختبارات أخرى عليها لاستطعنا أن نقول إن عندها استعداداً طيباً ، ومع هذا فقد أجريت عليها من الاختبارات ما قطع بأن نسبة ذكائها ١٢١ .

وإذا لم تكن نتائج الاختبارات طيبة ، فقد يكون طراز العقلية والشخصية أكثر أهمية فى إلقاء الضوء على مستقبل الطفل . وفى بعض الأحايين إذا عجز الطفل تماماً عن أداء الاختبار فإنه قد يقوم بأفعال تنم عن ذكائه قوة أو ضعفاً .

وفد علينا غلام صغير يبلغ الثالثة وعشرة شهور ، وانقضت المقابلة الأولى بأكملها فى نوبة من حدة الطبع وفدت عليه لفصله عن أمه التى ألفت أن تلازمه ملازمة الظل فلجأ إلى طريقته المألوفة فى فرض إرادته . فلم يكن بد فى هذه الحالة من إغفال الاختبارات المقررة . لكن بدا عنه من تلقاء نفسه قدرة عادية فى تنظيم حركاته ، وقدرة لا بأس بها فى اللغة . هذا إلى قوة حجته التى

تبينت مرة بعد مرة ؛ الأمر الذى دعانا إلى الحكم على عقليته حكماً مؤقتاً بأنها عقلية عادية يرجى منها خير او أحسن تدريبه ونُظمت تربيته .

لكن نوبات الطبع تختلف من حالة إلى حالة ، فها نحن بصدد غلام آخر أهمل إهمالا شنيعاً خلال الفترة التى انقضت منذ مجيئه إلى هذا العالم ، تلك الفترة التى كانت تقرب من الثلاثة سنوات — كما قال أهله الذين لم يكونوا على يقين حتى من تاريخ ميلاده . وكان طفلا وحيداً يترك أبوه المنزل إلى عمله طوال النهار ، وتغرق أمه فى النعاس أغلب يومها لأنها كانت مصابة « بداء النوم » وكانت مقابلتنا إياه عاصفة كما وقع لنا مع صاحبنا الأول ، ولم ينطق إلا بكلمتين فرأينا إزاء ذلك أن نبعث به إلى إحدى « دور الحضانة » كى يبقى هناك تحت المراقبة فترة يلاحظه فيها المشرفون عليها . فبقى هناك أسبوعاً ، أتانا بعده تقرير يقول بأنه أصيب بنوبات من الطبع كانت تفد عليه كل يوم ، وأنه لا يميل إلى غيره من الأطفال أو يحفل بأمرهم . بل إنه لا يهتم باللعب إلا قليلا . وأنه إذا أطعم أكل لكنه لا يحاول أن يأكل بنفسه . ولم يكن هناك بالاختصار ما يدل على أن نموه العقلى يزيد عن مستوى السنة الأولى . وعلى هذا رأينا بوضوح أننا بصدد حالة من التأخر العقلى الشديد تتطلب وضع هذا الطفل فى إحدى المؤسسات التى تعنى بأمثاله .

أما س . . . التى تبلغ الثامنة والنصف من عمرها فهى مثل طيب للأطفال المتفوقين فى الذكاء حقاً فنسبة ذكائها ١٣١ ويؤيد هذه النسبة طراز عملها . وهى بنت ودودة غير هيابة يبدو منها اتزان وأدب نادران . فى يديها ثبات ومهارة ، وفى انتباهها سهولة فى التركز والدوام . هذا إلى جودة نوعه إذ أن قدرتها على الانتباه لم تكن تقتصر على الاستقبال فحسب ، بل كانت من طراز الانتباه المبدع الذى يقدم على المسألة ويعمل على حلها . وكانت متفوقة فى مقدار ما تعرف من المفردات اللغوية ، إلى جانب تفوقها فى الذاكرة والاستدلال

وكان عملها منظماً جداً ولها قدرة طيبة على النقد والتحليل . كل هذا يدعو إلى القول بأنها تستطيع أن تقوم فى المدرسة بعمل أصعب مما تقوم به ، يتطلب نقلها إلى فرقة أعلى من الفرقة التى هى بها ، على أن نراعى فى هذا التدرج الواجب حتى نبقى على ثقتها بنفسها وعلى استمتاعها بالعمل واللعب معاً . وأغلب الظن أن البنت لو واتتها الظروف لبلغت مرتبة التعليم الجامعى أو ما يناهزها .

ولعل خير ما فى الأطفال الممتازين أنهم ياوحون أقرب إلى « الطبيعة » من أولئك العاديين . وأن الممتازين « أسوياء » لا بمعنى أنهم أوساط ، بل بمعنى أنهم أقرب الناس إلى ما ينبغى أن يكون عليه الناس .

وإذا كنا نود أن نحسن رسم الخطة لحياة أحد الأطفال كان من اللازم أن نعرف كل ما يمكن معرفته عن استعداده العقلى. لأنه إذا أعوزتنا تلك المعرفة فإننا قد نتحيف على الطفل الغبى بلومه على عجز ليس فى وسعه إصلاحه . كما أنا قد نتحيف على الطفل الذكى إذا لم نهيئ له من الفرص ما يتناسب وقدرته . بل إنا بهذا قد نكون أكثر تحيفاً على المجتمع منا على الفرد إذا قصرنا من ناحية عن حماية الجماعة من القاصرين أو العاجزين ، وعجزنا عن إعطاء الجماعة خير ما يستطيع أن يؤديه لها أعضاؤها الموهوبون من الناحية الأخرى .

ويفوق هذا خطراً أن نتفهم طراز العقلية التى نحن بصددها وأن لا تخدعنا ، مثلا ، مظاهر النجاح التى قد يفلح فيها صاحب الذاكرة الصماء فى مطالع حياته المدرسية ، أو بطء الطفل الذى يتأنى كى ينظم معرفته قبل أن يبحث عن غيرها .

وأهم من ذلك كله أن نقف على الطريقة والغايات التى يستخدم فيها الطفل ذكاءه ، فمن أجل الخصائص شأناً لخير المرء ولخير المجتمع ، قدرة المرء على استخدام موارده الذهنية والميول والأهداف التى تتحكم فى سلوكه . ومقدار اتزان حياته الانفعالية ، واستجابته لأوضاع المجتمع ومطالبه ، وتصرفه فى الصعاب التى تعرض له ، وما إلى ذلك من الخصائص الأخرى .

الفصل العشرون

اللعب والاصحاب

ينقضى جانب كبير من حياة الطفل فى اللعب أى فى تسلية نفسه والمتعة بتسلية الآخرين إياه ، ومن ثم كانت مختلف لعبه وأصحابه والمنوال الذى يملأ به وقته أموراً بالغة الأهمية . ويلقى الطفل خلال اللعب أول دروسه فى ضبط العضلات وتدريب الحواس وإنماء المدارك ، هذا إلى أن التدريب والخبرة يسيران جنباً إلى جنب . لهذا كان من اللازم أن نلم بأنواع الخبرة التى ينبغى أن يمر بها الصغير ، وبصنوف الأدوات التى تيسر أمر التدريب .

والطفل قبل الثانية من عمره لا يحفل كثيراً بغيره من الأطفال ، إذ هو يرنو ببصره إلى الإفادة والتعلم من الكبار البالغين ، ومن الغلمان الذين يكبرونه ؛ ومن الدنيا العجيبة التى تحيط به ، بل إن الحظ لو واتاه لأتيحت له فرصة للتعلم من الرضيع الصغير الذى وكلوا إليه العناية بجانب من شأنه . على أنه بعد سن الثانية يبدأ فى ملاحظة غيره من صغار الأطفال . وهو قد يقتصر على أن يرقبهم أثناء انصرافه إلى لعبه الخاص ، لكنه يرتاح إلى وجودهم على كثب منه . وقلما يندفع الأطفال من تلقاء أنفسهم إلى اللعب جماعات وهم بعد فى رياض الأطفال ، لكن وجودهم معاً يكسبهم عادات أساسية مثل « متاعى ومتاعك » « عش واترك الآخرين يعيشون » .

وبعد سن الثانية لا ينبغى أن يقتصر الطفل على صحبه الكبار فحسب ، مهما بلغ عطفهم عليه أو حكمتهم فى رعايته أو ملاعبتهم إياه . فإذا لم يكن بد من أن يكون فى حياته جانب كبير من صحبة الكبار ، وجب أن يلتزم هؤلاء

قاعدتين لابد من التزامهما فى كل صلة تقوم بين الكبار والصغار :

والقاعدة الأولى تحتم عدم التدخل فى شأن الطفل أثناء انصرافه إلى عبثه ولعبه إلا إذا استلزم نظام طعامه أو نومه ذلك أو تعرض هو للخطر . ذلك لأن السعى نحو غاية ، وتركيز الجهد والأصالة فى الإنتاج إنما هى ما نبغيه له من خصائص الشخصية بعد ذلك فى حياته . وكثرة الأطفال لديهم تلك الصفات على أقدار متفاوتة ، فهى العدة العقلية التى يستكشفون بها الدنيا التى يعيشون فيها ، ولو أنا ثلمنا تلك العدة أو نبذناها لكان من العسير بل من المحال على الطفل أن يستعيض عنهما بشىء ما فى مقبل الحياة .

فينبغى لهذا أن نبقى على الهامش بعيداً عن حياة الطفل ، على أن نكون على أهبة لتشجيعه وتقدير أعماله وتقديم العون له إذا طلبه إلينا فقط .

أما القاعدة الثانية فتقول بوجوب خضوعنا لزعامة الصغار إذا أرادوا اللعب معنا ، نتقبل الفكرة أو الخطة التى يرسمونها ولا نفرض عليهم ما نود نحن فى اللعب . حتى نأمل بذلك الانزلاق إلى المبالغة فى استثارتهم ، هذا إلى ما يجنيه الطفل من معلومات جديدة من ملاحظته أشكال استجابتنا على مختلف الأفكار التى يبديها هو . وهكذا نستطيع أن نوجه نشاطه فى لباقة تبعد به عن الفوضى والإسراف فى العبث الأعمى ؛ وأن نقف على أسلوبه فى التفكير ودرجة نموه ، وهى أمور من المحال أن نقف عليها لو قمنا بدور القيادة والتوجيه فى اللعب .

أما عن الصحبة التى تلزم الأطفال فيما دون الثانية من العمر ، فلا بأس من الاكتفاء بما يتأتى منها فى محيط الأسرة المألوف . فإذا لم يوجد فى الدار أطفال آخرون كان على الكبار أن يحسنوا ملاعبة الفطيم ويشاركوه ألعابه حتى يكون له فى هذا دربة على الاتصال فيما بعد بغيره من الأطفال .

وفيما بعد الثانية ينبغى أن يصرف الطفل الشطر الأكبر من أوقات لعبه مع غيره من الأطفال الذين يماثلونه فى السن أو يزيدون عنه قليلا ، والشطر الأصغر

مع الأطفال الذين يصغرونه أو الذين يكبرونه بكثير ، ذلك لأن الطفل يلقى إجهاداً كثيراً لو أنه فرض عليه أن يلاحق من يفوقونه من أترابه ، رغم أن جانباً محدوداً من هذا إنما هو مثير نافع جزيل الفائدة . أما كثرة اللعب مع من يصغرونه فإنه لن يزوده بما يكفى من المثيرات رغم أن قضاء بعض الفترات القصيرة معهم أمر جليل الفائدة لتنمية الرعاية والعطف على الآخرين فى نفسه . على أنه بعد سن الثالثة يكون من الخير أن ندعه يقضى بالتدريج جانباً أكبر من وقته مع من يصغرونه من الأطفال . فى هذا تدريب له على ضبط النفس والسماحة وبذل العون والعطف والحنان وغير ذلك من الصفات اللازمة لخيره وخير الناس .

واللعب هو شغل الطفولة الشاغل فى السنوات الأولى ، وهو وسيلة الطفل فى التعرف على ما يحيط به والتكيُّف وفقه . وتنقسم حياة الصغير إلى جانبين أحدهما خاص بالوتيرة ، والآخر خاص باللعب . ويختلف الطفل فى تلك السنوات عن كبار الأطفال وعن البالغين فى أن ليس لديه وقت فراغ . وفى أنه لا يود هذا الفراغ أو يحتاج إليه ، فإن عمله على تناول الأشياء والاتصال بمن حوله من الناس يملأ عليه حياته ملئاً متصلا لا يقطعه إلا وتيرة الأكل والنوم .

فكل شىء من هذه الناحية عدة تنفع فى اللعب ، ومن ثم كانت لأدوات المنزل المألوفة قدرها باعتبارها أشياء يلعب بها الطفل ، فهو يتوق توقاً شديداً إلى القيام بما يقوم به الكبار ، يود له أنه استطاع أن يفتح الأدراج والأبواب ، ويحمل الصحاف ، ويقطع بالمقص ، ويغسل الخضر . . . وحرمان الطفل من القيام بهذه الأمور فيه من الخطورة قدر فى ما حرمانه من اللعب المألوفة لأن كلاهما لازم له .

والإسراف فى عدد اللعب التى تتوفر للطفل مفسدة لتنشئته من الناحية الوجدانية والعقلية والاجتماعية ، كما أن قلة اللعب مفسدة كذلك . لهذا ينبغى أن يكون عدد اللعب محدوداً ، فيها من الاختلاف ما يتناسب وميول الطفل .

وما زاد عن هذا وجب إبعاده عن الطفل حتى تدعو الحاجة إليه .

وينبغي أن يخصص للعب مكان يستطيع أن يصل إليه الطفل ، فإذا كان للأسرة أكثر من طفل واحد فليكن لكل منهم ركن أو رف أو صندوق خاص به ، كما يجب أن توكل إليه مسئولية جمع لعبه ووضعها فى مكانها بعد انتهائه من اللعب بها . كما يجب أن ينشأ كل طفل على عدم الاعتداء على لعب غيره . أما السماحة والكرم والتعاون فهى أمور يمكن أن تنمو فى نفس الطفل إلى جانب التزام النظام واحترامه لحقوقه وحقوق غيره .

فإذا ما تحدثنا عن أنواع اللعب رأينا أن أولها وآخرها هى الكرة ، فهى لعبة شائعة لطيفة عرفها الناس فى مختلف الأجيال وهى تنفع مختلف الأعمار . والطفل يفيد كثيراً من لعبه بالكرات على اختلاف أحجامها وألوانها وأوزانها ، إذ تتيح له فرص المقارنة والحكم ، وتعينه على تنمية الحذق وضبط النفس والحركة العضلية والعقلية . ولعل الكرة هى اللعبة الوحيدة التى تحتفظ بمكانتها لدى المرء حتى فى كبره ، ولقد كانت كذلك منذ فجر التاريخ ، تجتذب الصغار والكبار على السواء .

ويجب أن تتناسب اللعب وسن الطفل : فنى مرحلة الحبو حين يكون الفم مركزاً للإحساس ينبغى أن تكون اللعب من الصنف الذى يمكن غسله كأن تكون من الخشب أو المطاط ، واللعب التى يميل إليها الأطفال فى هذه السن هى التى تخرج أصواتاً كالشخاشيخ والمقارع .

لكن الطفل إذا ما تخطى الثانية وجب أن يترك الشخشيخة ، فإذا أراد ضوضاء فليستخدم علبة من الصفيح أو طبلة . ومن المبادئ الطيبة ذلك المبدأ الذى يقول « بوجوب مسايرة اللعب لعمر الطفل العقلى » .

وعقب السنة الأولى يبدأ الأطفال فى الميل إلى العلب والصناديق ينزعون أغطيتها ، فإذا تقدموا فى العمر قليلا أخذوا يحاولون إحكام تلك الأغطية —

فمن الخير أن يتوفر للصغار من الصناديق ، كبيرها وصغيرها ، ما يعبثون به ، أو ما يدخلون فيه ويخرجون ، ولو كان فى ذلك بعض السقطات التى لا تؤذيهم . هذا إلى أن الأطفال فى الشطر الأول من السنة الثانية يتوقون إلى كشف الدنيا التى تحيط بهم إلى حد يدفعهم إلى استخدام أى شىء يقعون عليه كلعبة يلهون بها ويعبثون .

هناك إلى ذلك العربات الصغيرة والمكانس والقطر وكل ما يجر أو يدفع ، والدمى « والعرائس » والحيوانات ، وهى لعب محببة للصبيان والبنات على السواء ، ولا ننس الأوراق والأقلام والألوان . وفيما بعد الثالثة تنفع المقصات الثالمة والصور والورق الملون والأصباغ وما إلى ذلك كوسيلة إنشائية تبعد الطفل عن الميل إلى الهدم والتدمير . ويمكن أن يستعان على ذلك أيضاً بكتل البناء وقطع الورق التى يمكن تمزيقها وتقطيعها ، وبمطرقة وبعض المسامير وكم قطعة من الخشب ، وأن نزيد عليها منشاراً مثلا وفقاً لتقدم الطفل فى السن والمقدرة . . فالبناء والهدم وجهان متقابلان للدافع إلى التناول الذى يرى واطسون أنه أحد الميول الفطرية القليلة التى نبدأ بها الحياة .

والماء يجتذب الطفل ويحلو له العبث به ، ويمكن أن نعلمه الإنشاء فيه بإتقان الملء أو الصب أو الاغتسال أو تنظيف الأوانى والملابس . كما يمكن أن نهيئ للصغار متعتهم بفقاعات الصابون لو زودناهم ببعض الغاب فى حوالى سن الثالثة .

أما الألعاب الميكانيكية فهى أكثر اللعب إغراء بالتحطيم ، لأنها سرد يود الطفل الوقوف عليه بتفكيك أجزاء اللعبة والكشف عن محتوياتها . . . وينبغى فى إيجاز أن نزود الطفل بما يكفيه من لعب يناسب سنه .

إلى هذا كله ، هناك من الأمور ما ينبغى تنشئة الأطفال عليه ، كتعويدهم تقديم العون فى شئون المنزل ، وتحبيب الموسيقى والأنغام إليهم ، والإنصات إلى

القصص والحكايات حتى ينبعثوا فيما بعد إلى أداء الموسيقى وإلى حب القراءة والاطلاع .

ومن ثم يتبين مما تقدم وجوب العناية بلعب الأطفال حتى نهيئ له بذلك الفرصة التى يجنى منها القدرة والمهارة والعادات الاجتماعية التى تلزمه بعد ذلك فى حياته المقبلة .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧

فهرس



ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة